بيرل باك

رياح الشرق رياح الغرب

7.8.2017



روايات جائزة نوبل

15

ترجمة وتقديم د. غبريال وهبة

الدار المصرية اللبنانية

رياح الشرق رياح الغرب

EAST WIND : WEST WIND

بيــــرل بـــاك

نــوبـــــل / 1938

ترجمة وتقديم

د. غبريال وهبة

روايات جائزة نوبل

15

روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المدير العام : **محمد رشاد**

رئيس التحرير : **فتحي العشري**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحي**

---

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ٨٥٧٠/ ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : 5 - 610 - 270 - 977

الطبعة الأولى : صفر ١٤٢١ هـ ـ مايو ٢٠٠٠ م.

الفصل الأول



1

هذه الأشياء يمكن أن أرويها لَكِ يا أُختاه، لايمكننى أن أتحدث هكذا إلى واحدة من بنات وطنى أو إليهن ، إذْ إنها لن تفهم البلدان البعيدة حيثِ عاش زِوجى اثنى عشر عاماً، كما لايمكننى أن أتكلم بصراحة إلى واحدة من النساء الأجانب اللائى لايعرفن شعبنا ، وأسلوب الحياة التى ألفناها منذ عصر الإمبراطورية القديمة . ولكن أنْتِ .. لقد عِشْتِ بيننا كُلَّ سِنِى عمرك ، وعلى الرغم من أنكِ تنتمين إلى تلك البلدان الأخرى التى دَرَس فيها زوجى كتبه الغربية فإنك ستفهمين . إننى أتكلم الصدق ، لقد أسميتُكِ أختى ، وسأخبرك بكل شىء .

إنكِ تعلمين أن أسلافِ المبجلين قد عاشوا فى هذه المدينة القديمة إبَّان المملكة الوسطى التى استمرت طوال خمسمائة عام .لم يكن هناك أحَدٌ من أبناء ذلك العصر ذو نزعة حديثة ، أو له رغبة فى تغيير نفسه . لقد عاشواجميعًا فى هدوء وسكون ووقار ، واثقين من استقامتهم وصحة رأيهم. وهكذا نَشَّأَني والدَاىَ فى ظل كل تقاليد الشرق . لم أحلم قط

بأننى يمكن أن أرغب فى أن أكون مختلفة عنهم . وبدون أن أفكر فى الأمر بَدَا لى أننى كما كنت،فإن جميع الناس الحقيقيين كانوا مثلى . وكنت إذا ما سمعتُ همساً عن نساء لايشبهننى من أنحاء نائية خارج أسوار فناء الدار ، وأنهن يَرُحْنَ ويجِئْنَ بحرية مثل الرجال ، لا أنظر إليهن بعين الاحترام .وكما تعلمتُ سِرْتُ على الدرب الذى راَقَ لأسلافى . ولم أتأثر قط بأى شىء من الخارج ،ولم أرغب البتة فى شىء على الإطلاق ، ولكن ها قد جاء الآن اليوم الذى صرتُ أتلهف فيه على مراقبة هذه المخلوقات الغريبة – أولئك النسوة العصريات – وأنا أنشد كيف أصبح مثلهن . ولم يكن يا أختاه من أجلى ، ولكن فى سبيل زوجى .

إنه لا ينسجم معى ! وهذا لأنه عَبَر البحارَ الأربعة إلى بُلدان أخرى فى الخارج، وتعلَّم فى تلك المواطن النائية أن يحب أشياء وعادات جديدة .

والدتى امرأة حكيمة ، ففى العاشرة من عمرى لم أعد طفلة ، وأصبحتُ فتاة عذراء ، فقالت لى تلك الكلمات :

« إن المرأة فى حضرة الرجال يجب أن تحتفظ بصمت الزهرة ، وعليها أن تنسحب مبكرًا فى اللحظة الممكنة دون ارتباك » .

وعلى ذلك تذكرتُ ما قالته لى حين وقفتُ أمام زوجى ، أحنيتُ رأسى، ومددتُ كلتا يدىَّ أمامى ، ولم أنبس بِبَنْتِ شفة حين تحدَّثَ معى . ولكن أُوه ! لقد خفتُ أن يجد فى صَمْتى تَبَلُّدًا فى حِسِّى !

وعندما أبحث فى عقلى عن شىء يثير شوقه ، كنتُ أُفَاجَأ بأن ذلك

الشـىء عقيم فارغ ، كحقول الأرز بعد الحصـاد . وحين أكون وحدى منشغلة بالتطريز ، فإننى أفكر فى كثير من الأشياء الجميلة الرقيقة لأُحَدِّثَهُ بها . سأقول له كيف أحبه . ليس – كما تتذكرين – بكلمات وقحة أُحاكى فيها الغَرْبَ الجشع الضارى ، ولكن بكلمات مستترة ، مثل هذه :

« سيدى ، هل لاحَظْتَ كيف بزغَ الفجرُ فى هذا اليوم ؟ لقد كنت كما لو أن الأرض المتبلدة قد قفزت لتلتقى بالشمس . كان الظلام جاثمًا ، ثم أشرق ضوء رائع كموسيقى عذبة تنساب فجأة ! يا سيدى العزيز ، إننى أَرْضُـكَ المتبلدة التى تنتظر ... ».

أو أقول له عندما يبحر فوق بحيرة اللوتس فى المساء :

« ماذا لو أن المياه الواهنة الشاحبة لم تعد تشعر كيف يثير القمر انتباهها؟ وماذا لو أن الموجة لم يبعث فيها ضوؤه الحياة مرة أخرى ؟أُوه يا سيدى كن حَذِرًا ، وَعُدْ لى سالمًا ، مخافة أن أكون ذلك الشـىء الواهن الشاحب دونك! » .

بيد أننى لم أَقْوَ على التَّفَوُّه بتلك الأشياء حينما يجىء متدثرًا بملابس أجنبية غريبة .. أَوَ يرجع ذلك إلى أننى تزوجتُ أجنبيًّا ؟ إن كلماته قليلة ، ويتحدثها بلامبالاة ، وتنزلق عيناه فوقى بتعجل ، على الرغم من أننى أرتدى ثوباً من « الساتان » بلون الخوخ ، وزَيَّنْتُ شعرى المعقود حديثًا باللآلىء .

هذه أحزانى .. لقد تزوجتُ منذ شهرٍ عشتُ خلاله فى عُزْلَة ، وإننى لستُ جميلة فى عينيه .

* * *

أُختاه.. إننى أفكر الآن مليًّا طوال ثلاثة أيام . يجب أن استعمل المكر ، وأبحث عن وسيلة لجذب عَيْنَىْ زوجى نحوى . أَوَ لستُ من سلالة أجيالٍ من النساء لاقَيْنَ استحساناً فى أعين أزواجهن ؟ لم تكن هناك واحدة تفتقر إلى الجمال طوال مائة عام مضت سوى واحدة فقط تدعى « كواى – ماى»، التى عاشت فى عصر « سونج » وأُصيبت بالجدرى وهى فى الثالثة من عمرها ، فخلف المرضى نُدوبًا وحفرًا فى وجهها . ومع هذا فقد دُوِّن فى السجلات أنها على الرغم من ذلك كانت ذات عينين سوداوين تبدوان كلؤلؤتين، وصوت كان يهز أفئدة الرجال، كما تفعل الرياح بالغاب فى الربيع . وقد أعزَّها زوجها إعزازًا كبيرًا ، فعلى الرغم من وجود سِتِّ محظيات له يُناسبن ثروته وجاهه وطبقته ، فإنه لم تحظ واحدة منهن بمثل الحب الذى كان يُكِنُّه لزوجته . وكانت « يانج كواى – فاى » إحدى جداتى فى سلسلة أسلاف ، التى كان منقوشٌ على معصمها طيرًا أبيضَ ، كانت تسيطر على الإمبراطورية براحتى يديها المعطرتين منذ أن فُتِنَ الإمبراطور – ابن السماء – بجمالها . ولمَّا كنتُ آخر أولئك النبيلات الشريفات المبجلات ، فلابد أن دماءهن تسرى فى عروقى ، وعظامهن هى عظامى .

لقد تفحصتُ صورتى فى مرآتى البرونزية ، لا من أجلى ، ولكن من

أجله هو ، وهأنذى أُخبركِ بأننى أرى أن هناك غيرى أقلّ مِنِّى جمالاً . إن عَيْنَىَّ فيهما شدة بياضٍ محدد بوضوح عن سوادهما ؛ وأَرَى أُذُنَىَّ الصغيرتين تعانقان رأسى برقة ، ولذا فإن أقراطى المصنوعة من الأحجار الكريمة والذهب تظل معلقة على مقربة من صدغىّ ؛ وكذلك أرى فمى صغيرًا أيضًا ، ويصنع منحنيًا ينسجم مع وجهى البيضاوى . وكم وددتُ ألاَّ أكون بمثل هذا الشحوب ، وأن يمتد حاجباى بمقدار ثُمْن بوصة صوب صدغىّ . إننى أصحح شحوبى بلمسة من اللون الأحمر الوردى على راحتىّ اللّتين أدلك بهما خدىّ . وأُزَجِّج حَاجِبَىَّ بفرشاة مغموسة فى طلاء أسود، فيبلغان حد الكمال فى دقتهما وطولهما .

إننى على قَدْرٍ كافٍ من الحُسن ، ومستعدة له ، ولكنه فى اللحظة التى تقع فيها عيناه علىّ ، أدركَ ، أنه لم يلحظ شيئًا ، لاشَفَتَىَّ ولا حَاجِبَىَّ ، إنه يهيم بأفكاره فوق الأرض، وعبر البحار ، وكل مكان عدا المكان الذى أقف فيه منتظرة إيَّاه !

* * *

عندما تكهن ضارب الرمل محددًا يوم زواجى ، وحين كانت الصناديق الحمراء المصقولة ممتلئة إلى حافتها ، وعندما تكدست أغطية «الساتان » الموشى بالأزهار القرمزية عاليًا فوق المناضد ، وارتفعت كعكات العُرْس مثل أبنية الباجودا البوذية المتعددة الطوابق ، دعتنى والدتى للمجيء إلى حجرتها. غسلتُ يَدَىَّ ، وسويتُ شعرى ، ودخلتُ إلى مقر سكنها . كانت تجلس على كرسيها الأسود المنقوش تحتسى الشاى .

كان غليونها المصنوع من الغاب المطعم بالفضة يستند إلى الجدار بجوارها . وقفتُ أمامها خافضة الرأس دون أن أجرؤ على ملاقاة عينيها ، ومع ذلك شعرتُ بنظرتها الحادة تحدق فى وجهى ، وتغمر جسمى وقدمىَّ . وقد نفذ دفئها فجأة إلى أعماق قلبى من خلال الصمت . وأخيرًا أَمَرَتْنِى بالجلوس . وراحت تتسلى بقزقزة بذور البطيخ من طبقٍ على المنضدة على مقربة منها ، وكان وجهها هادئاً بتعبيره الحزين الغامض المألوف . كانت أمى حكيمة .

قالت لى : « كواى – لان ، يا بُنَيِتى .. إنكِ على وشك أن تتزوجى الرجل الذى خُطبت له من قبل أن تولدى . كان والدك ووالده صديقين حميمين كما لو كانا شقيقين .. لقد أقسما على أن يرتبطا معاً من خلال أبنائهما. كان خطيبك حينذاك فى السادسة من عمره . وقد ولدتِ أنتِ فى غضون ذلك العام . وهكذا شاء القدر أن يكون ذلك نصيبك . لقد رُبِّيتِ من أجل تلك الغاية .

وطوال السبعة عشر عاماً من حياتك كانت ساعةُ زواجكِ هذه فى ذاكرتى . ومن كل شىء علمتُكِ إيَّاه أخذتُ بعين الاعتبار شخصين : والدة زوجك ، وزوجك . وإكراماً لها علمتُكِ كيف تُعِدِّينَ الشاى وتقدمينه لمن يكبرك سنًّا ، وكيف تقفين فى حضرته ، وكيف تنصتين فى صمت عندما يتحدث ، سواء بالمدح أو اللوم ، وفى كل تلك الأشياء علمتُكِ أن تستسلمى كما تستسلم الزهرة ممتثلة للشمس والمطر على حد سواء .

ومن أجل زَوْجِكِ علمتُكِ كيف تجمِّلين نفسك ، وكيف تتحدثين إليه

بعينيك المعبرتين دون أن تتفوهى بأية كلمات ، وكيف تـــ.... بيد أن هذه الأشياء ستفهمينها عندما تحين الساعة وتكونين وحدك معه.

بناء على ذلك فأنتِ متمكنة من جميع واجبات السيدة الفاضلة ، حلوة الشمائل . إنك تدركين أن إعدادَ المربَّى والحلوى والأطعمة اللذيذة قد تفتح شهية زوجك وتغريه على تناول طعامه ، وتجعله يركز أفكاره على أهميتك ، ويقدرك حق قدرك . ولا تتوانى أبدًا عن إمتاعه ببراعتك فى صنع شتى الأطباق .

وأنت تعرفين عادات وسلوك وآداب المعاشرة فى الحياة الأرستقراطية.. كيف تدخلين وتغادرين فى حضرة مَنْ هم أعلى مقامًا ، وكيف تتحدثين مع من هُمْ أدنى منزلة ، وكيف تدخلين محفتك ، وكيف تُحيين والدته فى وجود الآخرين .. هذا وكيف تتصرف المضيفة ، ورقة الابتسامات، وفن تزيين الشعر بالحلى والأزهار، وصبغ شفتيك وأظفارك ، واستعمالك للعطر ، وبراعة لُبْس أحذيتك فى قدميك الصغيرتين .. واهًا،لقدميك وما كلّفتا من دموع ! ولكننى أعلم أنه لا يوجد أصغر منهما فى جيلِك . إن قَدَمَىَّ كانت أصغر قليلاً عندما كنتُ فى مثل سِنِّكِ وهذا شىء نادر . وكم أرجو أن تكون أسرة « لى » قد اهتمت برسائلى وربطت جيدًا قَدَمَيِ ابنتهم خطيبة ولدى .. شقيقك . غير أننى أخشى من هذا الأمر ، لأننى سمعتُ أنها تعلمت فى الكتب الأربعة ، ولم تكن النساء اللاتى تعلمن من الحسناوات على الإطلاق . يجب أن أُعاود إرسال كلمة بخصوص هذه المسألة لمن توسَّط بيننا .

أمَّا من جهتك يا بُنيتى ، إذا كانت زوجة ابنى تضاهيك ، فلن أشكو كثيرًا ، فأنت قد تعلمت العزف على الهارب القديم الذى طالما مَسَّتْ أوتارَهُ برشاقة أجيالٌ من نسائنا ليبهجن أزواجهن . إن أناملكِ ماهرة، وأظفارك طويلة . وقد تعلمتِ أيضًا أشهر قصائد قُدَامَى الشعراء ، ويمكنكِ أن تنشدينها غناءً عذبًا وأنت تعزفين على آلة الهارب . وإننى لا يمكن أن أرى حماتك ، ستجد شيئًا قد فاتنى فى تربيتك ، إلا إذا لم تنجبى لهم ولدًا ! بيد أننى سأتوجه إلى المعبد، وأُقدم للإلٰهة قربانًا إذا انقضى العام الأول دون أن تحملى » .

صعد الدم إلى وجهى . لا يمكننى أن أتذكر متى كنت لا أعلم شيئًا عن الولادة والأمومة ؟ إن الرغبة فى إنجاب الأولاد فى أسرة مثلنا تشمل ثلاث محظيات لأبى ، جُلُّ هَمِّهِنَّ ينحصر فى الحمل وإنجاب الأطفال، كان شيئًا عاديًّا لا يكتنفه أى سر أو غموض ، حتى التفكير فى ذلك من أجلى لم يجعل والدتى ترى احمرار وجنتىّ . لقد جَلَسَتْ مستغرقةً فى التأمل ،وعاودت التسلى مرة أخرى بقزقزة لب البطيخ .

وأخيرًا قالت :

– هناك شىء واحد فقط .. لقد كان فى الخارج فى بلاد أجنبية ، ودرس طبها وأدويتها . إننى لا أعرف .. ولكن كفى ! فالزمن كفيل بإظهار كل شىء .. انصرفى .

* * *

لا أستطيع يا أُختاه أن أتذكر متى تحدثت والدتى بمثل هذا الكم من الكلمات ، فهى فى الواقع نادرًا ما تكلمت إلا لتُصَحِّحَ أو لتأمر . وهذا حقها، فلم تكن هناك امرأة أخرى فى جناح النساء الخاص بنا تضاهيها ، فقد كانت السيدة الأولى فى المكانة وقدرتها الفطرية .

لقد رأَيْتِ والدتى يا أختاه .. إنها - كما تتذكرين - سخيفة جدًّا ، ويبدو وجهها كما لو كان منحوتًا من العاج لاصفراره وشحوبه وهدوئه . لقد قيل - كما سَمِعْتِ - إنها كانت فى شبابها قبل أن تتزوج ذات حاجبين كحاجبى الفراشة فى جمالهما الأخَّاذ ، وشفتين فى رقة براعم أشجار السفرجل بلونها القرمزى الغامق الذى يُحاكى لون هياكل المرجان . بل إن وجهها - على الرغم من عدم اكتنازه باللحم - ما زال يحتفظ بشكله البيضاوى الواضح كذلك الذى نراه فى لوحات النساء من القدماء . وبالنسبة لعينيها فإن السيدة الرابعة ، وكانت لَسِنَةً ، قالت عنهما ذات مرة :

« إن عَيْنَىِ السيدة الأولى جوهرتان حزينتان ، لؤلؤتان سودوان ، خمدتا من وفرة ما خبرته من مآسٍ ومحن ! » .

آهٍ يا أماه !

لم يكن أحد يماثلها، عندما كنتُ فى طفولتى كانت تفهم أشياءً كثيرة ، وتتحرك بوقار فطرى هادىء جعل المحظيات وأبناءَهن يرهبونها جميعاً، ويوقرونها حينما يكونون فى حضرتها . غير أن الخدم كانوا يكرهونها ،

على الرغم من أنهم يعجبون بها . واعتقدت أن أسمعهم يُدمدمون تذمرًا ، لأنهم لم يكن تسنح لهم فرص كثيرة لسرقة قطع من الطعام فى المطبخ، دون أن تفطن إلى هذا الأمر . ومع ذلك لم يحدث قط أن أنَّبَتْهُمْ بصوتٍ عالٍ ، كما كانت المحظيات يفعلن حين يغضبن . وعندما كانت والدتى ترى ذلك الذى لا يرضيها ، فإن كلمات قليلة تخرج من بين شفتيها ، إلَّا أن تلك الكلمات كانت حادة ، تحمل احتقارًا وازدراءً ، تسقط على المُذْنِب كما يسقط الثلج القارس البرودة على اللحم .

* * *

كانت تحنو على أخى وعلىَّ ، ولكنها كانت تتمسك بالشكليات ، وتتحفظ فى التعبير عن عواطفها ، كما يقتضيه الواقع لمن كانت فى مثل مكانتها فى الأسرة . لقد انتزعت قسوة الآلهة أربعة من أبنائها الستة ، وهم فى طفولتهم المبكرة ، ولهذا حَظِىَ ولدها الوحيد – أخى – بتقديرها واهتمامها . وطالما أنها أنجبت لوالدى ابنًا واحدًا حيًّا يرزق ، لم يكن لديه سبب شرعى يجعله يتذمر منها .

وفوق ذلك كانت فى أعماقها فخورة بشقيقى لشخصه .

* * *

هل رأيت شقيقى ؟ إنه مثل أمى بجسمه النحيل ، وعظامه الرقيقة ، وقامته الطويلة المستقيمة كشجرة بوص ناشئة . وكالأطفال الصغار كنا مُتَلازِمَيْنِ معًا على الدوام ، وكان أول من علَّمنى أن أسس خطوط الحروف المرسومة فى كتابى الأول (لتعليم مبادىء القراءة) بفرشاتى

المبللة بالحبر . ولكنه كان صبيًّا ، وأنا كنت مجرد بنت . وعندما بلغ التاسعة – وكنت أنا فى السادسة –أخذوه من جناح النساء إلى الجناح الذى يعيش فيه أبى . وكنا نادرًا ما نلتقى ، لأنه كلما نما وكبر اعتبرَ زيارة النساء شيئًا مخجلاً ، بالإضافة إلى أن والدتى لم تكن تشجعه على ذلك .

وأنا بلا ريب لم يكن يُسْمَح لى قط بالذهاب إلى الأبنية التى يقطنها الرجال . وعندما فصلوا شقيقى لأول مرة عن النساء ، تسللت فى إحدى المرات فى غَسَق الليل إلى بوابة القمر المستديرة التى تؤدى إلى جناح الرجال، واتكأت على الجدار المقابل ، وحدقت فيما وراء الساحة آملة أن أرى شقيقى ، ربما فى الحديقة، ولكننى رأيت فقط خدماً من الرجال ، يهرولون جيئةً وذهاباً يحملون سُلطانيات تتصاعد منها أبخرة الأطعمة الساخنة ، وحين فتحوا الأبواب التى تفضى إلى جناح والدى، انسابت ضحكات صاخبة ، مختلطة بصوت رقيق لامرأة تغنى بصوت عالٍ . وعندما أغلقت الأبواب الثقيلة ران الصمت على الحديقة.

وقفتُ طويلاً استمع إلى ضحكات المدعوين إلى الوليمة ، وهم يتناولون أطايب الطعام ، وقد اعترتنى دهشة لم تَخْلُ من حُزن ، وأنا أتساءل عَمَّا إذا كان شقيقى وسط هذا المرح وتلك المسرات البهيجة ، وفجأة أحسست بذراعى تُجْذَبُ بشدة . لقد كانت «وانج دا ما » ، كبيرة خادمات والدتى، والتى صاحت :

– هل أُخبر والدتك عَمَّا بَدَرَ مِنْكِ الآن ؟!

– هل رأَى أَحَدٌ من قبل فتاةً غير محتشمة، تذهب لتختلس النظر إلى الرجال ؟

لم أجسر على التحدث أكثر من أن أتمتم معتذرة لفرط خجلى :

– كنتُ فقط أبحث عن شقيقى !

ولكنها أجابت فى حزم :

– إن شقيقك أصبح الآن رجلاً .

ولهذا نادرًا ما رأيتُه مرة أخرى .

غير أننى سمعت أنه ولوع بالدراسة ، وأصبح فى وقت مبكر بارعًا فى «الكتب الأربعة» ، و«الكلاسيكيات الخمس» ، مما دعا والدى إلى أن يهتم بتوسله وسمح له أن يلتحق بمدرسة أجنبية فى «بكين» .

وفى الوقت الذى تزوجتُ فيه كان يدرس فى الجامعة القومية ببكين، وفى رسائله التى كان يبعث بها إلى البيت، كان يرجو بإلحاح أن يُسمح له بالذهاب إلى أمريكا . وفى بادىء الأمر لم يعر والدَاىَ أُذُنًا صاغية لهذا الأمر، ولم توافق عليه والدتى ، ولكن أبى كان يكره ما يعكر عليه صَفْوه، وكنت أرى أن شقيقى بإلحاحه سيفوز بمبتغاه فى النهاية .

وفى العطلتين اللتين قضاهما فى البيت قبل رحيلى عنه، كان يتحدث كثيراً عن كتاب أسماه «العِلْم» . وقد شعرت والدتى بأن ذلك شيئًا يُؤْسف له ، لأنها ترى أن هذه المعرفة الغربية لا جدوى منها بالنسبة

لحياة سيد صيني . وفى آخر مرة جاء إلى البيت ارتدى ثياباً أجنبية فأثار استياء أمي. وعندما دخل الحجرة بمظهره الأجنبي الكئيب ، طرقت والدتى الأرض بعصاتها وصاحت :

– ماهذا ؟ ما هذا ؟ ألم تَسْتَحِ أن تقابلنى بمثل هذا الزىّ الأجنبى؟

لذا اضطرإلى ارتداء ثيابه الخاصة، برغم أنه كان غاضباً ، وتأخر يومين عن لقائها ، إلى أن ضحك أبى منه ، وأمره بمقابلتها . كانت أمي محقة . فشقيقى فى ثيابه الصينية كان يبدو عالماً جليلاً . فى حين أن ساقيه اللتين كشف عنهما فى زيه الأجنبى، لم يكن يشبه شيئًا رأيناه أو سمعنا عنه فى أسرتنا .

بيد أنه حتى فى زيارتيه لم يتحدث معى إلا نادراً . لم أكن أعرف شيئًا عن الكتب التى أَحَبَّهَا ، إذ لم أتمكن من توفير الوقت لأتابع مزيدًا من الكلاسيكيات لكثرة الأشياء التى شغلتنى استعداداً للزواج .

أماعن زواجه فنحن لم نتحدث عنه قط ، فذلك الأمر لا يكون لائقاً بين شاب وشابة، وقد علمت فقط من الخدم الذين يسترقون السمع أنه كان ثائراً ضد هذا الزواج ، ويمانع فيه ، مع أن والدتى حاولت ثلاث مرات تحديد يوم الزفاف ، وفى كل مرة كان يقنع والدى بتأجيل الزواج حتى يتسنى له تحصيل مزيد من العلم ، وكنت أعرف طبعًا أن خطبته كانت قد عُقدت على الابنة الثانية لآل «لى»، وهى أسرة لها مكانتها فى المدينة ، لثرائها ومركزها ، وطوال ثلاثة أجيال قبلنا كان رب بيت آل «لى» ورب بيتنا حُكَّامًا لإقليمين متجاورين فى المقاطعة نفسها .

– إننا بالطبع لم نكن قد رأينا خطيبته ، فهذه المسألة قد سَوَّاها أبى قبل أن يبلغ شقيقى العام الأول من عمره ، ولهذا لم يكن من اللائق لأسرتينا أن تَتَزاوَرَا قبل أن يتم زواج أخى . وفى الواقع لم يكن هناك حديث يتعلق بالخطيبة ، باستثناء ما سمعته فى إحدى المرات من «وانج دا ما » وهى منهمكة فى القيل والقال مع الخادمات الأخريات ، كاشفةً أسراراً شخصية هكذا :

– مما يدعو للأسف والرثاء أن ابنة «لى» تكبر سيدنا الشاب بثلاثة أعوام. إن الزوج يجب أن يكون أرفع منزلة حتى فى السن ، ولكن الأسرة عريقة، وثرية ، و ..

ثم رأتنى فلاذت بالصمت ومضت إلى عملها .

لم أستطع أن أفهم لماذا رفض أخى أن يتزوج . لقد ضحكت المحظية الأولى حين سمعت بذلك وصاحت قائلة :

– لابد أنه وجد فتاة جميلة من منطقة «مانتشو!» ولكننى لا أعتقد أن أخى يحب أى شىء سوى كتبه. وهكذا نشأتُ وبَلَغْتُ رشدى فى ساحات النساء .

* * *

وبالطبع كان هناك أطفال المحظيات ؛ ولكننى عرفتُ أن أمى تعتبرهم مجرد أفواه كثيرة تحتاج إلى الطعام ، عندما كانت توزع عليهم حصصهم اليومية من الأرز والزيت والملح ، ولم تكن تُعيرهم اهتمامًا سوى إصدار

الأمر بالياردات اللازمة من قماش القطن الأزرق العادى غير المزخرف لثيابهم .

أما المحظيات فلم يَكُنَّ فى الواقع غير نساء جاهلات لا غير ، وكثيرًا ما يتعاركن ، وتمزقهن غيرة مميتة حول مكانة الواحدة منهن فى تعلق أبى بها . لقد أولع بهن والدى فى أول الأمر لجمالهن الذى لم يلبث أن ذَوَى تدريجيًا ، كما تذبل الأزهار التى قُطفت فى الربيع ، وفَقَدْنَ حظوتهن لديه عندما وَلَّى جمالهن القصير الأمد ، ولكن يبدو أنهن لم يستطعن إدراك أن جمالهن قد زال. وكن قبل مجيئه بأيام ينهمكن فى تلميع حليهن وأثوابهن. كان والدى يعطيهن نقودًا فى أيام الأعياد ، وحين يواتيه الحظ فى لعب القمار ، إلا أنهن كُنَّ يُنْفِقْنَهَا بغباء على الحلوى والأنبذة التى يُحببنها ؛ فلا يبقى لهن شىء قبل مجىء أبى ، فيقترضن النقود من الخادمات لشراء أحذية فيقترضن النقود من الخادمات لشراء أحذية جديدة وحليات لتزيين الشعر . كانت الخادمات ينظرن بازدراء للمحظيات ، بعد أن فَقَدْنَ حُبَّ والدى ، فيندفعن معهن فى مساومات قاسية .

كانت أكبر المحظيات سنًّا مخلوقة بدينة قصيرة ، وكانت ملامحها البالغة الصغر غائرة فى وجنتيها الناتئتين ، ولم يكن يميزها شىء سوى يديها الصغيرتين الجميلتين اللتين كانت تتيه بهما فخرًا ، فتغسلهما بالزيوت ، وتصبغ راحتيهما باللون الأحمر الوردى ، وتطلى أظفارها

البيضاوية الناعمة بصبغ الزنجفر القرمزى ، ثم تعطر يديها بعطر المانوليا النفاذ .

كانت أمى أحياناً تسأم من حماقة هذه المرأة وتفاهتها وزهوها الأجوف، وبشىء من الخبث تأمرها بأداء بعض الأعمال الخشنة من غسيل وحياكة . وكانت « السيدة الثانية » البدينة لا تجرؤ على العصيان ، غير أنها كانت تنتحب وتئن ، وتبث شكواها سرًّا إلى المحظيات الأخريات من أنَّ أُمى تغار منها ، وتريد أن تفسد جمالها ليعزف عنها أبى ، وكانت تقول هذا وهى تعتنى بيديها فى تلك اللحظة ، وتتفحصهما بعناية شديدة لترى ما إذا كان الجلد الرقيق قد أصابته خدوش أو أصبح غليظاً . ولم أكن أنا أحتمل أن ألمس يديها ، فقد كانتا بضّتَيْن دافئتين ناعمتين ، تكادان تنصهران عند الإمساك بهما .

مضى وقت طويل منذ أن كَفَّ والدى عن الاهتمام بهذه المرأة ، بيد أنه كان حين يجىء يمنحها نقودًا ، ويقضى ليلة فى شقتها خشية أن تصيح بصوت عال فى الساحات والأفنية فتضايقه وتثير السخرية منه بتوبيخها. وكان له منها ولدان ، الأمر الذى يُخَوِّل لها أن تحظى ببعض الاهتمام .

كان ابناها بدينين ويشبهان أمهما تمامًا ، ولم أكن أستحضرهما فى ذهنى ، إلاَّ وتصورتهما يأكلان ويشربان باستمرار . كانا يتناولان الطعام على المائدة مع الآخرين ، إلا أنهما يتسللان بعد ذلك إلى فناء الخدم ويتعاركان معهم من أجل ما تبقَّى من فضلات الطعام . وكانا دائمى

التجول بخبث خوفًا من والدتى، التى كان أَكْرَه شىءٍ لديها الجشَع والشَّرَه ، ولم تكن هى نفسها تتناول أكثر من سلطانية أرز وقطعة من السمك المملح ، أو شريحة رقيقة من لحم الدجاج البارد ، ورشفة من الشاى المعطر .

إننى لا أتذكر عن السيدة الثانية أكثر من أنها كانت دائمًا تخشى أن تموت. كانت تُكثر من تناول كعك السمسم المشبع بالزيت ، وعندما تسقط فريسة للمرض ، كانت ترقد وهى تئن وتتأوَّه فى فزع شديد ، ثم تدعو الكهنة البوذيين ، وتعد بأن تمنح المعبد حلّ شعرها اللؤلؤية إذا شفتها الآلهة. ولكنها ما إنْ تَبِلَّ من مرضها حتى تعاود تناول الكعك مرة أخرى وتتظاهر بنسيان ما وعدت به .

وكانت المحظية الثانية « السيدة الثالثة » امرأة غامضة ، قلما تتحدث ، ولا تسهم فى حياة الأسرة إلَّا بالنَّزْرِ اليسير . كان لها خمسة أطفال من البنات ، عدا الأصغر ، وقد أضعف هذا من معنوياتها ، وأوقع الغَمَّ فى نفسها . لم تكن تعنى بالبنات ، وأهملتهن ، وكُنَّ لا يتميزن كثيرًا عن الجاريات اللاتى كنا نشتريهن للخدمة . كانت تقضى وقتها فى ركن مشمس بالفناء ترضع ابنها الثقيل الشاحب، الذى بلغ الثالثة من عمره ، وما زال عاجِزًا عن الكلام والمشى ، ويكثر من البكاء ، ويمضى أيامه متعلقًا بِثَدْيَىْ أمه الطويلين المترهِّلَيْن .

أما المحظية الثالثة فقد كانت أحب المحظيات إلى نفسى ، وهى راقصة صغيرة من « سوتشو » . كان اسمها الأصلى « لا - ماى » ، وهى جميلة

مثل زهرة « اللا – ماى » نفسها ، التى تنمو أزهارها الذهبية الشاحبة فوق الأغصان العارية من الأوراق فى باكورة الربيع . لم تكن تضع طلاءً على وجنتيها مثلما تفعل الأخريات ، مكتفية بتحديد حاجبيها الرفيعين باللون الأسود ، ولمسة باللون القرمزى تضعها على شفتها السفلى . وكنا قليلاً ما نراها فى بادىء الأمر ، إذ أن أبى كان فخورًا بملاحتها ، ويصطحبها معه إلى كل مكان .

وفى العام الأخير قبل زواجى ، لأَزَمَتِ البيتَ فى انتظار ولادة طفلها . كان ولدًا جميلًا محببًا إلى النفس ، سمينًا ، وسيمًا . كنت تحمله وتضعه بين ذراعى أبيه . وهكذا رَدَّتْ إليه ما طوقها به من حُلِىٍّ وحُبٍّ .

وقبل مولد الطفل كانت « السيدة الرابعة » ذات مزاج مفعم بالإثارة ، ويرتفع رنين ضحكاتها عاليًا ، ويُثْنَى على جمالها ثناء مستطابٌ أينما حلت ، وفى الواقع لم أر قط مَنْ تفوقها فتنة وملاحة . كانت ترتدى أثوابًا من الساتان بلون اليشب الأخضر ، والقطيفة السوداء ، وتُعلِّق قرطين من اليشب فى أذنيها الرائعتين . وكانت تزدرينا بعض الشىء ، على الرغم من كرمها الطائش ، وهى توزع علينا الكعك والحلوى التى يمنحونها إياها فى الولائم ، التى كانت تحضرها كل ليلة مع أبى . وبدا أنها لا تكاد تتناول شيئًا سوى كعكة بالسمسم فى الصباح بعد أن يغادرها أبى ، ونصف سلطانية من الأرز ، وجزء من عودٍ من البامبو ، أو شريحة رقيقة من لحم البط المملح عند الظهر . وكانت تحب الأنبذة الأجنبية ، وتلاطف والدى

وتتملقه ليشترى لها سائلاً أصْفَرَ باهتًا ذا فقاقيع فضية تندفع إلى أعلى من القاع ، كان ذلك السائل يجعلها تضحك وتكثر من الثرثرة ، وتتلألأ عيناها مثل بَلُّورات سوداء ، ثم تسلى أبى وتمتعه إلى أبعد حد ، فيطالبها بأن ترقص وتغنى له .

* * *

ولكن عندما كان أبى يحتفل ويقيم مأدبه ، كانت أمى تجلس فى شقتها تقرأ أقوال كونفوشيوس الجليلة . وبالنسبة لى – حين كنتُ فتاة صغيرة – كنت عادة أتجول فى ليالى الحفلات هذه ، وأنا أتوق إلى اختلاس النظر ، كما فعلت ذات مرة ، عندما بحثت عن أخى من خلال الشقوق المحفورة فى بوابة القمر المستديرة إلى شقق الرجال . ولكننى أعلم أن أمى لم تكن تسمح بذلك على الإطلاق ، وكنت أخجل أن أخدعها .

ومع ذلك ، ففى إحدى الليالى – وأنا الآن ممتلئة خجلاً من عصيانى غير اللائق بابنة ! – تسللت سرًّا وسط الظلمة التى جثمت على ليلة من ليالى الصيف غير المقمرة ، حملقت مرة أخرى من خلال البوابة وتطلعت إلى داخل شقق والدى .. لا أعرف لماذا فعلت ذلك .. لم أعد أفكر فى شقيقى .. كانت تملؤنى رغبة عجيبة غامضة ، جعلتنى قلقة متضجرة خلال اليوم الحار الطويل . وعندما هبط الليل يحمل معه الدفء والظلمة وأريج زهور اللوتس ، اختفى معه هدوء حجرات النساء ولم يعد له وجود. تسارعَتْ دقاتُ قلبى عندما حملقتُ . كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها ، وانساب الضوء المنبعث من مائة فانوس مخترقًا الهواء

الساكن الحار . وفى الداخل رأيت رجالاً يجلسون حول موائد مربعة ، وهم يتناولون الطعام والشراب ، والخدم يهرولون ذهابًا وإيابًا وهم يحملون الطعام . وخلف مقعد كل رجل كانت تقف فتاة بقوامها الرفيع الذى يشبه قوام سيقان الكروم . ولكن « لا - ماى » كانت تجلس بجانب أبى ، وهى المرأة الوحيدة الجالسة إلى المائدة . تمكنتُ من أن أراها بوضوح تام ، وقد افْتَرَّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة ، تطل من وجهها ، الذى كان مشرقًا كَبتِلَّات زهرة شمعية حينما استدارت نحو أبى . قالت شيئًا بصوت منخفض وشفتاها لا تكادان تتحركان ، ثم انطلق ضحك الرجال يهدر صاخبًا . لم تتغير ابتسامتها ، وظلت كما هى خفيفة رقيقة دون أن تضحك .

وفى هذه المرة اكتشفتنى أمى بنفسها ، ونادرًا ما كانت تغادر البيت ، ولا حتى لكى تتمشى فى الأَفْنِيَة ، غير أن ارتفاع الحرارة فى تلك الليلة دفعها للخروج ، ومكنتها عيناها الحادتان من أن تفطن إلَّ على الفَوْر . أمرتنى بالعودة فى الحال إلى حجرتى ، وتبعتنى إلى هناك حيث ضربتنى بشدة على راحتى يدىَّ بمروحتها الخيزرانية المطوية ، وسألتنى باحتقار عَمَّا إذا كنتُ قد رغبت فى مشاهدة بنات الهَوَى وَهُنَّ يُمَارِسْنَ مهنتهن . اعترانى الخجل وبكيت !

وفى اليوم التالى أمرت بوضع شبكة من الأصداف المعتمة على بوابة القمر ، ولم أعد قط إلى النظر خلالها بعد ذلك .

ولكن أمى كانت على الرغم من ذلك تحنو على السيدة الرابعة . وكان

الخدم يثنون على والدتى بصوت عالٍ بسبب تحمُّلها وصبرها ولينها تجاه تلك السيدة . ولو أننى أعتقد أن المحظيات الأخريات كان يسعدهن أن يروا أمى تقسو عليها كالمتبع عادة من السيدة الأولى نحو الأخريات ، وربما كانت أمى عليمة بخفايا الأمور .

وحين وضعت السيدة الرابعة طفلها ، ظننت أن والدى بالطبع سيعاود اصطحابها معه مرة أخرى ، لم ترضع الطفل من ثديها حتى لا تشوه جمالها ، وبدلاً من ذلك سلمته لجارية قوية ، هذه الجارية كانت ضخمة القوام ، بذيئةاللسان ، إلا أن الطفل الصغير كان ينام على ثديها وفى أحضانها طوالَ الليل ، ومحمولا على ذراعيها طوال النهار ، وكان اهتمام أمه به قليلاً ، إلا حين تلبسه ثوبًا أحمر فى مهرجان أو احتفال ، وتضع فى قدميه حذاءين مرسوم على كل منهما وجه قطة ، وتلاعبه لفترة قصيرة . وإذا بكى تدفع به نافدة الصبر إلى ذراعى الجارية .

بيد أن الصبى لم يشدد قبضتها على أبى ، ومع أنها ردت له شرعيًّا ما تدين به إليه ، فقد كانت تسعى يوميًّا لتدبير الحيل والمكائد للسيطرة على أحاسيسه ، كما اعتادت نساؤنا أن يفعلن ذلك ، حتى خبثها لم يكن كافيًا، ولم تعد بمثل جمالها كما كانت قبل ولادة الطفل . ترَاخَى وجهها الناعم اللؤلؤى إلى حَدٍّ سَلَبَهَا شبابها الغض . كانت ترتدى ثوبها الأخضر اليشبى، وتُعلق قرطين فى أذنيها ، ويُسمع لضحكاتها رنين خافت ، وبدا على والدى سروره بها كسابق عهده ، عدا أنه حين سافر فى رحلته التالية لم يصطحبها معه .

أصابتها دهشة ، وبدا غضبها رهيبًا مفزعًا ، وعَمَّ السرور المحظيات الأخريات فى سِرِّهن ، وابتسمن كثيرًا وهن يتظاهرن بمواساها . أبدت أمى بعض الشفقة عليها أكثر من المعتاد . لقد سُمعت « وانج دا ما » تغمغم فى غضب :

– آه ، نعم ، الآن سرعان ما ستحل امرأة كسول جديدة نقوم بإطعامها. إنه حاليًا قد سئم من هذه !

ومنذ ذلك اليوم جلست السيدة الرابعة فى سكينة مستغرقة فى التفكير. لقد أصبحت مستاءة ساخطة ، تنتابها نوبات من حِدَّة الطبع ، وسرعة الانفعال ، وشدة الضجر والملل من رتابة الحياة فى جناح الحريم ، وهى التى اعتادت الحفلات والولائم وإعجاب الرجال بها . أصبحت منقبضة النفس ، وحاولت فيما بعد أن تضع حدًّا لحياتها ، ولكن ذلك حدث بعد زواجى . ومن كل ما ذكرت يجدر ألَّا نتصور أن حياتنا فى البيت كانت كئيبة محزنة ، حقًّا لقد كانت حياة سعيدة ، وكثير من جيراننا كانوا يحسدون والدتى ، ولم يتوقف أبى قط عن احترامها لفكرها ومقدرتها فى إدارة شئونه، ولم يحدث على الإطلاق أن لامته على شىء .

وهكذا كانت الحياة يسودها الاحترام والسلام .

* * *

آه يا بيتى الحبيب ! إن طفولتى تمر أمامى فى صور ينيرها ضوء النيران المنبعثة من أحد المواقد فى الأفنية ، حيث كنت أراقب براعم اللوتس

تتفتح فى الفجر إلى أزهار فى البركة ، وزهور الفوانيا فى أوج تفتحها فى حدائقها المستطيلة ، التى تتوسط الساحة بالقرب من حجرات الأسرة ، حيث يتعثر الأطفال فوق القرميد الذى يكسو أرضيتها ، وحيث الشموع بضوئها الخافت أمام آلهة البيت ، وحجرة والدتى ، حيث أرى منظرًا جانبيًّا لها وجهها الصارم وهى منحنية على كتاب ، وفى الخلفية يقبع السرير الضخم الذى يعلوه ظُلَّة كالعرش .

ومن أعز كل هذه الأشياء قاعة الضيوف الفخمة بآرائكها ومقاعدها الثقيلة المصنوعة من خشب السَّاج الأسود ، والمنضدة الطويلة ذات النقوش ، وستائر الساتان القرمزية على مداخل الأبواب ، وهناك لوحة للإمبراطور « مينج » معلقة فوق المنضدة .. وجه لا يقهر بذقنه التى تشبه منحدرًا صخريًّا .. وتوجد لفيفة ذهبية ضيقة ، مُدَوَّن عليها وثيقة معلقة على كل جانب من اللوحة . والجانب الجنوبى بأكمله من القاعة مكون من إطارات نوافذ منقوشة ، وعليها شبكة من أوراق الأرز . وكانت هذه الأوراق ينبعث منها ضوء خافت ذو بريق لؤلؤى يتخلل وقار الحجرة المعتم ، ويمتد حتى عوارض السقف الثقيلة ، ويضىء حوافها القرمزية والمذهَّبة . إن جلوسى بهدوء فى قاعة أسلافى هذه ، وأنا أراقب ضوء الشفق يهبط عليها فى السكون المعتم ، كان بالنسبة لى مثل الموسيقى .

وفى اليوم الثانى للسنة الجديدة ، الذى كان يوم السيدات العظيمات

اللاتى يتبادلن فيه الزيارات ، كانت القاعة يغمرها ابتهاج ناعم رقيق . ويأتى جَمْعٌ من السيدات على مشارف الشيخوخة فى ملابسهن المتألقة .. تتلألأ الأضواء ، وتنبعث الضحكات ، وتدور الأحاديث العادية ، ويمر العبيد حملون الكعك الصغير على صوانى الحلوى المطلية باللون الأحمر . وكانت أمى تترأس كل ذلك بكياستها الرزينة . إن أشعة الضوء العتيقة أطلت على المشهد نفسه على مدى مئات الأعوام .. رءوس سوداء ، وعيون نجلاء ، حرير وساتان بلون قوس قزح ، حليات شعر من اليشب والياقوت ، وفيروز وذهب ، تتوهج على الأيدى العاجية النحيلة .

آه يا بيتى الحبيب ! آه أيها الحبيب العزيز !

هأنذى أرى نفسى شكلًا بشريًّا صغيرًا وقورًا ، متعلقة بيد شقيقى ، أقف بجانب النيران فى الفناء حيث تقف آلهة المطبخ على وشك أن تُحرق . وكان هناك عسل قد وُضع على شفاهها الورقية لعلها تصعد إلى السماء تحمل كلمات حلوة ، وتنسى أن تروى عن الأوقات التى تعارَك فيها الخدم عندما سرقوا الطعام من الآنية . وكنا نمتلىء رهبة حين يدور بخلدنا هؤلاء الرسل الذين سيذهبون بعيدًا نحو المجهول . وكنا لا نتفوه بكلمة ونلوذ بالصمت .

إنى أرى نفسى فى مهرجان « التنين » وقد تدثرتُ بأفضل أثوابى الحريرية القرنفلية اللون الخاصة بيوم العيد ، والمطرزة بأزهار البرقوق، منتظرة - بشق النفس - حلول المساء حين يأتى شقيقى الذى سيصحبنى لأرى سفينة التنين عبرالنهر .

وأرى فانوس اللوتس المتأرجح الذى تحضره لى مربيتى العجوز فى عيد الفوانيس ، وتضحك حين يجن الليل فيثيرنى أن أضىء الشمعة الحمراء داخل الفانوس فينبعث منها الدخان .

وأشاهد نفسى أسير ببطء بجوار والدتى إلى المعبد الكبير . وهناك أرقبها وهى تضع البخور داخل الحجرة ، وأركع معها فى خشوع أمام الإلٰه وأنا أحس بصقيع الخوف بين ضلوعى .

* * *

إننى أسالكِ يا أختاه ، على مدى تلك السنين التى شكَّلتنى ، كيف تم إعدادى لمثل هذا الرجل كزوج لى ؟ كل إنجازاتى ليست ذات نفع . لقد خططتُ فى السر أننى سأرتدى المعطف الحريرى الأزرق ذا الأزرار السوداء المزخرفة بالفضة ببراعة ، وسأضع زهور الياسيمن فى شعرى ، وأنتعل حذاءين أسودين مطرزين باللون الأزرق . وسأحييه حين يدخل . ولكن عندما مَرَّ كل ذلك ، إذا بعينيه تهربان بسرعة صوب أشياء أخرى .. رسائله ، وكتابه .. لقد أصبحت منسية .

إن الخوف يتلوَّى داخل قلبى.. هٰأنذى أتذكر يومًا قبل زواجى . إنه اليوم الذى سطرت فيه أمى بخط يدها رسالتين على وجه السرعة ، إحداهما لأبى ، والأخرى لحماتى المستقبلة ، وبعثت بهما على عَجَلٍ مع البواب العجوز . لم يسبق لى قط أن رأيتها بمثل هذا القلق . وفى ذلك اليوم سمعتُ الخدم يتهامسون بأن خطيبى أراد أن يفسخ خطبتنا لأننى غير متعلمة ، ولأن لى قدمين مربوطتين . لقد انفجرت باكية ، وانهمرت

دموعى ، وذعر الخدم وأقسموا بأننى لم أكن التى تحدثوا عنها ، وإنما قصدوا الابنة الثانية البدينة للسيدة « تاو » .

إننى أتذكر هذا الآن وأتأمل فيه مليًّا وأنا قلقة ثائرة . أتراني كنت المقصودة ؟ إن الخدم كاذبون على الدوام ! وفوق ذلك فإننى لست غير متعلمة . لقد تدربت بدقة على كل ما يخص الشئون المنزلية ، وعلى العناية بنفسى . أما بالنسبة لقدمىّ ، فمن المؤكد أنه ليس هناك أحد يفضل الأقدام الضخمة الخشنة كقدمى بنت فلاح . لم أكن أنا المقصودة .. لا يمكن أن أكون تلك التى تحدثوا عنها !

الفصل الثاني



2

حين قلت وداعًا لبيت والدتى ، وخطوت إلى المقعد الأحمر الكبير وجلست فيهِ لأُحْمَلَ إلى بيت زوجى ، لم يدر بخلدى على الإطلاق أننى قد لا أروقه ، فبالنسبة لى ، تذكرت أننى كنت سعيدة، وصغيرة، ورشيقة، وذات وجه بيضاوى يسر الآخرين حين ينظرون إليه . وهنا على الأقل لن يُصاب زوجى بخيبة أمل.

وفى أثناء الاحتفال بطقس النبيذ اختلستُ النظر إليه من خلف الخيوط الحريرية الحمراء لنقابى، فرأيته يقف هناك بثيابه الأجنبية السوداء الكثيفة. كان طويلاً مستقيمَ القامة مثل عصا من البوص الغض . شعرت ببرودة وحرارة تكتنف قلبى مع بعضها البعض . كنت أتوق إلى نظرته الغامضة ، غير أنه لم يُدِرْ عينيه ليخترق نقابى . شربنا كئوس النبيذ معًا . وانحنينا أمام لوحات أجداده . وركعت معه أمام والديه المهيبين . لقد أصبحت ابنتهما ، تاركة أُسرتى وعشيرتى إلى الأبد . لم ينظر نحوى إطلاقًا.

* * *

وفى تلك الليلة – بعد أن انتهت الوليمة ، وضحكات المزاح – جلستُ وحيدة على الأريكة فى حجرة العروسين ، كدت أختنق خوفًا . إن الساعة التى تخيلتها وفزعت منها واشتقت إليها طوال حياتى قد أتت . الساعة التى نظر فيها زوجى إلى وجهى لأول مرة ، وكنا وحدنا معًا . كانت يداى الباردتان تضغط إحداهما على الأخرى فى طية ثوبى التى تغطى الركبتين والفخذين . ثم دلف إلى الداخل ، وهو لم يزل طويلاً كئيبًا وهو يتدثر بتلك الثياب الأجنبية القاتمة . اتجه نحوى على الفور ، ورفع النقاب عن وجهى فى صمت ، ونظر إلىَّ مليًّا ، وهكذا تعرف علىَّ ، ثم تناول إحدى يدىّ الباردتين ، وكانت حِكْمة أمى قد علمتنى ما يلى :

« كونى باردِةً أكثر منك دافئة . كَونى فى نكهة النبيذ .. أكثر من أن تكونى متخمة بحلاوة العسل. آنذاك لن تضعف رغبته فيك » .

لذا مَانَعْتُ فى إعطائه يدى .. سحب يده فى الحال وحملق فى وجهى صامتًا، ثم بدأ يتحدث بلهجة جادة وقورة .. فى أول الأمر لم أستطع فهم كلماته بسبب صوته العجيب فى أُذنىّ ، صوت رجل هادىء عميق جعل جسدى يتورد خجلاً . ولم ألبث أن أدركت كلماته فى دهشة . فماذا كان يقول؟

« ليس من المفروض أن تتقدمى نحوى وأنت تشاهديننى لأول مرة ، مثلما أشاهدك أيضًا لأول مرة . لقد أُجْبِرْتُ على هذا الزواج كما أُجبرت عليه . كنا لا حَوْلَ لنا ولا قوة تجاه هذا الأمر حتى الآن ، ومع ذلك

فيمكننا – ونحن وحيدان الآن – أن نخلق حياتنا طبقًا لرغباتنا ، وفيما يتعلق بى أريد أن أتبع الأساليب الحديثة ، أود أن أراك فى كل شىء على قدم المساواة معى، ولن أُجبرك على شىء بتاتًا .. أنتِ لست من ممتلكاتى ، ولا أمتعتى، ويمكنك أن تكونى صديقتى إذا أَرَدْتِ » .

تلك كانت الكلمات التى سمعتها فى ليلة عرسى . وقد ذهلت فى بادىء الأمر ، لأن معناها كان فوق فهمى .. أنا على قدم المساواة معه ؟ لكن لماذا؟ ألم أكن زوجته ؟ إذا لم يكن أخبرنى ماذا أفعل ، فمن غيره يخبرنى؟ ألم يكن سيدى بحكم القانون ؟ لم يجبرنى أحد على الزواج منه.. ماذا كان بوسعى أن أفعل إذا لم أتزوج ؟ وكيف كان يمكننى أن أتزوج بغير مادَبَّره والداى لى ؟ ومن ذا الذى كنت أستطيع أن أتزوجه إذا لم يكن الرجل الذى خطبت له طوال حياتى ؟ كان كل ذلك طبقًا لعاداتنا ، ولم أرَ فيه أى إكراه .

ثم اشتعلت كلماته فى أُذُنَىَّ مرة أخرى : « لقد أُجبرتُ على هذا الزواج كما أجبرتِ عليه » ! وفجأة كاد يغشى علىَّ من فرط ما اعترانى من خوف . أتراه كان يريد أن يقول إنه لم يكن يرغب فى الزواج منى ؟

آه يا أختاه ! يا له من كربٍ ذلك الألم المرير !

بدأت ألوى يدىَّ فى طية ثوبى ، دون أن أجرؤ على الحديث ، ودون أن أعرف كيف أجيب . وضع إحدى يديه فوق يدىّ ، ولُذْنَا بالصمت لبرهة قصيرة . غير أننى تمنيت أن يسحب يده بعيدًا . أسست بعينيه مسلطتين على وجهى . وأخيرًا تكلم .. كان صوته خافتاً ومريرًا :

– لقد حدث تمامًا ما كنت أخشاه . لن تجعلينى أَرَى فكرك الحقيقى ، ولن تستطيعى .. لن تتجاسرى على الانفصال عَمَّا تَعَلَّمْتِهِ من حيث ما يجب أن تقوليه وتفعليه فى هذا الوقت . اسمعينى .. أنا لا أسألك أن تتحدثى ، ولكننى أرجو منك ميزة صغيرة ، وإذا كنت مستعدة لمحاولة السير معى فى الطريق الحديث ، فاحنى رأسك قليلاً .

لقد راقبنى بانتباه ، واستطعت أن أحس بيده مستمرة فى الضغط . ماذا يعنى ؟ لماذا لا تمضى الأشياء فى طريقها المتوقع ؟ كنت مستعدة لأن أكون زوجته . وودت أن أكون أُمًّا لأبناء . آه ! ثم بدأت أحزانى .. هذا العبء الثقيل الذى يأبى أن يزايلنى فى ليلى ونهارى ! لم أعرف ماذا أفعل؟ وفى غمرة يأسى وجهلى أحنيت رأسى .

قال :

– إننى شاكر .

ونهض واقفًا على قدميه ، وسحب يده ، ثم أردف قائلاً :

– استريحى فى هدوء فى هذه الحجرة . تذكرى أنه لن يكون هناك شىء تخافينه الآن أو فى أى وقت . إننى سأنام هذه الليلة فى الحجرة الصغيرة المجاورة .

واستدار بخفة ومَضَى إلى الخارج .

* * *

يا « كوان ين » يا إلٰهة الرحمة ، أشفقى علىَّ .. أشفقى علىَّ ! فأنا طفلة .. وكذلك صغيرة ومرتعبة فى وحدتى ! لم يسبق لى البتة أن نمتُ بعيدًا عن بيتى ، وهٰأنذى أنام الآن فى عُزلة ، وقد عرفت أخيرًا أننى لم أَلْقَ استحساناً فى عينيه !

هرولتُ صوبَ الباب ، وقد اعتقدت فى غربتى الموحشة بأننى يمكننى أن أهرب وأعود إلى بيت والدتى . ولكننى حين وضعت يدىّ على المزلاج الحديدى الثقيل عُدْتُ إلى وَعْيى . فالعودة مستحيلة بالنسبة لى . حتى لو هربت بمعجزة عبر الأفنية المجهولة فى بيتى الجديد ، فسألتقى بالشارع الغريب .. حتى لو عثرت بمعجزة على طريقى إلى البوابة المألوفة ، فلن تفتح أبدًا لتستقبلنى ..ولو أثار صوتى مشاعر البواب العجوز فسمح لى بالتعثر خلال أبواب طفولتى ، فستكون والدتى هناك فى انتظارى لتعيدنى إلى ما يحتمه الواجب علىَّ . إننى أستطيع أن أراها عنيدة صلبة حزينة تأمرنى بالعودة حالاً إلى بيت زوجى ، فأنا لم أعد أنتسب لأسرتها.

خلعتُ ثوبَ الزفاف آنئذ ببطء وطويته . جلستُ طويلاً على حافة السرير الضخم ذى الستائر خائفة أن أزحف تحت ظلالها . وكلماته تتقلب باضطراب جنونى فى عقلى بلا معنى . وأخيرًا اندفعت الدموع إلى عينىّ ، وأسرعت رابضة تحت الأغطية ، وأخذت أنشج باكية عدة ساعات حزينة مرهقة ، حتى اعترانى نوم خفيف مفعم بالقلق .

وحين بدأ الفجر يبعث بضوئه الدقيق استيقظت ، وأخذنى العجب فى

أول الأمر عندما رأيت الحجرة الغريبة ، ثم أحدقت بى ذكرياتى البائسة .. نهضت من فراشى على عجل ، وارتديت ثيابى . ولما جاءت الخادمة بالماء الساخن ابتسمت وراحت تطلع حولها متسائلة .. استدرت جانبًا وجلست . كنت مسرورة لأننى تعلمتُ الكرامةَ من والدتى . وعلى الأقل لا يجب أن يعرف أحد أننى لم أَرُقْ لزوجى . وقلت :

– خذى الماء لسيدك ، إنه يرتدى ثوبه فى الحجرة الداخلية .

ارتديتُ فخورة ثوبًا مطرزًا بخيوط الحرير القرمزية ، وعلقتُ قرطين ذهبيين فى أُذنىّ .

* * *

دار القمر دورته منذ أن التقينا يا أختاه ! وقد اضطربت حياتى بأحداث غريبة .

لقد انتقلنا من بيت أسلافه ! وقال فى جرأة : إن أُمَّه المبجلة أوتوقراطية مستبدة ، وإنه لا يريد لزوجته أن تكون خادمة فى البيت .

وفى الواقع لقد جاء كل ذلك من شىء صغير ، فحين انتهت احتفالات الزفاف قدمت نفسى لوالدته هكذا : نهضت مبكرة ودعوت جارية ، وطلبت منها أن تحضر ماءً ساخناً ، وصببته فى طست نحسى ، ثم تقدمت الجارية أمامى ، ومضيت إلى حيث تجلس والدة زوجى . انحنيت وقلت لها:

– أرجو أن تقبل السيدة المبجلة أن تنعش نفسها وتغتسل بهذا الماء الساخن .

كانت ترقد فى فراشها .. كتلة جبلية ضخمة ملتحفة بأغطية من الساتان .. لم أجرؤ على التطلع إليهاعندما نهضت جالسة لتغسل يديها ووجهها .. ولما انتهت من ذلك أومأت إلَىَّ – دون أن تتكلم – كى أنقل الطست وأنصرف . ولا أدرى ما إذا كانت يدى قد علقت بستائر السرير الحريرية الثقيلة، أو أن يدى قد اهتزت من جراء الخوف ، حتى أننى عندما رفعتُ الطست مالَ فتناثر بعض الماء فوق الفراش . أحسست بدمى يتجمد فى عروقى من الذعر . صرخت حماتى فى غضب منكر عنيف:

– ماذا بعد ؟ هل لزوجة الابن أن تفعل هذا ؟!

عرفت أننى لا يجب أن أتكلم لأبرئَ نفسى ، ولذلك استدرتُ حاملة الطست الذى كان يتقلقل فى يدىَّ ، لأن الدموع حجبت الرؤية عن عينىّ ، وانصرفت من حضرتها . وحين خطوت خارجة من الباب كان زوجى يمر هناك ، ولاحظت أنه كان غاضبًا لسببٍ مَّا . خشيت أن يؤنبنى لأننى فى أول فرصة لم أُرْضِ والدته . لم أستطع أن أرفع يدىَّ لأكفكف دموعى ، وأحسستُ بها تتجمع وتشق طريقها ، وتنحدر فوق وجنتىَّ . غمغمتُ فى ارتباك مثل طفلة :

– إن الطست كان زلقًا ..

ولكنه طمأننى قائلاً :

– أنا لا ألومك . غير أننى لن أسمح بعد ذلك بقيام زوجتى بعمل الخادمة . إن أمى لديها مائة من الجوارى !

حاولت أن أخبره بأننى رغبت أن أقدم لوالدته الطاعة الصحيحة التى تليق بها ، فقد أرشدتنى أمى وعلَّمتنى جيدًا كل ما تقوم به زوجة الابن من عناية واهتمام بوالدة زوجها .. أن أقف لها بأدب وأظل واقفة فى حضرتها .. أن أقودها إلى أفضل المقاعد ، وأغسل برفق قدح شايها ، وأصب فيه ببطء شاياً أخضرَ طازجاً أقدمه لها بعناية بكلتا يدىَّ ، وألاَّ أرفض لها طلباً ، ويجب أن أحمل لها إعزازًا كوالدتى ، وأن أتحمل تأنيبها لى مهما كان جائرًا ظالمًا دون أن أتلفظ بكلمة . وكنت مستعدة للخضوع والإذعان لها فى كل شىء ، إلا أنه كان قد عقد النية على تنفيذ قراره ، ولم يبالِ بشىء مما قلت .

ولم يكن من المفروض أن يتم التغيير فى سهولة ويسر . لقد أمَرَهُ والداه أن يمكث فى بيت الأسلاف طبقاً للعادة القديمة . كان والده عالماً نحيلاً صغير الجسم ، أحْنَى التعليم ظَهره . وبينما كان جالساً إلى يمين المنضدة فى حجرة الجلوس – تحت لوحات الأسلاف – إذْ مَرَّرَ يده برفق على لحيته البيضاء الضئيلة ثلاث مرات وقال :

– يا بنى ابْقَ فى بيتى ، فما أملك هو ملكك ، وهنا طعام وفير ، وفسحة فى المكان . إنكَ لست فى حاجة إلى تبديد قواك فى العمل الجسدى . أَنْفِقْ أيامَك فى راحة مشرفة ، وفى الدراسة التى تتفق مع ميولك . وَدَعْ زوجتك، تلك الفتاة النبيلة تنجب أبناءً . إنَّ ثلاثة أجيال من الرجال يعيشون تحت سقف واحد لمنظرٍ يسر السماء .

غير أن زوجى كان سريع الغضب ، نافد الصبر ، ودون أن يتوقف لينحنى لأبيه صاح قائلاً :

– ولكننى أريد أن أعمل يا أبى .. لقد تدربتُ على مهنة علمية ، هى أنبل المهن فى العالم الغربى ، أمَّا الأبناء فليس لهم الأولوية فى رغباتى . إننى أود أن أُقَدِّمَ ثمرة عقلى لصالح بلادى . إن مجرد كلب طليق خليق بأن يملأ الأرض بثمار جسده !

لقد سمعت بنفسى الابن يتحدث هكذا إلى والده ، وأنا أختلس النظر من خلال الستائر الزرقاء ، فامتلأتُ رعبًا ، فلو كان الابن الأكبر ، أو لو كان قد تَرَبَّى فى نطاق الأساليب القديمة ، لَمَا استطاع على الإطلاق أن يُقاوم أباه بهذا الشكل . إن الأعوام التى قضاها فى الخارج بتلك البلدان – حيث الصغير لا يوقر الكبير – قد جعلته يسلك ذلك السلوك غيراللائق بابنٍ نحو أبيه ، ولكنه فى الحقيقة قال كلمات دمثة لوالديه عند رحيله ، ووعدهما بأن قلبه سيظل قلب ابنٍ لهما على الدوام .. ومع ذلك فقد ارتحلنا.

* * *

هذا البيت الجديد لا يشبه شيئاً مما رأيت فى حياتى الماضية ، فليس له أفنية ، هناك فقط صالة صغيرة مربعة بها مداخل الحجرات الأخرى ، كما يوجد سلم يرتفع منها إلى أعلى ، وعندما ارتقيته لأول مرة خشيت أن أسقط من فوقه إلى أسفل مرة أخرى ، لأن قدمىَّ لم تعتادا على سُلَّمٍ بمثل

ذلك الانحدار الشديد . ولهذا جلستُ وزَلَّت قدمى من درجة إلى درجة ، وأنا متعلقة بالحاجز الخشبى . وشاهدت فيما بعد أن قليلاً من الدهان الجديد قد عَلِقَ بسترتى ، فسارعت بتغييره مخافة أن يسألنى زوجى عن ذلك ، ويسخر من خوفى .. إنه يضحك على نحو سريع وفجائى بصوت صاخب .. إننى أخشى ضحكه !

ومن جهة ترتيب الأثاث لم أكن أعرف كيف أضعه فى مثل ذلك البيت .. لم يكن يتسع لأى شىء .. وكنت قد أحضرتُ من بيت والدتى - كجزء من بائنتى - منضدة ومقاعد من خشب الساج الصلب ، وسريرًا ضخمًا ، كسرير زواج والدتى . وَضَعَ زوجى المنضدة والمقاعد فى حجرة ثانوية أسماها « حجرة الطعام » . أما السرير الضخم الذى ظننتُ أنه سيكون مهدًا لأبنائى لم يكن من المستطاع وضعه فى أى غرفةٍ من الغرف الصغيرة العلوية . وأصبحت أنام على سرير من البوص مثل خادمة . أما زوجى فهو ينام فى غرفة أخرى على سرير من الحديد ضيق مثل الدَّكَّة . إنى لا أستطيع أن أعتاد مثل هذه الغرائب .

وفى الحجرة الرئيسية أو التى يطلق عليها زوجى اسم « قاعة الاستقبال» وضع مقاعد اشتراها بنفسه ، وكانت أشياء غريبة مشوهة لا يشبه أحدها غيره ، بل إن بعضها قد صُنع من البوص العادى . ووضع فى وسط تلك الحجرة منضدة صغيرة فوقها قطعة قماش حريرى بلون الحرير الطبيعى ثم بعض الكتب. يا له من قبح !

وعلى الجدران عَلَّقَ صورًا مطوَّقة بإطارات لزملاء الدراسة ، وقطعة

مربعة من اللَّبَّاد عليها ححروف أجنبية . سـألته عَمَّا إذا كات هذه هى شـهادة الدبلوم التى حصل عليها ، فأغرق فى الضحك ، ثم أرانى بعد ذلك شـهادة الدبلوم التى مُنحت له . إنها قطعة منبسطة من الجلد ، منقوش عليها حروف سوداء غريبة . وأشار إلى اسمه الذى تلته علامات معقوفة. كان الأولان يدلان على كليته العظيمة ، والثانيان يعنيان مقدرته كدكتور متخصص فى الطب الغربى . وتساءلت عَمَّا إذا كانت تلك العلامات مساوية فى الدرجة إلى شـهادتنا من الأكاديمية الإمبراطورية القديمة ، فضحك مرة أخرى وقال : إنه ليس هناك وجه للمقارنة . وهذا الدبلوم يوضع فى إطار ويغطيه لوح من الزجاج ، ويُعَلَّق فى أشرف مكان على الجدار ، مثل ذلك المكان الذى تعلق فيه لوحة الإمبراطور القديم « مينج » على حائط قاعة الضيوف فى منزل والدتى .

ولكن هذا البيت الغربى البشع كيف أشعر فيه أنه بيتى ؟

هذه النوافذ ذات الألواح الزجاجية الشفافة بدلًا من تلك المنقوش عليها شبكة من ورق الأرز المعتم .. وضوء الشمس الساطع الذى يتألق على الجدران البيضاء ، ويروع فجأة كل دقيقة من دقائق الغبار فوق الأثاث .. إننى لم أَعْتَدْ مثلَ ذلك الضوء الذى لا يرحم . فإذا ما جَمَّلْتُ شفتىَّ بصبغ الزنجفر القرمزى ، وطليتُ جبهتى بمسحوق الأرز الناعم – كما علمونى أن أفعل ذلك – فإن هذا الضوء يكشفنى إلى الحد ، الذى أجد فيه زوجى يقول لى:

– أرجو ألّا تصبغى نفسك من أجلى بهذه الطريقة ، إننى أُفَضِّلُ أن أرى النساء بشكلهن الطبيعى .

إن عدم استعمال مسحوق الأرز الناعم وصبغ الزنجفر الدافء معناه الإقلاع عن تجميل نفسى ، فأمشط شعرى دون الاستعانة بالزيت لأكسبه نعومة ، وأنتعل أحذية غير مطرزة ، ففى البيت الصينى الشبكة المنقوشة تجعل الضوء خافتًا فيسقط لطيفًا رقيقًا على وجوه النساء ، أمّا فى بيت كهذا فكيف أبدو جميلة فى عينى زوجى ؟

وفضلاً عن تلك النوافذ السخيفة ، فإن زوجى ابتاع قماشًا أبيض ، وطلب أن أصنع منه ستائر ، فأدهشنى أن هناك حفرة مستديرة أُعدت فى الجدار من قبل ، وغطيت بالزجاج ، تدلى أمامها القماش !

أمّا الأرضية فقد كانت من الخشب ، وفى كل خطوة يخطوها زوجى بحذائه الأجنبى تحدث قعقعة ، عندئذ اشترى قماشًا سميكًا من الصوف ، مزينًا برسوم زهرية ، وَفَرَشَهُ على الأرض على شكل مربعات كبيرة .. أذهلنى ذلك بشدة .. لقد خشيت أن تتسخ ، أو أن الخدم قد ينسون فيبصقون عليها . وعندما أشرت إلى ذلك شعر بالسخط وقال : لن يكون هناك بصق على الأرض . فسألته :

– أين إذًا يبصقون إذا لم يفعلوا ذلك على الأرضية ؟

أجاب باقتضاب :

– فى الخارج إذا كان لابد من ذلك .

غير أن هذا كان عسيرًا على الخدم ، وحتى بالنسبة لى فقد كنت أنسى أحيانًا فأبصق قشر بذور البطيخ فوق القماش . عندئذ اشترى آنية عريضة قليلة الارتفاع وُضِعَتْ فى كل حجرة ، وأجبرنا على استعمالها .. والعجيب أنه شخصيًّا يلجأ إلى منديل ثم يعيده إلى جيبه . إنها عادة غريبة قذرة !

* * *

أواه ! هناك ساعات أود فيها أن أهرب بعيدًا إذا وجدت الوسيلة .. ولكننى لم أكن أجرؤ على العودة إلى أمى وأواجهها فى مثل هذه الظروف ، ولم يكن هناك مكان آخر أمضى إليه .

مرت الأيامُ سراعاً ، واحدًا إثْرَ الآخر .. أيام طويلة عانيتُ فيها من الوحدة ، فهو يعمل كما لو كان عاملاً عليه أن يكسب الأرز الذى يتناوله بدلاً من أن يعيش واقعه باعتباره ابن موظف ثرى ، يستيقظ فى الصباح الباكر قبل أن تستجمع الشمس حرارتها ويمضى إلى عمله ، وأظل وحيدة حتى المساء فى هذا البيت ، لم يكن هناك سوى الخدم فى المطبخ ، وكنت أخجل من الاستماع إلى ما ينهمكون فيه من القيل والقال .

آه ! إننى أحيانًا أرى أنه من الأفضل لو خدمت والدته ، وعشت مع شقيقات زوجى ، فهناك أستمع على الأقل إلى أصوات وضحكات ، أمَّا هنا فالصمت يخيم على هذا البيت طوال اليوم كالضباب .

لم يكن فى استطاعتى إلَّا أن أجلس وأفكر وأحلم كيف أجتذب قلبه ؟

أستيقظُ مبكرةً فى الصباح لأعدَّ نفسى للمثول أمامه ، وحتى لو لم أنم بالليل لما أعانيه من قلق وضجر فإننى أُبَكِّرُ فى النهوض ، وأغسل وجهى بماء حار معطر ، وألينه بالزيوت ، وأضمخه بالعطور متشوفة فى الصباح إلى كسب قلبه الغافل عنى ، بيد أننى مهما بكرتُ فى النهوض فإننى أجده دائماً جالسًا إلى مكتبه مُكِبًّا على الدراسة .

كل يوم على ذلك المنوال .. أسعل بلطف ، وأدير أكرة الباب المستديرة بخفة .. وآه لهذه المقابض الغريبة ! وكيف كان علىّ أن أديرها وأُديرها مرارًا لأعرف سرها .. إن صبره ينفد إزاء الضجة التى أُحدثها نتيجة ارتباكى وعدم إتقانى التعامل مع مقبض الباب ، لذا كنت أُمارس التدرب عليها فى غيابه ، ومع ذلك فقد كانت أصابعى تنزلق أحيانًا فى الصباح الباكر فوق الخزف الصينى الأملس البارد فأُصاب بالذُّعْر حين أحاول الإسراع فى إدارة المقبض ، فهو يكره البطء ، ويتحرك متعجلًا حين يمشى، حتى بِتُّ أخشى عليه أن يؤذى نفسه .

ولكنه لا يفعل شيئًا لحماية بدنه .. ويومًا بعد يوم حين أقدم له الشاى الساخن فى صقيع الصباح يتقبله بدون أن يرفع عينيه عن الكتاب .. إذًا ما جدوَى أن أُرسل خادمة فى الفجر لتبتاع لشعرى الياسمين ناضرًا ؟ وحتى شذا لا يزحف خلال صفحات الكتاب الأجنبى .. وفى كل إحدى عشرة مرة من اثنتى عشرة ، عندما أعود صباحًا فى أثناء غيابه لأرى إنْ كان قد شرب الشاى ، فأجده لم يزحزح الغطاء عن السلطانية ، وأوراق الشاى تطفو فى انتظام فوق سطح السائل الباهت . إنه لا يعبأ بشىء عدا كتبه .

لقد فكرتُ مليًّا فى كل ما علمتنيه أمى لإدخال البهجة والسرور على زوجى .. أعددتُ له الأطعمة اللذيذة المذاق لأستثير شهيته ، أرسلتُ خادمًا فَاشْتَرَى دجاجًا حديثَ الذبح ، وبراعم نبات الخيزران من هانجتشو » ، وثمارَ اليوسفى ، وسمكًا ، وزنجبيلاً ، وسكرًا بنيًّا ، وصلصة فول الصويا .. وطوال الصباح أعددتُ الأطباق دون أن أنسى شيئًا مِمَّا قيل لى إنه يجعل الطعام شهيًّا ، ويزيد من نكهته الزكية . وعندما أعد كل شىء أمرت بأن تجلب هذه الأطباق فى نهاية الوجبة ، آملة أن يصيح بقوة :

– آه ! لقد احتفظت بأطايب الطعام للنهاية . إنه غداء يليق بإمبراطور !

غير أنه حين قدمت الأطباق تناولها كجزء من الوجبة دون تساؤل .. لم يستسغها كثيرًا ، ولم يتحدث عنها . جلستُ أرقبه بلهفة ، ولكنه لمَ يقل شيئًا، وهو يتناول براعم الخيزران ، وكأنها كرنب من حديقة أحد الفلاحين!

وفى تلك الليلة عندما وَلَّتْ غُصَص خيبة أملى ، قلت لنفسى :

– ربما حَدَث هذا لأنه لم يكن طبقه المفضل . ونظرًا لأنه لم يذكر قط ألوان الطعام الأثيرة لديه ، فسأرسل إلى والدته لأستعلم عَمّا كان يحبه فى صباه لذا بعثتُ بخادم ، ولكن أمه أجابت :

– قبل أن يعبر البحار الأربعة كان يحب لحم البط المشوى حتى يصير لونه بنيًّا ، ثم يُغْمَسُ فى عصير هلامى من ثمر الزعرور البرى ، غير أنه مُنذ السنوات العديدة التي ظل يتغذى فيها على الطعام الأجنبى ونصف

المطبوخ ، الذى تتناوله الشعوب الغربية ، فَقَدَ حاسة ذوقه ، ولم يعد يبالى كثيرًا بالأطعمة الشهية اللذيذة .

ولهذا أحجمت بعدها عن تلك المحاولة ، فليس ثَمَّة شىء يرتجيه زوجى منى . لم يعد يعوزه أى شىء مِمَّا أستطيع أن أقدمه إليه .

* * *

ذات مساء ، بعد أسبوعين من إقامتنا فى البيت الجديد ، جلسنا معًا فى قاعة الاستقبال .. كان يقرأ فى أحد كتبه الكبيرة حين دخلت ، وتطلعت إلى الصورة فى الصفحة التى يقرؤها وأنا فى طريقى إلى مقعدى ، فشاهدتُ صورة لجسم إنسانٍ فى وضع عمودى ، فارتعبتُ ، إذ كان منزوع الجلد ، فصعقت ودهشت ، كيف يقرأ مثل هذه الأشياء ؟ ولكننى لم أجرؤ على سؤاله عنها .

جلستُ هناك على أحد مقاعد البوص الغريبة دون أن أستند بظهرى إلى الخلف ، فقد بدا لى أنه لا يليق أن يتكىء المرء إلى الوّراء أمام الغير . كنت مشتاقة لبيت أُمِّى ، وتذكرت أنهم يجتمعون فى هذه الساعة لتناول طعام العشاء ، والمحظيات وأطفالهن الصغار بصخبهم وصراخهم ، فى ضوء الشموع الساطع .. إن أمى تجلس هناك على رأس المائدة ، والخدم يضعون - بناء على تعليماتها - أوانى الخُضَر والأرز الذى يتصاعد منه البخار ، ويوزعون العيدان التى يتناول بها الجميع طعامهم .. كل واحد منهمكٌ فى الأكل ، سعيد به . ويأتى أبى بعد تناول الوجبة ، ويلاعب

أطفال المحظيات لفترة قصيرة . وبعد أن ينتهى كل ذلك ويفرغ الخدم من العمل ، فإنهم يجلسون فى الفناء على مقاعد صغيرة من جذوع الأشجار بلا مساند يتهامسون فى الغَسَق . وتجلس أُمِّى إلى مائدة الطعام لتحاسب رئيس الطهاة، وشمعة حمراء طويلة تلقى رشاشاً من ضوئها المتشنج عليها .

أواه .. كنت مشتاقة لأكون هناك ! فأتجول بين الزهور ، وأفحص قرون اللوتس لأرى إذا كانت البذور بداخلها قد نضجت أم لا .. كان الصيف فى أواخره ، وهو موسم اللوتس تقريبًا . وعندما يظهر القمر ربما سألتنى أمى أن آتى بقيثارتى لأعزف لحن الأغنية ، فى حين تنساق اليد اليسرى على سلم موسيقى ثانوى لمصاحبة الأنغام .

وحين مرت تلك الأفكار بمخيلتى نهضتُ لإحضار قيثارتى .. سحبتُها بعناية من الحقيبة المطلية بورنيش اللَّك ، والمطعمة بأم اللآلىء التى نُقشت عليها صور أرواح الموسيقى الثمانية .. وفى الداخل على القيثارة نفسها قطع خشبية متعددة الأشكال موفقة مع بعضها تحت الأوتار ، وتضيف كل قطعة خشبية نغمًا ثريًّا خاصًّا بها عندما تُمَس الأوتار .. كانت القيثارة والحقيبة تخص جدتى لأبى ، أحضرها لها والدها من «كوانجتونج» حين كفت عن البكاء بعد شد وثاق قدميها بالأربطة المحكمة .

داعبتُ الأوتارَ برفق فانبعثَ منها صَوْتٌ وَاهٍ مكتئب حزين . هذه القيثارة هى قيثارة قومى القديمة ، وينبغى العزف عليها تحت الأشجار

فى ضوء القمر قرب ماء ساكن ، فهناك تطلق صوتًا صافيًا عَذْبًا . ولكن فى هذه الحجرة الصامتة الأجنبية كان الصوت مختنقًا ضعيفًا ، فترددتُ ، ثم عزفتُ لحن أغنية قصيرة من عصر « سونج » .

نظر إلَىَّ زوجى وقال بصوت حنون :

– هذا بهيج قريب إلى النفس جدًّا .

ثم استطرد :

– إننى مسرور لأنكِ تستطيعين العزف عليها . سأشترى لك «بيانو » يومًا مًّا ، ويمكنكِ أن تتعلمى عزف الموسيقى الغربية أيضًا ..

ثم استدار لمواصلة قراءته .. تطلعت إليه وهو يقرأ الكتاب الشبحى المروع ، وانثنيتُ أداعِب الأوتار بمنتهى الرفق ، دون أن أعرف ما تبعثه من أنغام . لم يسبق لى أن شاهدت «بيانو » ، فماذا عساى أن أفعل بهذا الشىء الأجنبى ؟

وعلى حين غرَّة لم أعد أستطيع المضى فى العزف .. نحيتُ القيثارة جانبًا، وجلستُ وقد أطرقتُ برأسى ، وتدلت يداى فى تراخٍ وكسل.. وبعد صمت طويل أغلق زوجى كتابه ، وتطلع إلَىّ بنظرة شاملة وقال :

– « كواى – لان » ..

خَفَقَ قلبى .. كانت هذه أول مرة ينادينى فيها باسمى . ترى ماذا يريد أن يقول لى أخيرًا ؟ رفعتُ عينىَّ إليه فى وَجَل ، فَأَكْمَلَ حديثه قائلاً :

– وددتُ منذ زواجنا أن أسألكِ ما إذا كُنتِ ترغبين فى حل رباط قدميك

.. إنه غير صحى لجسمك بأكمله .. انظرى كيف تبدو عظامك هكذا ؟

تناول قلماً ورسم فى عجالة على ورقة من كتابه شكلاً تخطيطيًّا لقدمٍ عارية متشنجة ، توقع الرهبة فى النفس .

كيف عرف ؟ لم يسبق أن عرضتُ قدمىَّ أمامه إطلاقًا . نحن النسوة الصينيات لا نعرض أبدًا أقدامنا أمام الآخرين ، حتى فى أثناء الليل نرتدى جواربَ بيضاء .

سألتُه لاهثة :

– كيف عرفت ؟

فأجاب :

– لأننى طبيب تدربتُ فى الغَرْب ، ثم إننى أرغب أن تحلِّى وثاقهما ، لأنهما غير جميلتين ، هذا بجانب أن ربط القدمين لم يعد مطابقًا للزى الحديث .

ارتسمتْ على وجهه ابتسامة طفيفة ، ونظر إلَىَّ بشىء من الحنان :

– هل تأثرتِ بما قلت ؟

لكننى سحبتُ قدمىَّ بسرعة تحت مقعدى ، فقد صعقتنى كلماته .. «غير جميلتين »؟ لقد كنت دائمًا فخورة بقدمىَّ الصغيرتين ! وطوال مرحلة طفولتى أشرفتْ أُمِّى بنفسها على نقعهما فى الماء الساخن ، وشدهما بالأربطة .. ويزداد الشدُّ يومًا بعد يوم . وعندما بكيتُ من الألم

المبرح دَعَتْنِى إلى تذكُّر أن زوجى فى يوم من الأيام سيثنى على جمال قدمىَّ .

أحنيتُ رأسى لأُخفى دموعى .. تأملتُ فى كل تلك الليالى المفعمة بالقلق الذى لا ينقطع ، وتذكرتُ الأيام التى كنت لا أقوى فيها على تناول الطعام، والتى عزفتُ فيها عن اللعب ، وعندما كنت أجلس على حافة فراشى وأدعِ قدمىّ المسكينتين تتأرجحان لأريحهما من انحباس الدم . والآن بعد احتمال الألم الذى لم ينقطع إلا منذ عام فقط ، أعلم أنه يراهما قبيحتين !

نهضت من مقعدى وأنا منفعلة وأشعر بالاختناق ، وكنتُ غير قادرة على إخفاء دموعى ، فقلت :

– لا أستطيع .

وغادرت الحجرة .

لم يكن ذلك بسبب عنايتى الفائقة بقدمىَّ ، بل لأنهما بحذاءيهما المطرزين ببراعة لم تلقيا حظوة فى عينيه . كيف يمكن أن آمل فى كسب حُبِّه؟

وبعد أسبوعين خرجتُ لأقوم بزيارتى الأولى لبيت أمى وفقًا لتقاليدنا الصينية . لم يعاود زوجى الحديث عن حل وثاق قدمىَّ ، كما لم يُنادِنى باسمى مرة أخرى .


الفصل الثالث

3

ألم تتعبى يا أختاه ؟ إذًا سأواصل الحديث !

ومع أننى كنتُ بالخارج لمدة قصيرة ، فقد بدا لى أن مائة قمر دخلت فى المحاق منذ أن اجتزتُ البوابة المألوفة وأنا محمولة فوق مقعد زفافى . كنت حينئذ لاآمل سوى القليل ، وخشيت الكثير ، أمَّا الآن فعلى الرغم من عودتى كامرأة متزوجة بضفيرة ملفوفة ، وبجبهة عارية من « شراريب » القماش التى تتزين بها البنات ، إلا أننى أعرف قبل كل شىء أننى نفس الفتاة .. لكننى فقط أكثر خوفًا ، وأكثر إحساسًا بالوحدة ، وأقل أملًا .

جاءت أمى إلى الفناء الأول لتلاقينى وهى تتكىء على خيزرانتها الطويلة ، ومعها غليونها الفضى . بَدَتْ مُتْعَبَةً وأكثر حذرًا من ذى قبل ، أو ربما كان مَرَدُّ ذلك إلى أننى لم أكن أراها يوميًّا ، وعلى أية حال فقد جذبتنى إليها لمسة أسى تجول فى عينيها ، الأمر الذى جعلنى - بعد أن انحنيتُ أمامها - أتجرأ على إمساك يدها . استجابت لى بضغطة خفيفة ، وسرنا معًا عائدين إلى فناء الأسرة .

أوه .. كم كنتُ أُحَدِّقُ وأتفرس فى كل شىء ! فقد تراءى لى أن ثمة تغيرًا كبيراً قد حدث . فى حين أن كل شىء كان باقيًا على حالته الطبيعية مُرَتَّبًا هادئًا كالعادة فى الأفنية ، عدا ضحكات أطفال المَحْظِيَّات ، وهرولة الخدم المنهمكين فى عملهم بنشاط صاخب، وهم يبتسمون ويصيحون تحية لى عندما لمحونى .

كانت شمس مطلع الخريف تُرسل أشعتها التى تسقط عبر أحواض الأزهار والقرميد المصقول فى الأفنية ، وتتألق فوق الشجيرات وأحواض الماء ، وكانت الأبواب والنوافذ فى الناحية الجنوبية للحجرات مفتوحة ليتسرب من خلالها الضوء والحرارة ، وكانت الشمس المتسللة ترسم أشكالاً بأشعتها على طرف الخشب المنقوش ، وعلى الرغم من معرفتى بأن مكانى لم يعد هنا ، فإن روحى استراحت مع ذلك فى بيتها الحقيقى .

ولكننى افتقدتُ فقط شيئًا واحدًا ، وجهًا مليحًا مثيرًا ، فسألت :

– أين السيدة الرابعة ؟

نادت أمى عبدًا ليملأ لها غليونها بالتبغ ، ثم أجابتنى عرضًا :

– « لا – ماى » ؟ آه .. أرسلتُها فى زيارة للريف لتغير الهواء .

وكان ما عرفتُه من لهجتها أفضل من أن أُواصِلَ الأسئلة . ولكننى فيما بعد حين تهيأت للنوم فى الماء فى حجرة طفولتى ، جاءت العجوز « وانج دا ما » لتمشط شعرى وتضفره كما اعتادت أن تفعل على الدوام ، وفى أثناء ثرثرتها عن أشياء كثيرة أخبرتنى أن أبى كان يفكر فى اتخاذ محظية جديدة ، فتاة من « بكين » تعلمت فى « اليابان » ، وحين سمعت السيدة الرابعة بذلك ابتلعت أحسنَ أقراطها المرصَّع باليشب ، ولم تخبر

أحدًا ، على الرغم من شدة ما قاسته ، ثم اكتشفت أُمى الأمر .

كانت الفتاة على شفا الموت ، ولم يتمكن الطبيب العجوز من أن يفعل شيئًا ، برغم أنه وخز رسغيها وَكاحِلَيْها بالإبر .. اقترح أحد الجيران إدخالها المستشفى الأجنبى ، غير أن والدتى لم تأخذ ذلك بعين الاعتبار ، فلم نكن نعرف شيئًا عن الأجانب . ثم كيف يتسنى لأجنبى أن عرف عِلَّة شخص صينى ؟ فالأطباء الأجانب قد يفهمون أمْراض مواطنيهم الذين يُعتبرون بسطاء أو همجيين تماماً إذا قُورنوا بما عليه الصينيون من رُقِىٍّ وتهذيب . وقد تصادف أن أخى كان فى البيت لحضور مهرجان القمر الثامن ، فاستدعى امرأة أجنبية طبيبة ، جاءت ومعها آلة غاية فى الغرابة متصلة بأنبوبة دفعتها فى حلق السيدة الرابعة ، فصعدت الأقراط على الفور. أصابت الدهشة الجميع ، عدا المرأة الأجنبية التى حزمت أدواتها وانصرفت بهدوء .

كانت المحظيات الأخريات غاضبات من السيدة الطريفة لابتلاعها أفضل أقراطها ؛ فسألتها البدينة :

– ألم يكن بوسعك أن تأكلى عملية من عيدان الثقاب التى يمكن شراؤها بعشر قطع من العملات الصغيرة ؟

لم يكن لدى السيدة الرابعة ما تقوله . وقالوا : إن أحدًا لم يرها تأكل أو سمعها تتحدث وهى تتماثل للشفاء . كانت ترقد على فراشها وقد أسدلت الستائر . لقد خسرت كثيرًا فى تعاملها مع الأخريات بسبب محاولتها التى باءت بالفشل ، ولهذا أشفقت أمى عليها فأرسلتها بعيدًا لتنجو من توتر العلاقات بينها وبين النساء .

وعلى كل حال فإن مثل تلك الأمور كانت مثار ثرثرة صغيرة فى البيت ، ولم يكن لها موضع فى حديثى مع والدتى ، ولكن نظرًا لما أكنُّه من حب عميق للبيت ، شعرت أننى يجب أن أعرف تفاصيل كل شىء . وهكذا أصغيتُ إلى ثرثرة « وانج دا ما » ، لقد عاشت بيننا طويلاً حتى أصبحت تعرف كل أمورنا . وقد جاءت مع والدتى من بيتها البعيد فى « شانسى » عندما تزوج أبى ، وهى التى تلقفت بين ذراعيها الأطفال الذين وضعتهم أمى . وعندما تموت والدتى فإنها ستذهب عند زوجة أخى لتعنى بأحفاد أمى .

بيد أن هناك أمرًا واحدًا سمعتُ به ، وكانت له أهمية أكثر من أن تكون عابرة ، فقد قرر أخى أن يسافر إلى الخارج - إلى أمريكا - لمزيد من الدراسة! لم تقل لى أمى شيئًا عن ذلك ، غير أن « وانج دا ما » أخبرتنى همسًا حين أحضرت لى الماء الساخن فى صبيحة اليوم الأول لعودتى إلى هنا، بأن أبى قد ضحك من أفكار ابنه الجديدة ، ولكنه لم يلبث فى النهاية أن أَبْدَى موافقته على سفره ، لأنه أصبح من السائد حديثًا أن يرسل المرء أبناءه ليدرسوا فى الخارج ، ويفعل أصدقاؤه ذلك .

حزنت أمى حزنًا موجعًا عندما بلغها ذلك الأمر . وقالت « وانج دا ما» إن حزنها فاق هذه المرة ما سبق أن انتابها طيلة حياتها ، باستثناء أسها حين اتخذ أبى أول محظية له ، وعندما رأت أن أخى ذاهبٌ لا محالة ، عزفت عن الطعام طوال ثلاثة أيام ، ولم تكلم أحدًا . وفى النهاية عندما رأت أنه لا مناصَ من سفره عبر البحر الهادىء ، توسلت إليه أن يتزوج أولًا من خطيبته حتى تنجب ابناً . وقالت أمى :

– بما أنك لم تدرك أنَّ لَحْمَكَ ودمَك لا يخصَّانِكَ وحدك ، ونظراً لأنك صلب الرأى ، وتتسم باللامبالاة ، وتندفع فى مخاطر تلك البلاد الهمجية دون مراعاة لواجبك ، فلا أقل من أن تصل حبل أسلافك المقدس بشخص آخر، حتى إذا مِتَّ – لا قدَّرَ الله يا بنى – .. أكون قد شاهدتُ على الأقل حفيدى !

بيد أن أخى أجاب بعناد :

– ليست لى رغبة فى الزواج ، أودُّ فقط أن أدرس مزيدًا من العلوم وكل ما يتعلق بها ، ولن يحدث لى شىء يا أماه . وحين أعود .. ولكن ليس الآن .. ليس الآن !

عندئذ بعثت أمى برسائل إلى والدنا تحثه على أن يجبر ابنه على الزواج، ولكن أبى لم يعر ذلك انتباهًا، فقد كان مستغرقاً فى الاستعدادات للمحظية الجديدة ، ومضى أخى فى سبيله .

تعاطفتُ مع أمى ، فهذا الجيل هو آخر سلالة أبى ، لأن جدى لم ينجب أبناءً غير والدى ، وأيضًا مات أبناء أمى الآخرين وهم صغار . ولهذا أصبحت ضرورة مُلِحَّةً أن يكون لأخى ابنٌ بأسرع ما يمكن ، حتى تقوم والدتى بواجبها نحو الأسلاف ، ولهذا تمت خطبته منذ طفولته إلى ابنة «لى». ومع أننى لم أرها فقد سمعت أنها ليست جميلة ، ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة لرغبات والدتنا ؟

قلقتُ عَلَى أُمى أيامًا عديدة بسبب عصيان أخى ، ولكنها لم تحدثنى عن ذلك مُطْلَقًا، لقد دفنتْ حزنها مثل كل الآخرين فى الأماكن الخفية من روحها ، وتلك طريقتها دائماً عندما تدرك أن آلامها لا يمكن تجنبها ،

فتطبق شفتيها عليها إلى الأبد، أَمَّا أنا – وقد أحاطتنى الوجوه والجدران المألوفة ، واعتدت على صمت أمى – فَرُوَيْدًا رويدًا لم أعد أفكر فى أخى .

* * *

من الطبيعى أن تكون الفكرة الأولى التى رأيتها تطل من كل العيون هى تلك التى كنت أخشاها وأتوقعها .. ما هى إمكانية إنجابى ابنًا ؟ لقد وَجَّهِ كل منهم هذا السؤال ، ولكننى تفاديتهم جميعًا ، واكتفيتُ فقط بانحناءة وقورة من رأسى تجاه تمنياتهم الطيبة التى أعربوا عنها . فلا يجب أن يعرف أحد أن زوجى لا يبالى بى ، ولكننى لا أستطيع أن أخدع أمى !

وذات ليلة بعد أن عدتُ إلى البيت بسبعة أيام ، جلستُ فى كسلٍ فى الممر الذى يفضى إلى الفناء الكبير .. كنا فى وقت الشفق ، وكان العبيد والخدم مشغولين فى إعداد وجبات العشاء.. انبعثت رائحةُ السمك المشوى والبط المحمر ، وانتشر أريجها فى الهواء ، وكانت حمرة الغروب على وشك التلاشى ، وبَشَّرَتْ زهور الأقحوان فى الفناء بخصب وفير ، وتأجج فى نفسى حب البيت والأشياء القديمة المحيطة ، وهأنذى أتذكر أننى وضعتُ يدى بحبٍّ على لوح الباب المنقوش المطوق بإطار ،وأحسست هناك بالطمأنينة ، حيث أمضيتُ طفولتى فى هدوء ، والتى انقضت قبل أن أعيها.

كان كل شىء يبعث على الحب العميق ، وظلمة أول الليل تهبط فى سكون فوق الأسطح المنحنية ، وضوء الشموع يتلألأ داخل الحجرات ، ونكهة التوابل فى الأطعمة ، وأصوات الأطفال ، والوقع الخفيف لأحذيتهم

المصنوعة من القماش فوق الأرض المكسوة بالقرميد . آه ! إننى ابنة بيت صينى عريق بعاداته وتقاليده القديمة ، وأثاثه القديم ، وعلاقاته الطيبة القديمة ، وأعرف كيف أعيش هناك فى طمأنينة وثقة !

ثم فكرتُ فى زوجى وهو جالسٌ الآن إلى المائدة وحيدًا فى البيت الأجنبى ، يرتدى ثيابه الغريبة ، ويبدو غريبًا فى كل شىء .. كيف يمكننى أن أتكيَّف وفق حياته ؟ لا حاجة له بى . كان حَلْقِى متيبسًا بدموع لم أَقْوَ على ذرفها . كنتُ وحيدة أعانى غربة موحشة لم أعرفها وأنا بنت . وكما أَخْبَرْتُكِ يا أختاه : نظرت إلى المستقبل ، إنه يمر بنا الآن ، لا شىء فيه سوى المرارة . إن الدموع تطفر من عينىَّ . أدرتُ رأسى بعيدًا صوب عتمة الغَسَقِ لئلا تسقط أضواء الشموع فوق وجنتىّ فتفضحنى ، ثم سمعتُ الطَّرقات فوق الناقوس النحاسى تدعونى لتناول طعام العشاء ، فمسحتُ عينىَّ سِرًّا ، وتسللت إلى مكانى على المائدة .

انسحبت أمى مبكرة إلى حجرتها ، ومضت المحظياتُ إلى مأواهن ، وبينما كنت أجلس وحدى أرتشفُ الشاى ، إذْ ظهرت « وانج دا ما » على حين غرة وقالت :

– إن أمك المبجلة تأمرك بالمثول بين يديها .

قلت فى دهشة :

– لكن والدتى أخبرتنى منذ لحظة بأنها ستأوى إلى فراشها ، ولم تقل لى شيئًا عن أى حديث ترغب فيه .

ردت « وانج دا ما » :

– ومع ذلك فإنها تأمرك ، لقد أَتَيْتُ لِتَوِّى من حجرتها .

وتركتنى دون إبداء مزيد من الإيضاح . وعندما تلاشى وقع أقدامها . فى الفناء نحيتُ جانبًا الستارة المصنوعة من الساتان ، ودخلتُ حجرة والدتى ، ودهشت حين رأيتها مستلقية على الفراش ، وبجانبها على الطاولة شمعة واحدة طويلة مضاءة ، لم يسبق قط أن رأيتها هناك طيلة حياتى . كانت تبدو وقد أضناها الضعف والتعب .. كانت عيناها مغمضتين ، وشفتاها الباهتتان مُدَلأَّتين . مضيت بخفة إلى جانبها ووقفت هناك . كان وجهها شاحبًا وقورًا ، رقيقًا حزينًا .

قلت بلطف :

– أُمَّاه !

أجابت :

– طفلتى .

ترددت دون أن أعرف ما إذا كانت تريد منى أن أجلس أو أظل واقفة . ثم مدت يدها وأشارت لى أن أجلس على الفراش بجانبها . أطعتُ ، وانتظرتُ صامتة حتى رغبت فى الحديث . وقلت لنفسى : « إنها حزينة من أجل أخى فى البلاد البعيدة ».

بيد أنها لم تكن تفكر فى أخى .. إذْ أدارت وجهها نحوى فى ضعف وقالت :

– إننى أُدرك يَا بُنَيتِى أنِ الأمور لا تسير معك على نحو مرضٍ تمامًا ، فمنذ أن عُدْتِ لاحظتُ أنكِ فَقَدْتِ أسلوب حياتك المتسم بالقناعة الهادئة. إن روحك قلقة متململة ، والدموع تطفر من عينيك بسرعة ، كما لو أن

هناك حزنًا دفيناً يتشبث بأفكارك ، على الرغم من أن شفتيك لا تبوحان به . ما وجه الخطأ ؟ إذا كان بسبب عدم إنجابك طفلاً حتى الآن ، فصبرًا ، لقد انقضى عامان قبل أن أمنح والدك ابنًا .

لم أعرف كيف أخبرها .. كان جزء من خيط حريرى يتدلى من الستارة المطرزة المتصلة بالظلة فوق السرير . طففتُ ألوى الخيط إلى الخلف والأمام بين إبهامى وأصبعى كما لو كنت ألوى أفكارى . أخيرًا قالت لى بشىء من التجهم :

– تكلَّمِى !

نظرتُ إليها ، أوَّاه للدموع الحمقاء التى لم تدعنى أتفوَّه بكلمة واحدة!! لقد تفجرت الدموع وتفجرت ، حتى ظننت أننى لم يعد لى أنفاس كى أحيا، ثم انْدَفَعَتْ كلها فى تنهيدة عنيفة ، فدفنتُ وجهى فى اللحاف الذى يغطى جسم أمى وصحت :

– أوه ، إننى لا أعرف ماذا يقصد ؟ إنه يقول لى : ينبغى أن أكون مساويةً له ، ولا أعرف كيف ؟! إنه يبغضُ قدمىَّ ويقول إنهما قبيحتان ، ويرسم لهما صورًا تحمل تلك الصفة ، ولا أستطيع أن أقول كيف عزف ؟ لأننى لم أدعه قط أن يراهما .

استوت أمى جالسة وقالت فى حيرة ، وقد اتسعت عيناها فى وجهها الشاحب :

– ماذا يعنى ؟ كيف يمكنك أن تكونى مساوية لزوجك ؟

قلت وأنا أتنهد :

– هكذا المرأة فى الغرب .

– نعم ، ولكننا هنا شعب عاطفى من ذوى الفهم والذكاء .

وقدماك ؟ لماذا يرسم لهما صورًا ؟ ماذا تعنين ؟

قلتُ هامسة :

– ليُرينى أنهما قبيحتان .

– قدماك ؟ إذًا من المؤكد أنكِ كنت مهملة .لقد أعطيتُكِ عشرين زوجًا من الأحذية .. لم تُحسنى الاختيار .

– إنه لم يرسمهما من الخارج .. إنها العظام التى يرسمها جميعًا منحنية ملتوية .

– عظام ! مَنْ ذا الذى رأَى العظام فى قدم امرأة ؟ هل تستطيع عينا رجل أن تخترقا اللحم ؟

– إنه يقول إن فى استطاعته ذلك لأنه طبيب غربى .

– يا طفلتى المسكينة !

اسْتَلْقَتْ أمى فى فراشها مرة أخرى وهى تنتهد ، ثم هزت رأسها :

– إذا كان يعرف السحر الغربى ..

ثم وجدتُ نفسى أفضى إليها بكل شىء .. كل شىء ، حتى أننى همستُ بهذه الكلمات المريرة :

– إنه لا يبالى أن يكون لنا ابن . إنه لا يحبنى . أوَّاه يا أماه !! إننى ما زلتُ عذراء !

جَثَمَ صمتٌ طويل على المكان .. أخفيتُ وجهى ثانية فى اللحاف .

أظن أننى أحسستُ بأمى وهى تضع يدها برفق فوق رأسى وتستقر هناك برهة.. ولكننى غير متأكدة ، فهى لم تكن قط واحدة ممن تعنيهن المظاهر الخارجية ، ولكنها أخيرًا استوت فى جلستها ، وشرعت تتحدث :

- لا أعتقد أننى ارتكبتُ خطأً فى الأسلوب الذى تربيت عليه . لا أستطيع التفكير فى أنكِ أخْفَقْتِ فى إرضاء سيد صينىٍّ أصيل . أوَ يمكن أن يرجع ذلك إلى أنك تزوجْتِ همجيًّا ؟ ولكنه من أسرة كونج ! من يمكنه أن يرتاب فى ذلك ؟ إنها الأعوام التى قضاها فى الخارج ..لقد تمنيتُ أن أرَى أخاك ميتًا قبل ذهابه إلى البلدان الخارجية ! أغمضتْ عينيها ورقدت ثانية . وازداد وجهها النحيل صرامة .

وعندما عَاوَدَتِ الحديثَ كان صوتها عاليًا وضعيفًا ، كما لو كانت مُنْهَكَة :

- لا بأس يا طفلتى .. هناك طريق واحد للمرأة فى هذا العالم .. طريق واحد فقط تتبعه المرأة بأى ثمن .. يجب أن تُرضى زوجها .. إنه لأَمْرٌ يفوق احتمالى أن تكون كل رعايتى لكِ كان يجب ألَّا أقوم بها ، ولكنك لم تعودى تنتمين لأسرتى ، ولكن لزوجك ، ولم يعد لَكِ خيار سوى أن تكونى كَما يريد . وعليكِ أن تصمدى ! حاولى أن تبذلى كل جهدك لاستمالته .. ارتدى الأخضر اليشبى والأسود .. استعملى عطر زنابق الماء .. ابتسمى فى غير قحة ، ولكن بخفر وحياء ، وذلك واعد بكل شىء ، بوسعك أن تلمسى يده أيضًا .. وتشبثى بها لحظة .. ابتهجى إذا ضحك ،

وإذا ظل بدون تأثر فلن يكون هناك شىءٌ باقٍ سوى أن تخضعى لإرادته.

همستُ قائلة :

هل أَحُلُّ وثاقَ قدمىّ ؟

سكتت أمى فترة . ثم قالت بضجر :

– حُلِّ رباط قدميك .. لقد تغير الزمان .. انصرفى .

وأدارتْ وجهها ناحية الحائط .

* * *

كيف سأخبرك يا أختاه عَمَّا يثقل قلبى ؟

بدأ فجر يوم رحيلى داكنًا ساكنًا .. كان الوقت يقترب من نهاية القمر العاشر ، حين تبدأ الأوراق البنية تسقط على الأرض فى صمت ، ويرتعد الخيزران فى صقيع الفجر ، وبرد الغروب . تجولت فى الأفنية ، وأبطأتُ فى الأمكنة التى طالما أحببتُها طويلًا لأطبع جمالها من جديد وبحدَّة فى ذاكرتى . وقفتُ بجانب حوض الماء أستمع إلى الريح الخافتة ، وهى تقصم قرونَ وأوراق نباتات اللوتس الميتة .. جلستُ ساعة تحت شجرة « العَرْعَر » (١) الكثيرة العقد ، وهى من الفصيلة الصنوبرية التى ظلت طوال ثلاثمائة عام منتصبة فى الحديقة الصخرية فى الفناء الثالث . اقتطفتُ غصنًا من إحدى أشجار الخيزران السماوية فى فناء البوابة

(١) العَرْعَر : جنس أشجار من الصنوبريات ، يصلح للزينة .

العظمى مسرورة بثمار التوت القرمزية الزاهية المدلاة أمام الأوراق الخضراء القاتمة ، ومن ثَمَّ وددتُ أن أحتفظ بشىء من كل ما فى الأفنية من جمال ، فانتقيت ثمانية أُصُص (١) من زهور الأقحوان لأحملها معى . كانت فى تلك اللحظة فى أوج اكتمالها ، واعتقدتُ أن ألوانها الحمراء والذهبية والبنفسجية الشاحبة قد تُلَطِّفُ قليلًا من بيتى العارى الأجرد .. وهكذا عدتُ إلى زوجى .

لم يكن فى المنزل حينما دخلتُ فى القاعة الصغيرة .. أخبرتنى الخادمة أنه استُدعى عند شروق الشمس برسالة ملحّة عاجلة ، ولا تعرف إلى أى . وضعتُ زهور الأقحوان بعناية على مقربة من قاعة الاستقبال ، وأنا أفكر مليًّا كيف أرتبها بطريقة جيدة تُبرز حسنها كمفاجأة له . غير أننى عندما بذلت ما فى وسعى خاب ظنى ، فقد كانت تتألق بروعة فى الفناء القديم أمام النقوش السوداء فى الممرات ، أمَّا هنا فقد خبا رونقها إلى مجرد جمال مصطنع أمام الجدران البيضاء والطلاء الأصفر .

آه .. هكذا كان الأمر معى ! لقد ارتديتُ السترة والسراويل الساتانية المرصعة باليشب ، والجاكيت المخملى الأسود الذى لا أكمامَ له ، وزينتُ رأسى بحلى من اليشب والعقيق ، وعلقتُ أقراطًا من اليشب تدلت من أُذُنَىَّ ، وانتعلتُ حذاءين أسودين من المخمل المطرز بخرز ذهبى ، وكنت قد تعلمت من « لا – ماى » – السيدة الرابعة فى بيت أمى – مكر الخدود الشاحبة والشفة السفلى المصبوغة بالزنجفر القرمزى ، وسحر راحتى

(١) الأصص : جَمْع أصيص ، وهو : وعاء من الفخار تُستنبُت فيه النباتات .

اليدين الوردتين المعطرتين . لم أدَّخِرْ جهدًا من أجل تلك الليلة الأولى مع زوجى ، وقد رأيت أننى كنت مليحة .

ولما ارتديتُ ملابسى ، جلستُ منتظرةً سماعَ وقع خطواته فوق العتبة ، وإذا كنتُ قد تمكنتُ أن أدفع جانبًا ستارةً من الساتان الأرجوانى، وظهرتُ أمامه وسط الضوء الرقيق داخل حجرة صينية قديمة لأَحرزتُ نجاحاً ، ولكن كان علىَّ هنا أن أهبط غير مستقرة فوق السلم الذى ينبعث منه صريرٌ ، وأنضم إليه فى قاعة الاستقبال . لم يكن هناك شىء يعاوننى ، كنت كزهور الأقحوان .. جميلة فحسب .

أمَّا بالنسبة لزوجى فقد جاء متأخرًا ، وبدا مُتْعَبًا مكدودًا ،وفى ذلك الوقت كانت نضارتى قد وَلَّتْ ، وعلى الرغم من أنه حَيَّانى برفق وافٍ ، فإن عينيه لم تتعلقا بى ، وطلب فقط أن تسرع الخادمة بتقديم وجبة المساء، لأنه كان مشغولاً طوال اليوم بأحد المرضى ، ولم يذق طعامًا منذ الصباح .

تناولنا الطعام فى صمت ، كنت أجدُ مشقة فى ابتلاع ما آكله بسبب الدموع الحمقاء .. التهَمَ أُرْزَهُ بسرعة وجلس مقطِّب الجبين وهو يحملق فى الشاى يتنهد بين الفينة والفينة ، ونهض أخيرًا فى سأم وقال :

– دعينا نذهب إلى حجرة الجلوس .

جلسنا هناك ، وسأل فى غير مبالاة عن والدىَّ .. أعار إجاباتى أهمية ضئيلة ، حتى أننى ترددت فى سعيى إلى إثارة اهتمامه ، فلزمتُ الصمت فى

النهاية . لم يلحظ فى البداية أننى توقفتُ عن الحديث ، ثم نهض مستويًا على قدميه وقال بمزيد من العطف :

– أرجو عدم مآخذتى .. حقًّا إننى مسرور لعودتك ، ولكننى كنتُ طيلة هذا اليوم أُناضل ضد الخرافات والجهل المُطْبِق ، غير أننى خسرتُ معركتى، ولا يمكننى أن أفكر فى شىء سوى خذلانى . وطفقتُ أسائل نفسى : هل فعلت كل ما يمكن عمله ؟ هل هناك حجة لم ألجأ إليها لإنقاذ تلك الحياة ؟ أظن .. بل أنا على ثقة من أننى فعلتُ كل ما فى وسعى .. ولكن محاولاتى باءت بالفشل ! هل تتذكرين أسرة « يو » التى تقطن بجوار برج الطبل ؟ لقد حاولتْ سيدتهم الثانية أن تنتحر اليوم بشنق نفسها ! يبدو أنها لم تعد تحتمل لسان حماتها الأفعوانى الخبيث . لقد استدعونى، وكان فى استطاعتى أن أنقذها ! كانت قد جذبت الحبل لتوها حين عثروا عليها .. فأعددت فى الحال الأدوية اللازمة لعلاجها ، ثم دخل العم العجوز – وهو تاجر نبيذ – هل تتذكرين السيد « يو » العجوز ؟ لقد مات ، وأصبح تاجر النبيذ رأس الأسرة الآن . دخل علينا فى غضب منكر عنيف آمِرًا أن تُتَّبَعَ الأساليب القديمة .. أرسل فى طلب الكُهَّان ليقرعوا الطبول كى تعود روح المرأة ثانية .. تجمَّعَ أقاربها حولها ، وأرقدوا الفتاة المسكينة الفاقدة الوعى – والتى لم تتجاوز العشرين – على الأرض فى وضع راكع ، وفى بطء وتأنٍّ مَلَئُوا أنفها وفمها بالقطن والقماش ، وقيدوا وجهها بالأغطية !

وقلت :

– ولكن .. لكن ..

ثم أكمل :

– إنها العادة .. هذا ما يُعمل دائماً ، فقد هرب جانب كبير من الروح ، ويجب أن يحافظوا على ما تبقى فى داخلها بسد الفتحات !

بدأ يسير حول الحجرة فى اهتياج ، ثم توقف الآن تجاهى وشفتاه مضمومتان ، واستطعتُ أن أسمع تنفسه السريع . وحَمْلَقَ فى وجهى وصاح :

– ماذا ! أنتِ أيضاً ؟

انكمشتُ فى ذُعْر ! ثم همستُ :

– هل ماتت ؟

– تموت ؟ ألا تموتين لو فعلتِ هذا لفترة طويلة ؟

وأمسكَ بيديَّ الاثنتين بإحدى يديه ، ووضع منديله على فمى وأنفى بقسوة . أخذتُ أتلوَّى حتى تخلصتُ منه ، ومزقتُ المنديل . فأطلق ضحكة قوية كما لو كانت نباح كلب ، وجلس واضعًا رأسه بين يديه ، ولبثنا فى صمت مرهق كالألم . لم ير زهور الأقحوان التى رتبتها بعناية على مقربة من القاعة .

جلستُ أرقبه فى حيرة وقد انتبانى بعض الخوف . هل يمكن أن يكون على حق أخيرًا ؟

فى تلك الليلة وضعتُ الحلىّ اليشبية فى حزن داخل علبتها الفضية ، وألقيت ثيابى الساتانية جانبًا . بدأت أدرك أن ما تعلمته كان خطأ . لم يكن زوجى واحدًا من هؤلاء الرجال الذين تروق لهم المرأة التى تفتن أحاسيسهم كما لو كانت زهرة معطرة أو غليون أفيون . فصفاء الجمال فى الجسم لا يكفى . ويجب أن أتعلَّم كيف أرضيه فى نواحٍ أخرى .. وهأنذى أتذكَّر أُمى بوجهها الذى أدارته نحو الحائط ، وهى تقول بصوتها المنهك :

– لقد تغيرت الأزمنة .

* * *

مازلت لا أستطيع أن أقبل بسهولة حَلَّ وثاق قدمىَّ . وكانت السيدة « ليو » فى الحقيقة هى التى عاونتنى .. كانت زوجة مدرس فى مدرسة أجنبية حديثة . لقد سمعت زوجى يتحدث عن السيد « ليو » كصديق له .. لقد أرسلتْ لى كلمةً بعد يومٍ من عودتى قائلة : يسرنى أن أَزُوَرِكِ فى اليوم التالى .

قمتُ بعمل استعدادات ضخمة ، لأنها كانت أول زائرة لى ، أرسلتُ الخادمة لشراء ستة أنواع من الكعك ، وبذور البطيخ ، ورقائق السمسم ، وأجود أصناف الشاى .. ارتديتُ ثوبى الساتان القرنفلى المشمشى ، وزينتُ أُذُنَىَّ باللآلىء ، وكنت فى سِرِّى فى أشد الخجل من البيت .. خشيتُ أن تعتقد أنه قبيح وتتعجب من ذوقى . ووددتُ ألَّا يكون زوجى فى البيت

حتى يمكننى على الأقل أن أضع المقاعد والمنضدة بطريقة ملائمة تظهر بوضوح مكان الشرف كى أحسن وفادة الضيفة .

ولكنه -لأول مَرّة - لم يغادر البيت . كان جالسًا يقرأ ، وتطلَّعَ نحوى بابتسامة حين دخلتُ الحجرة بعصبية . خططتُ كى أكون جالسة حين تقود الخادمة الضيفة إلى الحجرة ، حتى يتسنى لى أن أنهض ، وانحنى لها مشيرة إلى المقعد الأفضل . ولكن بوجود زوجى هناك لم تتح لى الفرصة كى أرتب الحجرة . وحين دق الجرس ، مضى زوجى بنفسه صوبَ الباب .. لقد تكدرْتُ كثيرًا ، وهززتُ يدىّ ، وتحيرتُ ماذا عساى فاعلة . ثم سمعت صوتًا مرحًا ، ولم أتمالك أن أسترق النظر إلى القاعة ، فرأيتُ شيئًا عجبًا ، إذ أمسك زوجى بيد الضيفة وكان يهزها صعودًا هبوطًا بطريقة من أغرب ما رأيت .. لقد ذهلت !

وفجأة زايلتنى دهشتى وكل أفكارى عن الضيفة حين نَظَرْتُ إلى وجهه. أَوَّاه يا زوجى ! إن وجهك لم يكتس بمثل تلك النظرة من أجلى أنا زوجتك ! لقد بدا كأنه عثر أخيرًا على صديق .

آه يا أختاه ، لو كنتِ هنا لَعَلَّمتِيننى ماذا أعل ! بيد أننى كنت وحيدة ، لا أصدقاء لى . لم يكن بوسعى إلَّا أن أحزن فى أعماقى ، وأتأمل وأفكر وأتعجب فيما ينقصنى لأرضيه .

وحينما كانت الضيفة عندنا طفقتُ أتفحصها بدقة لأرى إنْ كانت جميلة .. كلَّا ، لم تكن جميلة ، ولا حتى لطيفة . كان وجهها كبيرًا أحمرَ ، طلقَ المحيا، وعيناها عطوفتين ، تطل منهما الابتسامات ، على الرغم من

أنهما كانتا مستديرتين لامعتين كالخرز الزجاجى .. كانت ترتدى معطفًا رماديًّا بسيطًا فوق تنورة من الحرير الأسود ، غير محلَّاة بالأزهار . وتنتعل حذاءً كأحذية الرجال . ومع ذلك كان صوتها صافيًا ، وحديثها سريعًا حاضرًا ، وضحكتها دافئة وسريعة. تحدثْتُ كثيرًا مع زوجى ، فجلستُ أستمع مُطَأْطِئَةَ الرأس .. تكلما عن أشياء لم أسمع بها قط . كانت الكلمات الأجنبية تتدفق وهما يتبادلانها جيئة وذهابًا بينهما . لم أفهم شيئًا عدا السرور المرتسم على وجه زوجى .

* * *

فى تلك الليلة لُذْتُ بالصمت حينما جلستُ مع زوجى بعد وجبة الماء . ألحَّتْ عَلَىَ ذاكرتى مرارًا وتكرارًا تلك النظرة على وجهه فى أثناء الزيارة .. أبدًا لم أَرَ من قبل مثل ذلك التعبير الذى يضطرم حماسًا وتلهفًا ! كان ممتلئًا بالكلمات التى يوجهها إليها عندما وقف قبالتها . ظل فى الحجرة طيلة فترة زيارتها كما لو كانت الضيفة رجلًا ..

نهضتُ وسِرْتُ بجانبه .

رفع عينيه من الكتاب وقال متسائلاً :

– نعم ؟

– أخْبِرْنِى عن هذه السيدة التى زارتنا اليوم ؟

انحنى على مقعده إلى الوراء وتطلَّع نحوى متأملًا :

– ماذا عنها ؟ إنها خريجة كلية غربية نسائية كبرى تسمى « فاسار»، وهى ذكية وممتعة ، كما يود المرء أن تكون عليه المرأة . هذا إلى جانب أنها

تُرَبِّى ثلاثةَ صبيةٍ رائعين ، أذكياء ، نظاف ، مُعْتَنًى بهم . إن قلبى يُسعده رؤيتهم .

أوه ، إننى أكرهها ! إننى أكرهها ! أوه ، ماذا عساى أن أفعل ؟ أليس هناك سوى طريق واحد إلى قلبه ؟ إنها لم تكن جميلة على الإطلاق !!

وهمست :

– أوَ تعتقد أنها جميلة ؟

فأجاب فى عنف:

– أجل إننى أجدها كذلك . إنها موفورة الصحة ، حساسة ، معقولة ، وتسير فوق قدمين قويتين متزنتين .

حَمْلَقَ فى الفضاء ، وفَكرتُ يائسةً لبضع دقائق . هناك طريق واحد لا غير للنساء ، فكيف أستطيع ... ما زالت كلمات أمى تطن فى أُذُنَىَّ : « يجب أن تُرضى زوجك » .

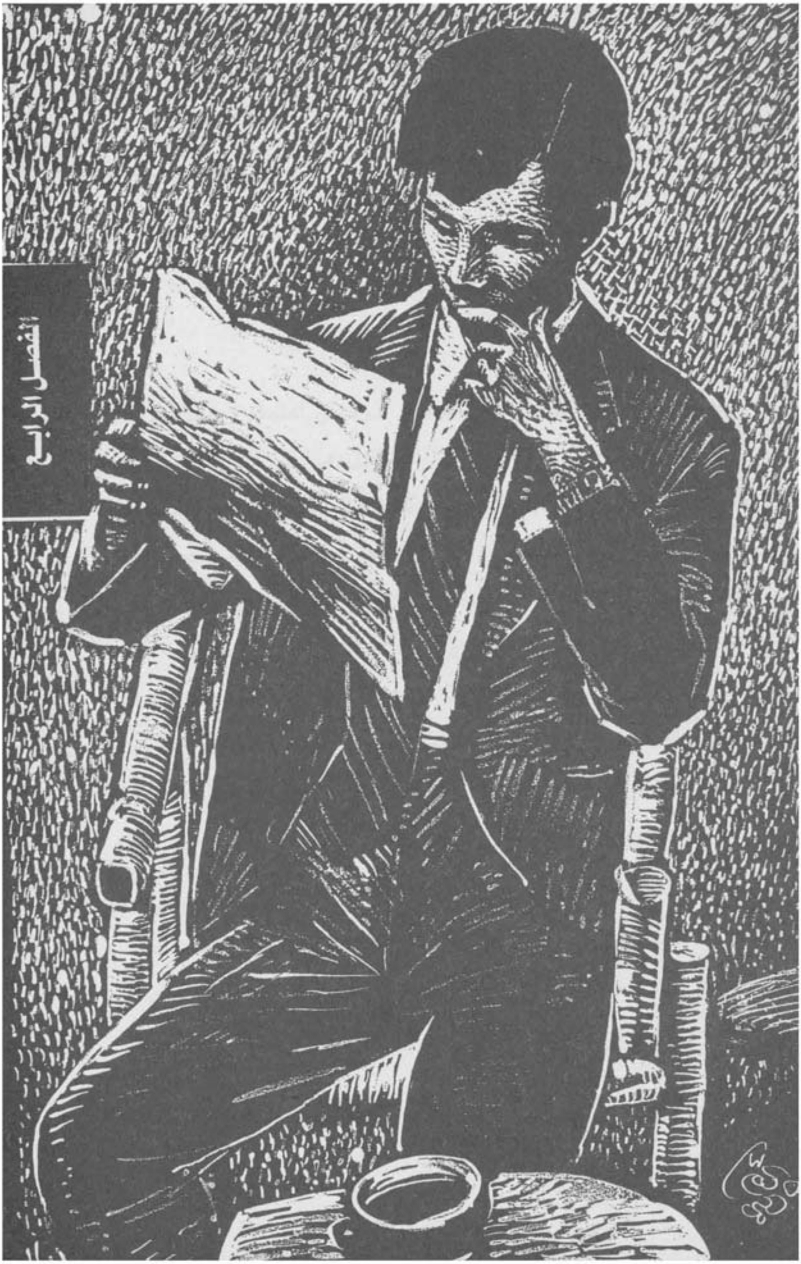
كان زوجى يجلس يتطلع مفكرًا عبر الحجرة ، لم أكن أعرف ماذا يدور فى عقله ، لكننى عرفتُ شيئًا واحدًا .. كنت أرتدى ثوبًا من الساتان بلون الخوخ ، وعلقتُ أقراطًا لؤلؤية فى أُذنىّ ، وبِغَضِّ النظر عن شعرى الناعم الأسود الذى كان يتألق فى لفَّاته المنسَّقة ببراعة ، وعلى الرغم من أننى كنت أقفُ عند كتفه بالقرب منه حتى أن أقل حركة من جسمه كانت كفيلة بجعل يده تلمس يدى .. كل ذلك لم يُجْدِ فتيلاً ، فقد كان لا يفكر فىَّ .

عندئذ أحنيتُ رأسى ، وسلمتُ نفسى إلى يديه مُنْكِرَةً ماضىَّ وقلت :

– هل ستخبرنى كيف سأقوم بحل وثاق قدمىّ ؟

* * *

الفصل الرابع



4

حين أنظر الآن إلى الماضى أُدرك أن اهتمام زوجى بى قد بدأ ذلك المساء . وبدا أننا قبل هذا لم يكن لدينا شىءٌ نتحدث عنه ، ولم تلتق أفكارنا قط . كنت أرقبه فقط بدهشة دون أن أفهم ، ولم يحدث أن نظرَ إلىَّ قط ، وعندما كنا نتحدث كنا كالغرباء الذين يجاملون بعضهم بعضًا ، فأُحادثه فى خجل ، فى حين كان يكلمنى بأدب جَمٍّ دون أن ينتبه إلىَّ ، ولكنه الآن بعد أن أبديتُ حاجتى إليه، بدأ يرانى أخيرًا ، وحين يتكلم كان يسألنى ويحرص على سماع إجابتى ، أمَّا بالنسبة لى فإن حبى نحوه الذى كان يرتجف فى قلبى اسْتَقَرَّ ورسخ ، وتحول إلى هيام وعبادة . لم أكن أحلم قط أن رجلًا يمكن أن يخضع لامرأة بمثل تلك الرقة.

وعندما سألتُه : كيف يمكننى فك رباط قدمىّ ؟ كان من الطبيعى أن أظن أنه سيعطينى تعليمات من معرفته الطبية فحسب ، وهكذا جلستُ مذهولة عندما أحضر طستًا محتويًا على ماء ساخن ، ولفة من الضمادات البيضاء .. أصابنى الخجل .. لم احتمل أن أدعه يرى قدمىَّ .. لم تقع عين

أحد عليهما منذ أن بلغتُ من العمر ما يمكّننى من العناية بهما بنفسى. والآن حين وضع الطست على الأرض وركع ليمسك بقدمىَّ، أحسستُ بجسمى كله يتقد من رأسى إلى قدمىّ.

قلت بصوت ضعيف:

– كلا .. سأفعل ذلك بنفسى.

فعلَّق على ذلك قائلًا:

– لا تقلقى .. تذكَّرى أن طبيب.

ولكننى ظللتُ أرفض. عندئذ تطلع إلى وجهى بثبات، ثم قال برزانة:

– « كواى لان ».. إننى أعرف مدى ما كلفك فعل ذلك من أجلى .. دعينى أعاونك قدر استطاعتى، إننى زوجك.

ودون أن تصدر منى كلمة، استسلمتُ له. فأمسك بقدمى، ونَزع الحذاء والجورب برفق، وحل القماش الداخلى .. بَدَا على وجهه تعبير حزين متجهم.

قال بصوت خافت حنون:

– كم قَاسَيْتِ! يا لها من طفولة تعسة .. وكل ذلك لا طائل من ورائه!

اغرورقت عيناى بالدموع لَدَى سماعى لكلماته. لقد جعل كل التضحيات عديمة الجدوى، وها هو ذا يطالب بتضحية جديدة!

* * *

حين نُقعت قدمىَّ ثم أُعيد ربطهما بغير إحكام أحسستُ بألم لا يُطاق . فعملية حل الأربطة كانت مؤلمة مثل شد وثاق القدمين .. كانت قدماى قد اعتادتا على أن تكونا مشدودتين بقوة ، فانبسطتا قليلًا بالتدريج ، وبدأ الدم يدور فيهما .

كان هناك أوقات بالنهار ألجأ فيها إلى تمزيق الأربطة لتحرير قدمىَّ لإراحتهما ، ثم أعِيد ربطهما بإحكام أكثر ، ولكن تفكيرى فى أن زوجى سيعرف فى الليل كان يدفعنى إلى ربطهما مرة أخرى بيدين مرتعشين . وكانت الراحة الوحيدة البسيطة التى يمكننى أن أحصل عليها ، هى أن أجلس على قدمىَّ وأهتز إلى الخلف والأمام .

لم يعد يهمنى كيف أبدو أمام زوجى ، أو أنظر فى المرآة لأرى ما إذا كنتُ على الأقل نضرة أنيقة .. كانت عيناى فى الليل تنتفخان من البكاء ، وصوتى يخشن من النشيج التنهدات ، التى لم أستطع أن أتحكم فيها .. من الغريب أنَ جمالى لم يُحَرِّكْ فيه ساكنًا، فى حين أن حُزنى وألمى قد تأثر بهما ! كان يواسينى ويعمل على إراحتى كما لو كنت طفلة . وكثيرًا ما تعلقتُ به دون أن أُدرك فى غمرة ألمى مَنْ هو ؟ أو ماذا كان ؟

قال :

– سنحتمل هذا معًا يا « كواى لان » . ما أشدَّ أَنْ أراكِ تُقاسين هكذا ! حاولى أن تفكرى أن ذلك ليس من أجلنا فقط ، بل فى سبيل الآخرين أيضًا .. إنه اعتراض ضد شىء قديم فظيع ، بل مؤذٍ وكريه .

تنهدت قائلة :

– كلا ، إننى أفعلها من أجلك فقط .. حتى أكون امرأة عصرية لك !

ضحك وأشرق وجهه قليلًا كما حدث عندما كان يتحدث مع المرأة الأخرى . كان هذا مكافأة لى لما قاسيته من ألم . لم يَبْدُ أن هناك شيئًا عسيرًا بعد ذلك .

* * *

عجبًا ! حين نما اللحم بطريقة صحية أكثر ، بدأت أحس بحرية جديدة . كنت صغيرةً ، ولم تزل قدماى صحيحتين حتى الآن . وفى حالة النساء الكبيرات كثيرًا ما كانت القدمان المربوطتان تُصابان بالغنغرينا ، وأحيانًا قد تموتان وتسقطان فجأة . غير أن قدمىَّ كانتا فاقدتى الحس فقط . والآن بدأت أسير بحرية ، ولم يعد الصعود والهبوط على السلم صعبًا .. أحسست بمزيد من القوة تسرى فى بدنى . وذات مساء ركضت دون تفكير إلى الحجرة التى يكتب فيها زوجى .. نظرَ إلَىَّ فى دهشة ، وتهلَّلَ وجهه بابتسامة وهتف قائلًا :

– تركضين ؟ آه .. حسناً ! إذًا فقد اجتزنا أسوأ مرحلة ، وولت المرارة؟

نظرتُ إلى قدمىَّ فى ذهول وقلت :

– ولكنهما ليستا كبيرتين كقدمىّ السيدة « ليو » .

فقال :

– كلا .. لا يمكن أن تكونا مثلهما ، لأن قدميها طبيعيتان ، وقدميك هما أكبر ما نستطيع بلوغه الآن .

شعرتُ بشيء من الأسى ، لأن قدميَّ لن تكونا كبيرتين أبدًا مثل قدميها ولكننى فكرتُ فى وسيلة .. لَمَّا كانت كل أحذيتى الصغيرة المطرزة لا خيرَ فيها الآن ، فقد قررت أن أنتعل أحذية جلدية كأحذية السيدة «ليو»، ولذلك ذهبت فى اليوم التالى بصحبة خادمة إلى أحد المتاجر واشتريتُ زوجًا من الأحذية بالطول الذى أريده . كان الحذاء أطولَ من قدميَّ ببوصتين ، ولكننى حشوتُ مقدم الحذاءَ بالقطن . وحين انتعلتُ الحذاءين لم يكن فى مقدور أحد أن يدرك أن قدميَّ كانتا مربوطتين.

كنت أتوق إلى أن ترانى السيدة « ليو » وسألت زوجى : متى يمكننى رد الزيارة لها ؟ فقال :

– سأذهب معكِ غدًا .

فوجئت برغبته فى السير معى فى الطريق ، إذ لا ريب أن ذلك كان عادة مستهجنة ، مما جعلنى ارتبك بعض الشىء ، ولكننى الآن زاد اعتيادى على تصرفاته الغريبة .

ذهبنا فى اليوم التالى ، وقد عاملنى زوجى أمامها بمنتهى الرقة ، ولكنه فى الواقع أربكنى كثيرًا مرة أو مرتين ، وعلى سبيل المثال حين جعلنى أتقدمه إلى الحجرة التى استقبلتنا فيها السيدة « ليو » ، لم أعرف آنذاك ماذا يعنى ؟ وبعد عودتنا إلى البيت فسر لى ذلك الأمر بأنه سلوك غربى .

سألته :

– لماذا ؟ هل لأن الرجال هناك يحسون – كما سمعت – بأنهم أدنى منزلة من النساء ؟

فأجاب :

– كلا .. هذا ليس صحيحًا .

ثم شرح لى ذلك .. إنها عادة راسخة الجذور فى نظام المجاملة الذى أبدى فى العصور القديمة .. أذهلنى ذلك ، إذ لم أكن أعرف أن هناك شعوبًا عريقة غير شعبنا .. أقصد شعبنا المتحضر . لكن يبدو أن الأجانب أيضاً لهم تاريخ وثقافة ، لذا فإنهم ليسوا همجيين تمامًا ، وقد وعدنى زوجى بأن يقرأ لى بعض الكتب عنهم .

شعرت بالسعادة فى تلك الليلة حين ذهبت لفراشى ، إذْ راقَ لى أن أكون عصرية إلى حَدٍّ ما ، فقد انتعلتُ حذاءً جلديًّا فى ذلك اليوم ، وليس هذا فحسب ، بل إننى أيضًا لم أضع طلاءً على وجهى ، ولم أُزَيِّنْ شعرى بالحلىّ . لقد بدوتُ شديدة الشبه بالسيدة « ليو » ، وإنى واثقة أن زوجى قد لَاحَظَ ذلك .

* * *

بدا لى أننى طالما رغبتُ أن أتغيرَّ فقد تدفقت علىَّ حياة جديدة كاملة ، وها هو ذا زوجى قد بدأ يحدثنى فى المساء ، ووجدت حواره معى مثيرًا .. كان يعرف كل شىء . ما أشد غرابة الأشياء التى أخبرنى بها عن البلدان فى الخارج وسكانها ! لقد ضحك حين صِحْتُ :

– أوه مضحك !! أوه عجيب !

فقال وقد عَمَّهُ السرور لسبب ما :

– ليس أغرب مِمَّا نبدو لهم .

فصحتُ مندهشة من جديد :

– ماذا ؟! أَوَ يعتقدو أننا مضحكين ؟

أجاب ، وهو ما زال يضحك :

– طبعًا .. يجب أن تَسْمَعِيهم وهم يتحدثون ! إنهم يعتقدون أن ملابسنا ووجوهنا وطعامنا ، وكل ما نفعله ، يدعو إلى الضحك . إن الأمر بالنسبة لهم أن أناساً بمثل مظهرنا ، ويتصرفون بمسلكنا ، يمكن أن يكونوا كالبشر تمامًا مثلهم .

ذهلت لَدَى سماع ذلك .. كيف يمكنهم اعتبار أن هيئاتهم الغريبة وثيابهم وسلوكهم إنسانيٌّ مثلنا ؟ لقد أجبته بوقار :

– بيد أننا كنا دائمًا نفعل تلك الأشياء ، وهذه عاداتنا ، وذاك مظهرنا ، بشعرنا الأسود وعيوننا ...

– تمامًا ! وهكذا لهم مثل ما لنا !

– ولكننى أعتقد أنهم جاءوا إلى هنا ليتعلموا حضارة بلادنا .. هكذا قالت أمى .

– لقد أخْطَأَتْ ، ففى الواقع أننى أعتقد أنهم جاءوا إلى هنا وفى فكرهم

أن يعَلِّمُونا المدنية .. صحيح أن هناك الكثير الذى يتعلَّمونه منا ، ولكنهم لا يعرفون ذلك أكثر مما تدركين الذى علينا أن نتعلمه منهم .

لاشك أن كل ذلك كان جديدًا وغريبًا وممتعًا وهو يخبرنى به .. لم يدركنى الملل إطلاقًا مما أسمعه عن الأجانب ، وخصوصًا أننى يروق لى أن أستمع إلى أخبار مخترعاتهم العجيبة .. أن يديروا مقبضًا فيتلقوا منه ماءً ساخنًا أو باردًا ، وعن مدفأة بلا وقود يمكن أن يراه المرء ، ومع ذلك يحصلون على الحرارة .. أو ما يسمونه ماءً تلقائيًّا ، وحرارة تأتى من تلقاء نفسها . وكم كنت أدهش من قصصه عن الماكينات التى تمخر عباب البحر، وعن أخرى تطير فى الجو ، وغيرها التى تسير تحت الماء ، وعن كثير مثلها من الأعاجيب !

وسألته بخوف :

– أواثق من أن ذلك ليس سحرًا ؟ إن الكتب القديمة تخبرنا عن معجزات النار والأرض والماء ، ولكنها دائماً ألاعيب سحرية من عالم الجن.

أجاب :

– كلا .. هذا ليس سحرًا بالطبع .. إنها جميعًا بسيطة تمامًا حين تفهمين كيف تُصْنَع .. إنه العلم .

ذلك العلم مرة أخرى ! لقد جعلنى أفكر فى أخى ، فهو من أجل ذلك العلم ما زال فى تلك البلاد الأجنبية ، يتناول طعامهم ، ويشرب مياههم

التى لم يعتدها جسمه بحكم مولده . لقد أصبحتُ مشتاقة لرؤية ذلك العلم ، ومعرفة كيف يبدو .. إننى حين قلت ذلك ضَحِكَ زوجى حتى الثمالة ، وصاح مُداعبًا :

– أية طفلة أنت ؟! إنه ليس شيئًا يمكن حَمْلُه أو لمسه أو تناوله بيديك لفحصه كأنه لعبة .

ولما رأى أننى لم أدرك شيئًا مما قصده ، مضى إلى خزانة الكتب وأحضر بعضًا منها ذات صفحات عليها صور ، وشرع يشرح لى كثيرًا من الأشياء .

وهكذا طفق يعلمنى كل مساء شيئًا يتعلق بهذا العلم . ولا عجب أن أخى أصبح مولعًا به حتى سلب لُبَّه ، فلم يعر رغبات أمه التفاتًا ، ومضَى عبر البحر الهادىء بحثًا عنه . لقد سُحِرْتُ به أيضاً ، وبدأتُ أشعر أن حِكْمَتى أخذت تنمو نموًّا عجيبًا ، حتى أحسستُ أنه يجب أن أخبر أحدًا ، ولم يكن لدىَّ أحد سوى طاهيتنا العجوز ، فسألتها :

– هل تعلمين أن العالمَ مستدير ، وأن أُمَّتَنَا العظيمة ليست فى الوسط ، ولكنها قطعة من الأرض والماء فوق السطح ، بجانب غيرها من البلاد ؟

كانت تغسل الأرز فى البِرْكَة الصغيرة بفناء المطبخ ، فكفت عن هز السلة ، ونظرت إلىَّ بارتياب . وتساءلت فى غير لهف على الاقتناع :

– من يقول هذا ؟

فقلت بحزم :

– سيدنا .. والآن هل تُصَدِّقينني ؟

فأجابت فى شك :

– أوه ، إنه يعلم الكثير .. لكن ما زال فى وسعك أن تعرفى أن العالم ليس مستديرًا بمجرد النظر إليه . انظرى ، إذا تسلقت إلى قمة الباجودا فوق تل النجم الشمالى ، يمكنك أن ترى على بعد ألف ميل جبلًا وحقلًا وبحيرة ونهرًا وجميعها مسطحة كصفائح الفول المجفف ، وفيما خلا الجبال، لا أحد يستطيع أن يقول إنها مستديرة ! أمَّا بالنسبة لبلادنا ، فلابد أن تكون فى الوسط ، وإلا لماذا أطلق عليها حكماؤنا القدماء – الذين يعرفون كل شىء – اسم « المملكة الوسطى » ؟

إننى كنت متشوقة إلى الاستطراد فيما بدأته ، فأكملت قائلة :

– وأكثر من ذلك ، أن الأرض ضخمة ، حتى أننا نحتاج لمسافة بالطول الكلى للقمر لتبلغى الطرف الآخر ، وعندما يعم الظلام هنا فإن الشمس تبعث بضوئها هناك .

صاحت الطاهية صيحة انتصار :

– الآن أعرف أنكِ مخطئة يا سيدتى .. إذا كان الوصول إلى البلاد الأخرى يستغرق من الأيام مدة قمر ، فكيف تفعل الشمس ذلك فى ساعة فى حين تقضى نهارًا بطوله لقطع المسافة القصيرة بين الجبل الأرجوانى والتلال الغربية ؟

وانهمكتْ مرة أخرى فى هز سلة الأرز فى الماء .

ولكننى فى الحقيقة لا أستطيع أن ألومها على جهلها ، لأن أعجب ما سمعتُه من كل الغرائب التى أخبرنى عنها زوجى أن الشعوب الغربية لديهم الأضواء السماوية الثلاثة نفسها التى عندنا : الشمس ، والقمر ، والنجوم .. كنت أعتقد على الدوام أن « بان – كو » الإله الخالق قد صنعها من أجل الصينيين ، ولكن زوجى حكيم .. إنه يعرف كل الأشياء ، ويتحدث فقط عن كل ما هو حقيقى .

* * *

كيف يمكننى يا أختاه أن أصف فى كلمات بداية استحسان زوجى لى ؟ وكيف أعرف بنفسى متى تحرك قلبه ؟

آه ، كيف تعرف الأرض الباردة متى تغرى الشمس قلبها لتتفتح أزهارها فى فترة الربيع ؟ وكيف يشعر البحر بالقمر يجذبه إليه ؟

لا أعرف كيف مرت الأيام ، ولكننى أعرف فقط أننى لم أعد وحيدة ، وحيث يعيش هو أصبح بيتى ، وكففتُ عن التفكير فى بيت أمى .

وفى أثناء ساعات النهار – بعد أن يغادر زوجى البيت – أفكر مليًّا فى كلماته .. أتذكر عينيه ، ووجهه ، ومنحنى شفتيه ، ولمسة يده غير المقصودة ليدى حين يُقلب صفحة الكتاب الموضوع أمامنا على المنضدة . وعندما يهبط الليل وهو يجلس هناك قبالتى ، كنتُ ألقى عليه خلسة نظرة عَجْلَى لأغذى قلبى بنظراته وهو يعلمنى .

كنت أفكر فيه آناء الليل وأطراف النهار كنهر فى الربيع يتدفق بغزارة

فى القنوات الظامئة التى جففها الشتاء ، ومثل النهر يجرى فى الأرض غامرًا كَل شىء بالحياة والخصب ، هكذا كانت أفكار سيدى تأتينى فتملأ وحدتى ، وتسد حاجتى .

من ذا الذى يستطيع أن يفهم هذه القوة فى رجل وفى فتاة ؟ إنما تبدأ بعيون تتلاقى مصادفة ، ثم نظرة خجولة متأنية ، وعلى حين غرة تلتهب متحولة إلى نظرة محدقة متأججة ، ثم لمسة أصابع لا تلبث أن تنسحب بسرعة ، ثم قلب يندفع بعنف إلى قلب .

ولكن كيف لى أن أخبرك ؟ حتى أنتِ يا أختاه ! إنه وقت فرحى الأعظم .. هذه الكلمات التى أقولها الآن هى كلمات وَرْدِيَّة ، ففى اليوم الأخير من القمر الحادى عشر عرفت أنه حينما يجىء وقت حصاد الأرز فى نهاية العام سيولد طفل .

* * *

أخبرتُ زوجى أننى حققتُ واجبى نحوه حين حملتُ منه .. كان فى ذروة السعادة .. أَبْلَغَ والديه أولًا ثم إخوته ، وتلقينا تهانيهم . أَمَّا أبواى فلم يكن ذلك الأمر يقلقهما ، ولكننى عزمتُ على أن أُخبر أمى عندما أزورها فى رأس السنة .

بدأ الآن وقت عصيب بالنسبة لى . فحتى اليوم كنت شخصًا قليل الأهمية فى أسرة زوجى ، فقد كنت فقط زوجة لأحد أبنائهم الصغار ، ولم يكن ثمة مشاركة منى فى حياة الأسرة منذ أن انتقلنا من البيت الكبير ،

وقد ذهبت مرتين فى مواسم معينة لأبدى احترامى لأم زوجى ، والقيام على خدمتها بتقديم الشاى لها ،، إلَّا أنها عاملتنى بإهمال ، ولكنه لم يكن يخلو من الود .. وفجأة أصبحت الآن مثل كاهنة الأقدار ، ففى أحشائى أحمل أمل الأسرة ، ووريثًا لها ، فزوجى كان أحد ستة أبناء لم ينجبوا ذكورًا ، فإذا وضعتُ ابنًا فإنه حينئذ سيصل إلى منزلة شقيق زوجى الأكبر فى العائلة والعشيرة ، وسيصبح وارثًا لضياعها . أوه ، ما أقسى حزن الأم ألَّا يكون ابنها لها إلا فى الأيام القصيرة الأولى ! إذ سرعان ما سيأخذ مكانه فى حياة العائلة العظيمة . إن ابنى سيكون لى لفترة قصيرة ، قصيرة ! أيتها الإلٰهة «كوان – ين » ، احفظى طفلى الصغير !

إن الابتهاج الغامر ساعة تحدثتُ أنا وزوجى عن الطفل لأول مرة سرعان ما انقشع فى غمرة القلق الذى خَيِّمَ علينا ، لقد قلت إن الوقت كان عصيبًا بالنسبة لى ، وذلك لكثرة النصائح التى قالها لى كل مَنْ هَبَّ وَدَبَّ .

وعندما سمعتْ حماتى بفرحى أرسلت تستدعينى إليها . وفى السابق حين كنتُ أزورها ، كنت أُسْتَقْبَلُ فى قاعة الضيوف بشكل رسمى ، ذلك لأنها كانت تعاملنا بشىء من العجرفة منذ أن انتقلنا . أمَّا فى هذه المرة ، فمن الواضح أنها أمرت الخادمة أن تقودنى إلى حجرة الأسرة خلف الفناء الثالث .

هناك وجدتُ حماتى جالسة إلى المنضدة ترتشف الشاى وتنتظرنى ..كانت سيدة عجوزًا ، جليلة ، بالغة البدانة ، بقدمين صغيرتين لا تناسبان وزنها الثقيل ، وإذا سارت حاليًا خطوة واحدة فإنها تنحنى

متكئة بكل ثقلها على جاريتين تقفان على أُهبة الاستعداد خلف مقعدها . كانت يداها صغيرتين ، تغطيهما الخواتم الذهبية ، ولما كانتا سمينتين فقد برزت منهما الأصابع مختنقة ، وكأنها تبرز كرابية من نقرة فى اللحم ، وهى تمسك على الدوام بغليون من الفضة المصقولة اللامعة ، تحرص جواربها على أن يكون مملوءًا بالتبغ ، ويشعلنه بورقة ملتوية تحترق ، وهكذا يكون معدًّا لكى تستعمله للتدخين فى أى لحظة .

توجهتُ إليها على الفور ، وانحنيتُ أمامها . ابتسمت فاختفت شفتاها الضيقتان بين وجنتيها المنتفختين ، ثم تناولتْ يدى وربتت عليها .

قالت :

– أيتها الابنة الطيبة .. أيتها الابنة الطيبة .

كان صوتها أَجَشَّ مبحوحًا منذ أن اختفى عنقها بين طيات من اللحم ، وأُصيبت بالربو .

عرفت أننى أسعدتُها . صببتُ الشاى فى إناء وقدمته إليها بكلتا يدىَّ ، فتناولَتْهُ منى . ثم جَلَسَتْ على مقعد جانبى صغير ، ولكنها أصبحت لا تسمح الآن بمثل هذا التواضع منى ، مع أنها لم تكن من قبل تبالى أين أجلس . أومأَتْ إلَىَّ من خلال ابتسامتها وسعالها أن أجلس على المقعد المقابل لها أمام المائدة ، فامتثلتُ لأمرها .

ثم أرسلت تستدعى زوجات أبنائها الأخريات ، فجئن جميعًا ليهنئننى. وكانت ثلاث منهن لم يحملن على الإطلاق ، على الرغم من أنهن

تزوجن منذ عدة سنوات ، فصرتُ موضعَ حسدٍ مِنْهن ، وخزى لهن ، وإذا بكبراهن ، وكانت امرأةً طويلة ذات وجه أصفر، متوعكة معتلة دائمًا ، شرعت الآن تنتحب ، وارتفع صوتها بالإعوال ، وراحت تهتز وتتطوح وهى تتحسر وتندب حظها .

- يا لها من حياة مريرة ، ومصير مشئوم !

تنهدتْ حماتى وهزت رأسها فى وقار ، وسمحت لزوجة ابنها الكبرى أن تفرج عن نفسها بالبكاء فترةً ، دَخَّنَتْ خلالها حشوتين من طباق الغليون ، ثم أَمَرَتْهَا بأن تسكت ، لأنها تريد التحدث معى . وعلمت مؤخرًا أن الشقيق الأكبر لزوجى قد اتخذ لنفسه حاليًّا زوجة ثانية ، لأن الأولى لم تنجب له أية أطفال ، وكان هذا هو مبعث الحزن المبرح الذى انتاب تلك المخلوقة المسكينة فى ذلك اليوم ، فقد كانت تحب زوجها ، ولأنها عرفت أخيرًا أن صلواتها والأضاحى التى قدمتها للآلهة لم تحظ باهتمامهم .

قدمت لى حماتى نصائح كثيرة حصيفة . ومنها أنها طلبت منى ألا أعد أية ملابس للطفل قبل مولده . وتلك كنت العادة المتبعة وقت أن كانت فتاة فى البيت الكائن فى « آنهواى »، حيث كان الناس يؤمنون أن ذلك سيجعل الآلهة القساة غافلين عن الولادة المنتظرة ، وإلا فإنهم إذا رأوا رجلًا يولد فى هذا العالم سيسعون إلى إهلاكه .

ولكننى لدى سماعى عن تلك العادات سألت :

- إذَنْ ماذا يرتدى طفلٌ صغيرٌ عارٍ حديث الولادة ؟

قالت باهتمام :

– عليك أن تلفيه بملابس أبيه القديمة ، فهذا سيجلب له الحظ ، وقَدْ فعلتُ ذلك مع أبنائى الستة فعاشوا جميعًا .

وراحت زوجات أشقاء زوجى يطلبن منى أن أفعل أشياء كثيرة .. وكانت كل واحدة منهن تزودنى بعادات موطنها فى مثل هذه الأمور . وقد نصحتنى بوجه خاص أن أتناول صنفًا معينًا من الأسماك بعد ولادة الطفل، وأن أشرب من أَوَانٍ محتوية على ماء مذاب فيه سكر أحمر . وهكذا كانت كل واحدة منهن تُنَفِّس عَمَّا يعتمل داخلها من حسد نحوى بإسداء النصح لى .

* * *

عندما عدتُ فى المساء إلى زوجى ، سعيدة بكل هذه الحفاوة من عائلته، أخبرتُه بكل ما طلبنه منى لأقوم به من أجل ابنى . أرعبتنى المفاجأةَ حين ثارَ فى غضبٍ منكر عنيف ، وراح يجذب شعر رأسه بيديه، وهويذرع الحجرة بُخطى واسعة ، وأخذ يصيح :

– هُراء .. هراء .. هراء ! كلها أكاذيب ..كلها خرافات .. أبدًا ، لن يحدث مطلقًا!

توقف وأمسك بكتفىّ ونظر بجد إلى وجهى المضطرب وقال بحزم :

– عدينى بأنكِ ستهتدين كلية بإرشاداتى وتوجيهاتى .. إنى أحذرك .. يجب أن تطيعى ! عدينى يا كواى – لان » وإلَّا أقسمتُ بأننا لن يكون لنا طفل آخر !

ماذا كان بوسعى أن أفعل وأنا مرتعبة غير أن أَعِد ؟

ولما أعطيته كلمتى بعد تردد أصبح أكثر هدوءًا وقال :

– غدًا سآخذكِ إلى بيت غربى ، لِتَرَىْ أُسْرَةَ مدرسى القديم ، وهو أمريكى .. أريدك أن ترى كيف يعنى الغربيون بأطفالهم ، لا لتكونى نسخة مقلدة منهم ، ولكن لتوسيع أفكارك .

حاولتُ أن أطيع زوجى .. شىء واحد فقط فعلته خفية فى تكتم ، ففى اليوم التالى عند بزوغ الفجر تسللتُ من البيت دون أن أصطحب أحدًا سوى خادمتى .. اشتريتُ أعوادَ البخور من المتجر . كان الوقت مبكرًا حتى أنه لم يكن هناك سوى الصبى الذى يتدرب على المهنة ، وكان يتحرك تحركًا بطيئًا يثير الشفقة وهو يتثاءب فى الصباح الضبابى المعتم ، ثم ذهبتُ إلى المعبد ، وأشعلت أعواد البخور ، ووضعتها أمام الإلٰهة الصغيرة السمراء « كوان – ين » التى تهب البنين ، وتيسر عملية الوضع. ضربتُ رأسى على اللوحة الرخامية الموضوعة أمامها . كانت ما تزال مبتلة بندى الليل . تمتمت بما فى قلبى ، ونهضت ، وتطلعتُ إليها متوسلة.. لم تستجب، كانت الجرة ممتلئة بالرماد البارد المتخلف من أعواد البخور التى وضعتها الأمهات الأخريات قبلى ، وارتفعت صلواتهن فى شوق مثلى . دفعتُ أعوادَ البخور فى الرماد بإحكام أكثر وأشعلتها ، وتركتها تحترق أمامها ، ثم عدتُ إلى بيتى .

* * *

أنجز زوجى ما وعد ، فقد اصطحبنى لزيارة بيت أصدقائه الأجانب .. كنتُ فضولية محبة للاستطلاع ، ولكننى كنت خائفة بعض الشىء . وأنا التى تناديك بأختى ! أبتسم الآن حين أتذكر ذلك .

لم يحدث قط أن زرتُ بيتًا أجنبيًّا ، لم تُتَحْ لى الفرصة ، لم أَسِرْ فى الشوارع بالخارج ، ولم يكن فى بيت أمى مَنْ تَصَادَقَ مع الأجانب . لقد رآهم والدى طبعًا فى أسفاره ، ولم يعرهم أى أهمية سوى أنهم يثيرون ضحكه بنظراتهم الخشنة ، ومسلكهم البدائى الفظّ . ومن الغريب أن أخى وحده كان شديد الإعجاب بهم ، فقد رآهم فى « بكين » ، وكان فى مدرسته بعض الأجانب الذين كانوا يُدرِّسُون له . وذات مرة سمعتهم يقولون قبل زواجى : إنه زارَ بيت أحد الأجانب ، وقد أعجبت بجرأته هذه كثيرًا .

غير أنه فى بيت أمى لم تحدث مثل تلك الاتصالات . وفى بعض الأحيان كانت إحدى الخادمات تذهب لتتسوق ثم تعود إلى البيت وتقول مهتاجة إنها رأت أجنبيًّا يسير فى الطريق ، وحينئذ يدور حديث بتعجب عن جلودهم الشاحبة ، وعيونهم الباهتة . وكنت أستمع دائمًا بنفس الفضول والخوف اللذين ينتابانى عندما تحدثنى « وانج دا ما » عن الأشباح والشياطين فى العصور القديمة . ومن العجيب أن الخدم كانوا يتهامسون عن السحر الأسود عند هؤلاء الأجانب ، وقدرتهم على سلب الروح من أحد الأشخاص بآلة صغيرة فى صندوق أسود كانوا يحدقون فيه بعين واحدة . فإذا ما طقطق شىء داخل الصندوق أحس المرء بضعيف غريب

فى صدره ، وسرعان ما ينتابه مرض ، أو يصيبه حادث يؤدى إلى موته .

ضحك زوجى بشدة عندما أخبرته بكل هذه الأشياء وسألنى :

– إذًا كيف تَسَنَّى لى أن أعود حيًّا بعد اثنتى عشرة سنة قضيتها فى بلادهم ؟

فأجبتُ :

– آه !! إنك حكيم .. لقد تعلمت سحرهم .

عندئذ قال :

– تَعَالَىْ وانظرى بنفسك ماذا يبدون ؟ إنهم رجال ونساء مثل الآخرين.

وهكذا ذهبنا فى ذلك اليوم نفسه ، ودخلنا إلى حديقة ذات بساط سندسى من الكلأ الأخضر ، وترتفع فيها الأشجار ، وتمتلىء بالأزهار .. أدهشنى أنها كانت حديقة غَنَّاء ، وأن الغربيين يفهمون قيمة الطبيعة . كان التنسيق الكلى فَجًّا ، فلم يكن هناك أفنية أو بِرَك للسمك الذهبى ، والأشجار زُرعت بطريقة عشوائية ، والأزهار تركت لتنمو كيفما اتفق بغير نظام .. يجب أن أعترف أننا حين وقفنا أخيرًا أمام باب البيت وددتُ أن أهرب لولا أن وجى كان هناك معى .

فُتح الباب فجأة من الداخل ، ووقف هناك كائن طويل « شيطان أجنبى » يبتسم ابتسامة عريضة عبر وجهه الضخم . لقد عرفتُ أنه رجل، لأنه كان يرتدى ثياباً تماثل ما يلبسه زوجى ، لكن أرعبنى أن

رأسه بدلا من أن يكون مغطىً بشعر بشرى أسود ناعم – شأن غيره من الناس – كان مغطىً بوبر أحمر مجعد ! كانت عيناه كقطعتين من البَلُّور الصخرى غسلها البحر ، وأنفه بارزًا كجبل وسط وجهه .. أوه ، كان مخلوقًا بغيضًا مرعبًا ، لا تُحْتَمل رؤيته ، كان أكثر بشاعة من إلٰه الشمال فى مدخل المعبد .

زوجى شجاع ، لم يُبْدِ أىَّ انزعاج لمرأى هذا الرجل ، فقد قَدَّمَ يده فأمسك بها الرجل الأجنبى وهزها صعودًا وهبوطًا . لم يُفاجَأ زوجى بذلك، واستدار نحوى وقدَّمنى إليه . ابتسم الأجنبى ابتسامته الواسعة ، وبدا كما لو كان يبتغى الإمساك بيدى أيضًا . ولكننى تطلعتُ ليده الممدودة، كانت كبيرة ، ناتئة العظام ، فوقها شعر طويل أحمر وبقع سوداء . نفرتُ منه وانكمشتُ ذعرًا ، ولم أستطع أن ألمس يده . وضعتُ يدىَّ فى أكمامى ، وانحنيت . ابتسم ابتسامة أكثر اتساعًا ، ثم دعانا للدخول .

ولجنا إلى قاعة صغيرة تُماثل قاعتنا ، ثم إلى إحدى الحجرات . كان هناك شخص يجلس بجانب النافذة ، أدركت على الفور أنها سيدة أجنبية، فهى على الأقل ترتدى ثوبًا طويلًا من القطن بدلًا من البنطلونات ، وتتمنطق بحزام عريض يشد وسطها . لم يكن شعرها قبيحًا كشعر زوجها ، فقد كان ناعمًا مسترسلًا ، وإن كان بلون أصفر غير ملائم . ولها أنف شديد الارتفاع أيضًا ، إلَّا أنه لم يكن مُقَوَّسًا كأنف زوجها ،

وكانت يداها كبيرتين ، بأظفار قصيرة مربعة . نظرتُ إلى قدميها فرأيت أنهما بحجم مضرب الأرز .. لقد فكرت فى نفسى قائلة :

– بوالدين كهذين كيف تكون الشياطين الأجنبية الصغيرة ؟

وعلى أية حال ، يجب أن أقول إن هؤلاء الأجانب كانوا مهذبين ، كما يعرفون كيف يكونون كذلك . لقد ارتكبوا أخطاءً وَشَتْ بافتقارهم إلى التربية ، فقد قدموا « سُلطانيات » الشاى بيد واحدة ، وناولوه لى قبل زوجى . وفى الحقيقة كان الرجل يخاطبنى وهو يتطلع إلى وجهى ! وقد شعرت بأن ذلك إهانة. وكان من الكياسة أن يتجاهل حضورى ، تاركاً لزوجته استضافتى وإكرام وفادتى .

إننى أظن أن المرء لا يستطيع أن يلومهم ، مع أنهم مكثوا هنا اثنى عشر عامًا كما أخبرنى زوجى . وقد يعتقد المرء أنه كان الأحرى بهم أن يتعلموا بعض الأشياء خلال تلك الفترة . أنتِ طبعًا يا أختاه قد عشتِ هنا دائمًا ، وأصبحتِ الآن واحدةً منا .

إن أهم شىء فى الزيارة حَدَثَ عندما طلب زوجى من المرأة الأجنبية أن تَدَعنى أَرَى أطفالها ومِلابسهم . وشرح ذلك قائلاً : إننا نتوقع قدومَ طفلٍ لنا ، ولذلك فإنه يريدنى أن أَرَى أساليب الغرب فى هذا المجال .. فنهضتْ على الفور ، وسألتنى أن أرتقى السلم .. خشيتُ أن أذهب معها بمفردى ، وتطلعتُ إلى زوجى مستنجدة ، ولكنه أومأ برأسه لى فقط كى أمضى معها . لكننى نسيتُ الخوفَ حين أصبحت فى الطابق العلوى ..

اصطحبتنى إلى غرفة ينتشر فيها ضوء الشمس ، وينبعث فيها الدفء كما - بدا ذلك واضحاً - تركوا نافذة مفتوحة جزئيًّا كى يدخل منها هواء بارد باستمرار ، غير أننى رأيت فى أول الأمر مافتننى بشدة .. ثلاثة صغار أجانب يلعبون على الأرض .. لم يسبق لى قط أن شاهدتُ مثل هذه المخلوقات الصغيرة الغريبة !

كانوا يبدون أصِحَّاء وبدينين ، ولكنهم كانوا جميعًا من ذوى الشعر الأبيض ، وقد أكد لى هذا ما سبق أن سمعته من أن الأجانب على عكس طبيعتنا ، إذ يُولَدون بشعور بيضاء كالثلج ثم تسودُّ كلما تقدم بهم العمر .. كانت بشرتهم ناصعة البياض ، ظننتُ أنهم يغسلونها بنوع من المياه الطبية إلى أَنْ أَرَتْنِى الأم غرفة يغتسلون فيها جميعًا يوميًّا غسلًا كاملًا ، وقد وجدتُ فى ذلك تفسيرًا لبياض بشرتهم .. إن الألوان الطبيعية الخفيفة تبهت من جراء كثرة الاغتسال .

أَرَتْنِى الأم ثيابهم أيضًا ، كانت كل ملابسهم الداخلية بيضاء ، وكان أصغر الأطفال يتدثَّر برداء أبيض من رأسه إلى قدمه. سألتُ الأُمَّ عَمَّا إذا كان الطفل يرتدى ثوب الحداد على بعض أقاربه - لأن اللون الأبيض يدل على الحزن - ولكنها أجابت بأن الأمر ليس كذلك ، ولكن فقط لكى يظل الطفل نظيفًا كنتُ أظن أن اللون القاتم أفضل ، لأن الأبيض يتسخ بسهولة ، ولكننى لاحظتُ كل شيء بدون أن أتفوّه بكلمة .

ثم رأيتُ أَسِرَّتِهُم .. كانت كلها أيضًا مغطاة بالملاءات البيضاء ، وكان

ذلك مَدْعَاةً للحزن والاكتئاب ، ولم أستطع أن أفهم لماذا كل تلك المغالاة فى اللون الأبيض ؟ إنه لون الحداد والموت ، ومن المؤكد أن الطفل يجب أن يرتدى الألوان السَّارَّة البهجية ، كاللون القرمزى ، والأصفر ، والأزرق الملكى ، وهو لون أزرق ضارب إلى الأرجوانى ! نحن نُدَثِّرُ أطفالنا باللون القرمزى من الرأس إلى القدم فرحًا بمقدمهم إلينا ، أما هؤلاء الأجانب فلا شىء من تصرفاتهم ينسجم مع الطبيعة .

وقد اكتشفتُ أحد الأشياء العجيبة ، فالمرأة الأجنبية ترضع طفلها من ثديها ! لم يحدث أن فكرتُ فى إرضاع صغيرى ، فليس من المعتاد بين النساء من ذوات الثراء أو المكانة أن يفعلن ذلك طالما أن هناك وفرة من الجوارى للقيام بهذه المهمة .

وعقب عودتنا إلى البيت أخبرتُ زوجى بكل شىء . وأخيرًا قلتُ :

– إنها ترضع طفلها بنفسها ، فهل هم فقراء إلى ذلك الحد ؟

قال زوجى :

– إن إرضاع الأم لطفلها أَمْرٌ حَسَن ، وسترضعين طفلك بنفسك .

قلت فى دهشة :

– ماذا ؟ أنا ؟

أجاب بهدوءٍ ووقار :

– طبعًا .

قلت معترضة :

– ولكن سيترتب على ذلك أننى لن أُنجب طفلًا آخر قبل عامين .

رَدَّ زوجى على قولى :

– ذاك ما يجب أن يكون ، ولو أن السبب الذى ذَكَرْتِهِ مجرد هُراءْ .

ربما كان مصيبًا فى هذا أيضًا ، وعلى أية حال أننى أُدرك أنه من المحتم أن يموت بضعة أطفال فى كل أسرة ، وبعضهم من البنات ، فلن يمتلىء بيتى بالأبناء كما كنت آمل ذلك . أتتعجبين يا أختاه إذا قلتُ إننى لم أعد أجد زوجى غريبًا ؟

* * *

ذهبتُ فى اليوم التالى لرؤية السيدة « ليو » لأخبرها عن زيارتى . آه ، ليت الإلٰهة تمنحنى ابنًا مثل أطفالها ، منتصبَ القامة ، ومتورد الوجنات ، وذا عينين لامعتين .. كانت وجوههم جميلة ، وجلودهم ذهبية ومنظرهم رائعًا بملابسهم الحمراء المزركشة بالزهور .

قلت لها وأنا أرقب الأطفال بلهف :

– لقد احتفظتِ بعاداتنا القديمة .

علقت قائلة :

– نعم .. ولا .. انظرى !

وجذبت الطفل الأكبر نحوها ..

– انظرى .. ملابسه الداخلية كلها بيضاء .. إنها كبطانة يمكن نزعها وغسلها . تعلَّمِى قدر ما يمكنك من الأجانب الشىء الجيد ، واطرحى جانبًا ما لا يناسبك .

ذهبتُ من بيتها إلى متجر الملابس ، اشتريتُ حريرًا أحمرَ وقرنفليًّا مزركشًا بالورود من أنْعَم الأصناف ، وقطيفة سوداء لسترة صغيرة بلا أكمام ، وقماشًا من الساتان لقلنسوة .. كان الاختيار صعبًا ، إذْ أننى عزمت على ألَّا أشترى شيئًا لابنى إلَّا من أجود الأنواع .. أمرتُ صاحب المتجر أن يسحب إلى أسفل مزيدًا أو مزيدًا من الحرير الذى طواه بعيدًا فى أغلفة من الورق الداكن ، ووضعها على أرفف فبلغت السقف .. كان البائعُ عجوزًا ، لاهثَ الأنفاس ، وراح يدمدم متذمرًا حين صحتُ :

– أَرِنى مزيدًا .. قطعةً من الحرير مطرزًا عليها أزهار الخوخ !

سمعته يغمغم مرددًا شيئًا عن خيلاء النساء وزهوهن ، فقلت :

– إنها ليست لى ، بل لابنى .

عندئذ ابتسم ابتسامة ملتوية ، وأحضر لى أجمل القطع جميعًا ، قطعةً كان يحتبسها وظل محتفظًا بها حتى الآن ، وقال :

– خذيها ، لقد كنتُ أحتفظُ بها لزوجة الحاكم ، ولكن إذا كانت لابنك فخذيها .. إنها برغم كل شىء ليست سوى امرأة .

كانت هى القطعة التى أبحث عنها ، فبين أكوام القطع الحريرية الزاهية التى انتثرت فوق الطاولة الطويلة ، كانت هذه تتألق بلون وردى

بهيج .. اشتريتُها بدون مساومة ، على الرغم من أننى أعرف أن الرجل العجوز الماكر قد غَالَى فى الثمن حين رَأَى مَدى تَلَهُّفى . حملْتُها على ذراعى إلى البيت ، وقلت لنفسى : « الليلة سأصنع منها سترة صغيرة وسروالًا ، سأعمل كل شىء وحدى ، فأنا أغار من لمس الآخرين لطفلى الذى أوشك على المجىء».

أوه ، لقد كنت سعيدة ، أننى تمكنتُ من السهر خلال الليل لأَحِيكَ ملابس ابنى ، وقد صنعتُ له خُفَّيْنِ لكل واحدٍ منهما وجه نَمِرٍ ، واشتريتُ له سلسلة من الفضة لتكون مصدر سرور وابتهاج له .

الفصل الخامس



5

أهذه أنتِ ؟ لدىَّ أخبار عظيمة ! فاليوم وثب ابنى نحو قلبى! وبدا لى كأنه تكلم .

لقد أعددتُ ثيابه الصغيرة ، وأصبحتْ كلها جاهزة ، حتى الصور الذهبية الدقيقة التى تمثل « بوذا » قد طُرزت على قلنسوته الساتانية، وعندما تم إنجاز كل ذلك بشكل بلغ حد الكمال اشتريتُ صندوقًا كبيرًا متينًا من خشب الصندل لحفظ النفائس ، وأودعتُ فيه الملابس حتى تتضمخ بعطر ذكى من أجل ابنى .. والآن لم يعد لدىَّ أن أنتظر ثلاثة أشهر قمرية ، ثم جلستُ أحلم كيف سيبدو ابنى .

يا أيتها الإلٰهة الصغيرة الداكنة البشرة ! عَجِّلى بالأيام المجنحة ، أتوسلُ إليكِ ، حتى يصيح طفلى الذهبى بين ذراعَىّ !

سيكون لى ليوم واحد على الأقل ، ولن أفكر فى غير ذلك ، فقد بعث والدا زوجى رسالة لنا يخبرانا فيها بأن الطفل يجب أن يعود إلى بيت أسلافه،

إنه الحفيد الوحيد ، وحياته أثمن من أن يقضى ليله ونهاره بعيدًا عن أعين جِدَّيْه . لقد بدءوا يفكرون فيه بإعزاز . وها هو ذا والد زوجى الذى لم يسبق أن حَدَّثَنِى بكلمة واحدة ، أرسل لى يستدعينى فى اليوم التالى، وتحدَّثَ معى ، واستطعتُ أن أرى أن عقله الذى بلغ مرحلة الشيخوخة قد صَوَّرَ له الطفل كما لو كان قد وُلد الآن .

أوه ، إننى أتوق إلى الاحتفاظ به لدينا ! لقد روضتُ نفسى على البيت الأجنبى الصغير وحالاته الغريبة ، إذا استطعنا أن نستبقى ابننا هنا ونعيش فيه ثلاثتنا ، ولكننى أعرف التقاليد المميزة لشعبنا ، فليس من المفروض أن أحتفظ لنفسى بابنى البكر ، فهو ينتمى إلى الأسرة كلها .

إن زوجى غير سعيد بذلك ، إنه عابِسٌ ، متجهم الوجه ، ويدمدم بأن الطفل ستدمره الجوارى الحمقاوات التافهات ، والمبالغة فى تغذيته ، والترف المؤذى ، وها هو ذا يذرع الأرض جيئةً وذهابًا ، وأحزنه ذات مرة أن الطفل سيولد .. ارتعبتُ حينئذ لئلا تغضب الآلهة من جحوده ، ورجوته أن يصمت .

قلت له وقلبى يتوق للاحتفاظ بطفلى :

– يجب أن نتحمل العادات الصحيحة .

غير أنه أصبح الآن هادئًا رزينًا مرة أخرى ، لم يتحدث بشىء عن والديه . وتعجبتُ عَمَّا يدور فى عقله من قرار حتى أنه لا يريد الإفصاح عنه! أما بالنسبة لى فلم أعد أفكر الآن فى غير ذلك اليوم الذى سيكون فيه

الشىء الثمين هنا لى ، تستمتع بـه عينـاى أيَّـما استمتـاع .

* * *

إننى أعرف الآن ماذا فعل زوجى .. فهل تعتقدين أنه خطأ يا أختاه ؟

أوه ، إننى شخصياً لا أعرف .. يمكننى أن أثق أنه عين الصواب لأنه هو الذى فعل ذلك ؟ لقد أخبر والديه أنه كما طالب بأن يستقل بزوجته ليعيشا معًا وحدهما ، فهو الآن يبتغى أن ابنه سينتمى إلى والديه فقط ، وأنه سيعيش فى كنفهما !

غضب والده ، ولكننا احتملنا غضبهما بدون أن نجيب بشىء ، لكن زوجى قال أخيرًا إن أباه العجوز يئس من حُججه ، وانخرط فى بكاء صامت . وحين سمعتُ بذلك بَدَا لى مثيرًا للشفقة أن يجعل ابنٌ أباه يبكى ! ولو أن الأمر كان شيئًا آخر غير ابنى لضعف قلبى فى صدرى ، لكنَّ زوجى أشجع منى ، إذْ صمد متغلبًا أمام شفقته نحو والده الذى انهمرت منه الدموع .

آه !! عندما مضينا خارج بيت أبيه ، عاتبتُه على تحطيمه للعادات العريقة من ماضينا ، ولكننى الآن ويالى من امرأة أنانية لم أعد أُبالى بأن التقاليد قد تحطمت .. إننى أفكر فقط فى ابنى ، سيكون لى فقط .. لى وحدى ! لا حاجة بى لأن يُشاركنىَ فيه عشرون آخرون .. جدوده وعَمَّاتُه . إننى أمه ، علىَّ أن أعنى به ، وأغسله ، وأدثره بالملابس ، وأبقيه بجانبى ليل نهار .

الآن وقد عَوَّضنى زوجى خيرًا عن كل شىء ، أشكر الآلهة ، لأننى تزوجت رجلًا عصريًّا ، لقد وهَبَ لى ابنى ليكون لى شخصيًّا . إن حياتى كلها لا تكفى لردِّ جميله .

أرقب يوميًّا الأرز يصفرُّ فى الحقول . لقد امتلأت السنابل الآن وتدلت. وما هى إلا فترة قصيرة تحت أشعة هذه الشمس حتى تتفجر ناضجة وتصبح صالحة للحصاد . إنها سِنَةٌ طيبة ، تلك التى وُلد فيها ابنى ، سَنَة حافلة بالخصب ، كما يقول الزَّارعون .

كم بقى لى من أيام الانتظار الحالمة ؟

لقد كففتُ عن التفكير فيما إذا كان زوجى يحبنى ، فعندما أَلِدُ له ابنه سيعرف ما فى قلبى ، وأنا سأعرف ما يضمه قلبه .

* * *

آهٍ .. يا أختاه ! إنه هنا .. ابنى هنا ! إنه يرقد على منحنى ذراعى أخيرًا ، وشعره أسودُ مثل الأبنوس !

انظرى إليه !! ليس من الممكن أن يكون مثل هذا الجمال قد خُلِقَ من قبل ! إنَّ ذراعيه بدينتان ، بهما ما يشبه الغَمَّازات ، وساقيه قويتان كأشجار البلوط الصغيرة .. إننى تفحصت كل جسده من فرط حبى له ، فبدا صحيحًا سليمًا جميلًا ، كأنه ابن إلٰه .

آه ، يا للخبيث ! إنه يرفض ويصرخ ناشدًا ثديى .. لقد رضع منذ ساعة فقط ! إن صوته قوى مفعم بالحيوية ، ويطلب كل شىء .

أوه .. كانت ساعة عسيرة يا أختاه ! رَاقَبَنِى زوجى بعنين يطل منهما حُب وقلق وتلهُّف .. خطوتُ أمام النافذة وأنَا نَهْبُ الفرح والألم المبرح .. كانوا يقطعون النباتات المنتجة للحبوب التى نضجت ، ويضعونها حزمًا فوق الأرض .. سَنَة خصبة .. وحياة ثرية !

كنتُ ألهث من الألم الموجع، ولم ألبث أن تهللتُ جذلة حين عرفتُ أننى فى أوج أنوثتى .. وهكذا ولدتُ ابنى الأول ! كان قويًّا ! كيف دفع بوابات الحياة ليخرج إلى الدنيا ؟ وبأية صيحة رائعة جاء بها قُدُمًا ! خشيت أن أموت من نفاذ صبره وتلهُّفه ، ثم أحاطتنى قوته بهالة من المجد .. طفل .. الرجل الذهبى !

الآن قد ازدهرت حياتى .. هل سأخبركِ بكل شىء لتعرفى كيف اكتمل فرحى ؟ لماذا لا أفضى لكِ بذلك يا أختاه ، يا من رأيتِ قلبى عاريًا بكل صراحة ووضوح ؟ لقد حدث الأمر هكذا : رقدتُ على فراشى ضعيفة ، ولكن بانتصار ، كان ابنى إلى جانبى ، دخل زوجى الحجرة ، اقترب من حافة الفراش فاتحًا ذراعيه ، وثَبَ قلبى . لقد أراد أن أُقَدِّمَ له ابنى طِبْقًا للعادة القديمة .

أخذتُ ابنى ووضعته بين ذراعى أبيه ، وقدمتُه بهذه الكلمات :

– سيدى العزيز ، شَاهِدْ أولَ ابنٍ لكَ . احملْه . زوجتك تعطيك إياه .

حملقَ فى عينىَّ .. أُصِبْتُ بدوارٍ أمام توهُّج نظراته . انحنى بالقرب منى، وتحدث قائلًا :

– إننى أُعيده إليكِ .. إنه ابننا .

كان صوته خافتًا ، وتساقطت كلماته خلال الهواء كقطرات من فضة:

– إننى أُشاركُكِ فيه . أنا زوجك الذى يحبك !

أَوَ تبكين يا أختاه ؟ آه ، نعم ، أنا أعرف .. وأنا بكيتُ أيضاً ! وإلَّا هل فى وسعنا طريقة أخرى .. كيف نستطيع أن نتحمل مثل هذا الفرح ؟ انظرى إلى ابنى ! إنه يضحك !

* * *

أوه يا أختاه ! لقد اعتقدتُ منذ أن أصبح ابنى هنا ، أنه لن يكون لدىَّ سوى كلمات الفرح أتحدث بها إليكِ .. كنت منتصرة وواثقة أنه ما من شىء يمكن أن يدنو منى ليثير أحزانى مرة أخرى ، إذْ طالما أن هناك وشائج الدم فكيف يمكن أن يتأتَّى الألم منها ؟

اليوم لا يكاد قلبى يتحمل خفقاته ، لا .. لا .. إن الأمر لا يتعلق بابنى! إن له تسعة أشهر من الحياة الآن ، ويبدو مثل « بوذا » فى بدانته . إذا أراد أحد أن يُجلسه .. فى الواقع لم تعد ذراعاى قويان تمامًا على ثنيه . إن أفكاره مملوءة بالإزعاج اللطيف ، وعيناه ترقصان إشراقًا . يقول والده إنه قد أفْسِدَ لكننى أسألكِ : كيف يمكننى أن أُعَنِّفَ مثله ، وهو الذى يصهرنى بعناده وجماله ، حتى أننى أمتلىء دموعًا وضحكًا ؟

آه .. إنَّ السبب ليس ابنى ! كلا .. إنه شقيقى ، إننى أتحدث عنه ، وهو الابن الوحيد لأمى الذى كان فى هذه الأعوام الثلاثة هناك فى أمريكا ، إنه هو الذى جعل الدم يتدفق فى قلب أُمِّى ، ومن قلبى هكذا .

تذكرين أننى حدثتُكِ عنه .. كيف أحببتُه فى طفولتى ؟ غير أننى لم أَرَهُ طوالَ تلك السنين العديدة ، ولم أعد أسمع عنه سوى أقل القليل ، لأن والدتى لم تنس قط أنه ترك بيتها ضد رغبتها ، وأنه رفض أن يتزوج خطيبته حين أمرته بذلك . إن اسمه لا يتردد بسهولة على شفتيها .

وها هو ذا الآن يعكر صَفْوَ حياتها مرة أخرى ، لم يقنع بأنه عَصَى أُمه عصيانًا خطيرًا فى الماضى .. انظرى الآن هنا إلى رسالته ! لقد جاءتنى بها أمس « وانج دا ما » مربيتنا العجوز ، التى أرضعت كلينا من ثدييها حين وُلِدْنَا ، والتى عرفت كل شأن من أمور أُسرة والدتى .

عندما دخلتْ أحنتْ رأْسَهـا حتى لامسَ الأرضَ أمام ابنى وحين قَدَّمَتْ هذه الرسالة بكتْ وهى تتأوَّه صارخة : « آى .. آى .. آى ..» .

ولمَّا كنتُ أعرفُ أنه ما من شىء يجعلها تفعل ذلك سوى كارثة ، أحسستُ أن حياتى تتوقف فى صدرى للحظات ، وصحت :

– أُمِّى .. أمى !

تذكرتُ كيف كانت منحنية بضعف ووهن وهى تتكىء على عصاها عندما رأيتها آخر مرة ، أنَّبْتُ نفسى فى داخلى لأننى لم أذهب إليها سوى مرتين منذ مَوْلد طفلى .. شغلنى عنها عمق استغراقى فى سعادتى !

أجابت « وانج دا ما » وهى تتنهد بشدة :

– إنها ليست أُمك يَا بُنَيَّة أشرف السيدات .. لقد أَمَدَّت الآلهةُ فى حياتها لترى هذه المحنة .

سألتها وقد تحول رعبى بسرعة إلى قلقٍ ولهف :

– أيكون أبى ؟!

أجابت وهى تنحنى :

– وحتى ذلك النبيل لم يشرب بعد من الينابيع الصفراء .

فسألت وأنا أَرَى الرسالة التى وضعتها فوق ركبتى :

– إذن ... ؟

فأشارت إليها قائلة :

– لتقرأ الأم الشابة للطفل الأمير تلك الرسالة . وألمحتْ أنَّ الأمر مُدَوَّن فيها .

وهنا طلبتُ من الخادمة أن تصب لها الشاى فى الحجرة الخارجية . وناولتُ ابنى للخادمة الملازمة له ، ثم نظرتُ إلى الرسالة .. كان اسمى مكتوبًا عليها ، وكذلك اسم المرسِلَة .. أمى ؟ ! انتابنى العجب ، إذْ لم يسبق قط أنْ أرسلتْ خطابًا لى .

وبعد أن دهشت لفترة قصيرة ، فتحت المظروف الصغير ، وسحبت الورقة الرقيقة من داخله ، وفيها رأيت سُطُورَ أُمى الرقيقة المدروسة المتروية التى دَوَّنَتْهَا بفرشاة كتابتها . مررتُ بسرعة على جُمَل الافتتاح الشكلية ، ثم وقعتْ عيناى على هذه الكلمات التى كانت لُبَّ الرسالة :

« إنَّ أخَاكِ الذى كان فى البلدان الأجنبية تلك الشهور العديدة ، كتب لى الآن أنه ينوى الزواج من فتاة أجنبية » .

وأنهت ذلك بالجمل الختامية التقليدية ، وهذا كل شىء .. ولكن أوه يا أختاه .. لقد شعرتُ بقلب أمى ينزف من خلال كلماتها المقتصدة ! فصحتُ عاليًا :

– أيها الأخ القاسى المخبول . أيها الابن الشرير العاق !

وظللتُ أصيح حتى أدركتنى الخادمات اللاتى هرولن ناحيتى لتهدئتى، وهن يتوسلن إلىّ كى أتذكر أن الغضب يُسَمِّمُ لبنى الذى يرضعه طفلى . ولما رأين أننى وقعتُ فريسة لفيضٍ من الدموع التى لم أستطع أن أكبحها ، جلسن على الأرض وارتفعت أصواتهن بالإعوال معى، حتى ينزحن غضبى . وحين بكيتُ حتى هدأت ، وأزعجنى ضجيجهن ، أَمَرْتُهن أن يَلُذنَ بالصمت ، وأرسلت أستدعى « وانج دا ما»، وقلت لها :

– انتظرى ساعة أخرى حتى يعود والد طفلى إلى البيت فأفتح الخطاب أمامه ، وأعرف ما يأمرنى به كى أفعله ، وسأستأذن فى الذهاب إلى أمى .. وفى غضون ذلك تناولى أرزًا ولحمًا حتى تنتعشى .

وافقتْ عن طيب خاطر ، وأصدرتُ أوامرى بأن تُوضَع أمامها قطعة إضافية من اللحم ، وأحسست بالراحة فى الترفيه عنها لمشاركتها الأسرة فى نكبتها .

* * *

حين جلستُ فى حجرتى منتظرة عودة زوجى استغرقتُ فى التأمل

والتفكير وحدى ، تذكرت أخى، ولما قفز إلى ذهنى كما أعهده لم أستطع أن أراه كما هو الآن ، فقد نما إلى ذهنى رجل يرتدى ثيابًا أمريكية ، يسير بلا خوف فى الطرق الغريبة لتلك الدولة النائية ، وربما يتحدث إلى رجالها ونسائها ، ليس هذا فحسب ، بل لا شك أنه يتحدث طالما يحب امرأة .

يمكننى أن أتصوره داخل عقلى كما عرفته جيدًا ، أَخًا لطُفولتى ، يكبرنى قليلًا ، والذى كنت ألعب معه عند عتبات بوابات الأفنية .

كان أطولَ منى بمقدار طول الرأس ، سريعَ الحركة ، يتحدث بابتهاجٍ، ويبدو متحمسًا عقب الضحك .. له وجه بيضاوى شبيه بوجه والدتنا ، وشفتاه رقيقتان ناعمتان ، وحاجباه مُحَدَّدَان بوضوح فوق عينيه الثاقبتين . وكان موضع حسد المحظيات الكبيرات ، لأنه يفوق أبناءهن جمالًا .. وفى النهاية كيف يكون مختلفًا عن ذلك ؟ إنهن لسن أكثر من نساء عاديات ، كُنَّ من الجوارى فى شبابهن ، شفاههن ممتلئة خشنة ، وحواجبهن متناثرة مبعثرة مثل شعر الكلاب ، أمَّا والدتنا فقد كانت سيدة سليلة مائة جيل عريق .. كان جمالها بالغ الدقة والرقة ، محكمًا فى خطوطه وألوانه ، وهذا الجمال منحته لابنها .

لم يكن يعبأ بهذا الجمال . كان يمسح متبرمًا آثار تربيتِ أصابع الجوارى على جنتيه الناعمتين حين كُنَّ يتملقنه محاولات إرضاء أمه .. كان ينكبُّ على ممارسة اللعب . بل كان – بلا شك – قويًّا جادًّا حتى فى لعبه وضحكه. ويبدو أننى أراه دائمًا معقود الجبين فى أثناء لعبه .. كان ثابت العزم فى كل شىء ، ولا يطيق أن تعلو إرادة على إرادته .

وعندما كنا نلعب معًا لا أجرؤ على مُنازعته ، من ناحية أنه ولد ، ومن غير المناسب أن أجعل - أنا البنت - إرادتى ضد إرادته ، ولكننى من ناحية أخرى أتحتُ له أن يكون له أسلوبه واتجاهه من منطلق أننى أحببتُه حبًّا عميقًا ، ولا يمكننى أن أراه حزينًا .

أجل لم يكن أحد يحتمل أن يراه فاشلًا ، كان الخدم والعبيد يبجلونه وينحنون أمامه باعتباره السيد الصغير ، وحتى وقار والدتنا كان يلين فى حضوره ، ولا أعنى أنها كانت تسمح له أن يعصى أوامرها بأى حال من الأحوال ، وأعتقد أنها كانت تقيد نفسها كى يكون ما تأمره به يتفق مع رغباته ، فقد سمعتها تطلب من إحدى الجوارى أن تنقل من فوق المنضدة كعكة بالزيت الحلو قبل مجيئه ، لأنه كان يستعذبها ، وأنه سيلتهمها فتصيبه بالمرض ، كما حدث ذلك دائمًا ، لذا حرصت على ألَّا يراها ، إذْ سيتشبث بها فتضطر إلى منعه من تناولها .

وحتى فى شبابه كانت الحياة ممهدة أمامه ، ولم يدر بخلدى أن ألاحظ التفرقة فى المعاملة بينه وبينى ، إذ لم أحلم فى أى وقت بأن أكون على قدم المساواة مع أخى ، لم يكن ذلك ضروريًّا ،فليس لى دور مهم كى أحققه للأسرةمثلما له ، فهو الابن البكر ، ووريث والدى .

في تلك الأيام أحببتُ أخى حبًّا يفوق كل الآخرين ، كنت أسير بجانبه فى الحدائق متعلقة بيده ، وكنا ننحنى فوق البِرَك الضحلةنبحث فى الظلال الخضراء عن الأسماك الذهبية التى كانت تستحوذ على اهتمامنا ونسميها أسماكنا . وكنا نجمع الأحجار الصغيرة المتنوعة الألوان ونشكل بها

بعض المبانى – كما فى حكايات الجن – وسط أفنية ذات أسوار ،ونُزَيِّنُها على غرار مبانينا ، ولكنها كانت رقيقة متناهية الصغر ، ومعقدة فى تصميمها. وعندما علَّمنى أن أحرك فرشاة الكتابة بعناية فوق الخطوط التمهيدية للحروف فى أول كراسة للخط ممسكا بيدى وهو يقودها ، كنت أعتبره أَحْكَمَ البشر . وحينما كان يذهب إلى مبانى النساء كنتُ أتبعه ككلب صغير . وإذا تسلل عبر البوابة ذات القنطرة المقوسة إلى قاعات الرجال حيث لا يمكننى الدخول ، كنت أنتظره بصبر نافذ حتى يعود .

وفجأة – حين بلغ التاسعة من عمره – نقلوه من مساكن النساءإلى تلك المساكن التى يقطنها والده والرجال ، فتحطمت حياتنا المشتركة معاً بقسوة .

يا لتلك الأيام الأولى القليلة ! لم أكن أستطيع أن أعيشها دون نوبات بكاء طويلة . وفى الليل كنت أبكى حتى أنام ، فاحلم بمكان نظل فيه أطفالًا لا نفترق أبدًا . آه .. لقد مرت أيام عديدة قبل أن أكف عن الاستغراق فى تفكير كئيب وأنا أرى كل حجرة خالية منه .. خشيت أمى أخيرًا على صحتى فحدثتنى قائلة :

– يا بنيتى ، هذا الشوق الدائم لأخيك غير لائق ، فمثل هذه العاطفة يجب أن تُحْفَظَ لعلاقات أخرى ، ومثل هذا الحزن ملائم فقط عند موت والدَىْ زوجك . عليكِ أن تدركى ما يتناسب مع الحياة ، واكبحى عواطفك بناء على ذلك . انكبِّى على دراساتك وتطريزك ، فقد جاء الآن الوقت الذى يجب أن نُعدك فيه جديًّا للزواج .

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا كانت فكرة زواجى الذى يدنو منى تلازمنى على الدوام . ونَمَوْتُ لأفهم أن حياتى وحياة أخى لا يمكن أبدًا أن تسيرا جنبًا إلى جنب ، فأنا أولًا لا أنتمى إلى أسرته ، بل لأسرة خطيبى ، لذلك اهتممتُ بكلمات أمى ، وعزمتُ على تطبيقها عمليًّا فى أداء واجباتى .

أتذكر أخى ثانية بوضوح فى ذلك اليوم رغب فيه أن يذهب إلى المدرسة فى « بكين » .. لقد مثل بين يَدَىْ والدتنا ليسألها وفقًا للتقاليد أن تأذن له بالسفر ، وكنت حينئذ هناك ، ولما كان قد حصل على موافقة والدنا ، فإن مجيئه إلى والدتنا كان من قبيل المجاملة لا غير . فوالدتنا لم تكن تستطيع – إلَّا نادرًا وبشق الأنفس – أن ترفض ما سمح به والدنا ، ولكن أخى كان يدقق دائمًا فى مراعاة المظاهر الخارجية الخاصة بعاداتنا .

وقف أمامها مرتديًا ثوبًا من الحرير الرمادى ، إذْ كان الوقت صيفًا ، وقد أحاط إبهامه بخاتم من اليشب .. إن أخى مولع دائمًا بالأشياء الجميلة، وفى ذلك اليوم جعلنى أفكر فى عصا فضية تُتَّخَذُ للزينة .. أَحْنَى رأسه قليلًا أمام والدتنا وهو يغض من بصره .. ولكن من حيث كنتُ أجلس استطعتُ أن أرى عينيه تومضان بين أجفانهما ، وقال :

– أمى ، إذا كنتِ تسمحين ، فإننى أرغب فى الدراسة إلى مَدَى أبعد فى جامعة « بكين » .

كانت بالطبع تعرف أنها يجب أن توافق ، وعرف هو أنها سترفض إذا كان ذلك فى استطاعتها ، ولكن فى الوقت الذى كان فيه غيرها من النساء تتوانى شاكيات باكيات ، تحدثت هى فى الحال بهدوء وحزم :

– يا بنى ، إنك تعرف أن الأمور يجب أن تجرى كما يقول أبوك ، وأنا أعرف أننى لا شىء أكثر من أمك ، وعلى الرغم من ذلك سأتكلم ، حتى ولو كنت لن أعارض رغبة أبيك ، فإننى لا أرى أية فائدة فى مغادرتك البيت . فوالدك وجدك قد أتما تعليمهما فى البيت . وأنت شخصيًّا كان لديك أبرع العلماء فى المدينة ليعلموك منذ طفولتك .. لقد استدعينا لكَ بمشقة وجهد العالم « تانج » من « سيتشوين » ليعلمك الشِّعْرَ .. هذا التعليم الأجنبى ليس ضروريًّا لواحد فى مركزك .. إن الذهاب إلى تلك المدن البعيدة يُعَرِّضُ حياتَك للخطر ، وهى ليست ملكًا خالصًا لك إلى أن تعطينا ابنًا يحمل اسم أسلافك . فهلَّا تزوجت أولًا ؟

حرك أخى – غاضبًا – مروحته التى كان يمسك بها مفتوحة فى يده اليسرى وأغلقها ، ثم أعاد فتحها بحركة سريعة خاطفة ، ورفع عينيه ، وقفز الاعتراض من تحت جفنيه . رفعت أمى يدها :

– لا تتكلم يا بنى ، إننى لا آمرك ، بل أُحَذِّرُكَ فقط . إنَّ حياتَك ليست لكَ . فاحرصْ عليها .

وأحنت رأسها ، فانصرفَ خارجًا .

لم أعد أراه بعد ذلك إلا نادرًا . وقد عاد إلى البيت مرتين قبل زواجى ، ولم يكن لدينا ما نقوله لبعضنا البعض ، كما لم يحدث قط أن التقينا وحدنا معًا . وكان لايجىء إلى مساكن النساء إلَّا لتقديم التحية التقليدية لوالدته أو ليودعها ، ولم أكن أستطيع أن أتحدث معه بحرية فى حضور من يكبروننى سنًّا .

رأيت فقط أنه ازداد طولًا ، واستقامت قامته ، وأن وجهه فقد بعض نضارة الشباب ، كما فقد أيضًا رشاقة جسمه فى طفولته وما كان يتميَز به من تناسق جميل مع خفضه لرأسه ، حتى أنه فى سنواته المبكرة كان أشبه ببنت وسيمة . وقد سمعتُه يُخبر أمى أنه فى المدرسة الأجنبية كان عليه أن يمارس الرياضة البدنية يوميًّا ، وهذا أكسبَ جسمه طولًا وامتلاءً وقوة . وقص شعره وفقًا للنمط الجديد الذى ساد فى زمن الثورة الأولى ، وكان شعره ناعمًا وأسودَ فوق رأسه المرفوع . لقد رأيت أنه كان مليحًا ، والنساء فى الأفنية كُنَّ يتنهدن وراءه وهو يمضى أمامهن ، وتمتمت السيدة الثانية البدنية :

– آه .. إنه يشبه أباه حين أحببناه للمرة الأولى .

ثم سافر أخى عبر البحار ، ولم أره مرة أخرى . وأصبحت صورته باهتة فى ذهنى حتى صارت معتمة غامضة من جراء كل الغرائب المحيطة به ، حتى أننى لم أعد أراه بوضوح .

كنت جالسة فى حجرتى منتظرة عودة زوجى ، وأنا ممسكة بالرسالة التى بعثت بها أُمى إلَىَّ ، فأدركت أن أخى كان رجلًا غريبًا لم أفهمه .

* * *

حين عاد زوجى إلى البيت ظهرًا هرولتُ إليه باكية ، والرسالة فى يدىَّ المدوتين ، فتلقانى بدهشة قائلًا :

– لكن ما هذه ؟ لكن ما هذه ؟

فصحت قائلة :

– اقرأ هذه .. اقرأ وانظر !

وارتفع صوتى بالنشيج والبكاء من جديد ، وتطلعت إلى وجهه لأرى ما يرتسم عليه وهو يقرأ .

تمتم وهو يعصر الرسالة ويجعدها فى يده :

– غبى .. ولد أحمق .. أحمق ! كيف يفعل ذلك ؟ نعم .. اذهبى فورًا إلى أمك المبجلة . يجب أن تواسيها وتريحيها .

طلب من الخادمة أن تخبر الرجل الذي يجر عربة الريكشا بالإسراع فى تناول طعامه حتى لا أضيع الوقت . وحين أصبح الرجل على أهبة الاستعداد ، اصطحبتُ ابنى فقط والخادمة الملازمة له ، وتوسلت إلى الرجل أن يجرى بسرعة .

وعندما دخلتُ من بوابة بيت أمى أدركتُ على الفور الصمت الذى يجثم ثقيلاً مرهقًا على كل الأشياء ، كما تطبق سحابة معتمة على القمر .. العبيد يروحون ويجيئون لأداء أعمالهم وهم يديرون عيونهم ويهمسون . أمَّا « وانج ادا ما » التى اصطحبتها معى فقد بكت ونحن نخترق الشوارع حتى انتفخت جفونها من كثرة ما ذرفته من دموع .

وفى فناء الصفصاف المتدلى كانت السيدتان الثانية والثالثة تجلسان مع أطفالهما . دخلتُ مع ابنى ، وما كادا يرحبان بمقدمى حتى انهالتا علىَّ تسألاننى فى شوق ولهف . وصاحت السيدة الثانية البدنية :

– آه ، يا للطفل الجميل !

ثم وضعت أصابعها السمينة على وجنة ابنى ، وراحت تشم يده الصغيرة وتربت عليها بلطف قائلة :

– أنت حُلوة صغيرة ! .. هل سمعت ؟

ثم استدارات نحوى فى رزانة .

أومأت برأسى محيية . وسألت :

– أين أمى ؟

فأجابت :

– إن السيدة الأولى المبجلة قد لازَمت حجرتها منذ ثلاثة أيامٍ .. إنها لاتكلم أحدًا ، وهى تجلس فى حجرتها ولا تبارحها إلى الحجرة الخارجية إلَّا مرتين فى اليوم لتأمر بتدبير شئون المنزل ، ولتخرج الأرز والطعام ، ثم تعود ثانية إلى حجرتها . إنَّ شفتيها مطبقتان كشفتى تمثالٍ من حجر ، وعينيها تحملنا على الانصراف عنها ، ونحن لا نجرؤ على التحدث معها .. إننا لا نعرف أفكارها .

تملقتنى بانحناءاتها وابتساماتها وهمستْ :

– هل ستخبريننا بما تقوله لكِ ؟

ولكننى هززت رأسى رافضة فضولها .

فأضافت قائلة :

– لا أَقَلَّ من أن تتركى لنا الصغير العزيز لنلاعبه .

ومدت ذراعيها تجاه ابنى ، ولكننى منعتها من حَمْلِه وقلت :

– سآخذه إلى أمى .. سيبهجها مَرْآه ، ويزيح عنها حزنها .

وحين عبرت من قاعة الضيوف إلى فناء أزهار الفاوانيا ، ثم إلى الحجرة التى تقضى فيها النسوة وقت الفراغ ، وقفت أمام الجناح الذى تقطن فيه أمى ، ومن المعتاد أن تكون الستارة الساتانية الحمراء مدلاة على هذا المدخل ، أمَّا الآن فقد وجدتُ الباب موصدًا خلف الستارة ، عندئذ طرقتُه بخفة براحة يدى . لم يكن ثمة مجيب . قرعت ثانية . ثم صحت :

– هأنذى يا أماه ! أنا طفلتك الصغيرة !

حينئذ سمعت صوتها كما لو كان آتياً من بعيد :

– تَعَالَى إلَىَّ يَا بُنَيِّتِى !

دخلتُ .. رأيتها تجلس بجانب المنضدة السوداء المنقوشة كان البخور يحترق بلا لهب فى الجرة البرونزية ، ويتصاعد أمام الكتابة المقدسة على الحائط . كانت تجلس محنية الرأس ، وقد حملت كتابًا بين أصابع إحدى يديها المدلاة بجانبها . ولما رأتنى أدخل قالت :

– هل جئت ؟ كنت أحاول أن أقرأ « كتاب التغييرات » ولكننى لم أجد اليوم شيئًا فى صفحاته يريحنى .

وهزت رأسها بشىء من الغموض حين كانت تتحدث ، وسقط الكتاب على الأرض ، فتركته مكانه هناك .

انزعجتُ إزاء هذه الحيرة فى التصرف ، فقد كانت أمى دائمًا متمالكة النفس ، واثقة رابطة الجأش ، والآن رأيت أنها بقيت طويلًا وحدها ، فَأَنَّبْتُ نفسى لأننى شُغلت عنها بحب ابنى حبًّا خلب لُبِّى ، ووجدتُ فى حُبِّ أبيه وحنانه ورقته تجاهى ما أراحنى بعمق ، وجعلنى رخية البال وقتًا طال مداه . لقد انقضت أيام عديدة منذ أن أتيتُ لزيارتها ، فكيف أستطيع أن أرفع معنوياتها وأُحَوّل أفكارها وألهيها عَمَّا هى فيه ؟ أخذتُ ابنى وأوقفته على ساقيه السمينتين ، وثنيتُ يديه الصغيرتين وجعلته ينحنى أمامها ، وهمَستُ له :

– السيدة المبجلة الكبيرة .. قُلْهَا أيها الطفل !

فقال متلعثمًا وهو ينظر إليها بدون أن يبتسم :

– السيدة الكبيرة !

لقد أخبرتك أنها لم تره منذ شهره الثالث ، وأن تعرفين يا أختاه كم هو جميل ، بكل ما فى الكلمة من معنى ! من ذا الذى يستطيع مقاومته ؟ تركزت عيناها عليه ، وتريثت متطلعة إليه ، توجهت إلى خزانة مطلية بالذهب وتناولت منها صندوقًا أحمرَ بورنيش اللَّك ، فتحته ، فكان بداخله كعكات صغيرة يغطيها بذور السمسم ، أعطتها إياه مالئة يديه ، فلما رأى تلك الحلوى ضحك عالِيًا ، فى حين افترَّ ثغرها عن ابتسامات باهتة وقالت:

– كُلْ يا قَرْنَ اللُّوتَس الصغير ! كُلْ أيها البدين الصغير !

ولما رأيتُ أنها تلهت فى تلك اللحظة وسُرَّت ، التقطتُ الكتاب ، وصببتُ الشاى فى « السلطانية » من القِدْر الموضوع على المنضدة ، قدمته إليها بكلتا يدىّ .

طلبتْ منى أن أجلس ، ثم أخذ الطفل يلعب على الأرض ، ونحن نرقبه . انتظرتُ أن تتكلم ، ولم أكن أعرف ما إذا كانت ترغب فى أن تطرق موضوع أخى أم لا ، ولكنها لم تقترب منه .

وقالت أولاً :

– ها طفلك هنا يا بنيتى .

حينئذ تذكرتُ الليلة التى أخبرتها فيها بأحزانى . والآن أطل علينا مصباح النهار ببهجته ، فقلت لها وأنا أبتسم :

– نعم يا أماه .

فسألت وعيناها ما زالتا على الطفل :

– هل أنتِ سعيدة ؟

أجبتها :

– إن سيدى أمير بحنانه ورقته ولطفه معى ، أنا زوجته المتواضعة .

قالت وهى مستغرقة فى التفكير وعيناها على الطفل :

– لقد حَمَلْتِ وأنجبت طفلًا يُعَدُّ نموذجًا للكمال .

ثم أردفت :

– وإنى لاحظتُ أنه بلغ أعلى درجات الكمال ، ولم يعد يعوزه أى جمال نرجوه له . آه !!

ثم تنهدت وقالت بتأثُّرٍ وقلق :

– كان أخوكِ مثلَ هذا الطفل ! وإنى أود لو أنه مات فى ذلك الوقت ، حتى أظل أتذكره جميلًا وبارًّا بوالديه !

عندئذ فهمتُ أنها ترغب فى التحدث عن أخى ، ولكننى انتظرت حتى أُدرك اتجاه أفكارها بوضوح أكثر . وبعد لحظة عاودت الحديث رافعة عينيها نحوى :

– تسلمتِ رسالتى ؟

أجبتها وأنا أنحنى :

– رسالة أمى وصلتنى هذا الصباح بيد الخادمة .

تنهدت مرة أخرى ، ونهضت وتوجهت إلى درج المكتب وأخرجت منه رسالة أخرى .. وقفت أنتظر عودتها .. وعندما ناولتنى الرسالة تسلمتها بكلتا يدىَّ .

قالت :

– اقرئيها .

كانت من صديق لأخى يدعى « تشو » سافر معه شقيقى من « بكين »

إلى أمريكا ، وقد كتبها بناءً على رجاء أخى ، وفيها يقول : إن «تشو كوو تينج» يكتب إلى السادة الأجلاء المسنين ليخبرهم بأن ابنهم خَطَبَ لنفسه - وفقاً للعادات الغربية - ابنه أحد مُدَرِّسِيه فى الجامعة . وهو ابنهم يبعث لوالديه بما يكنه لهما من احترام بنوى ، ويرجوهما أن يفسخا خطبته القديمة لابنة «لى» التى طالما أتعسته وأشقته ، حتى حين يفكر فيها . إنه يعترف بفضل والديه السامى وعطفهم اللانهائى حياله ، ابنهما الذى لا يستحق كل هذا ، ومع ذلك فإنه يود أن يقول بوضوح : إنه لا يمكنه أن يتزوج الفتاة التى خُطبت له وفقًا للعادات الصينية ، لأن الزمن قد تغير ، وأنه رجل عصرى قرر أن يختار طريقة للزواج العصرى الحر المستقل .

وانتهت الرسالة بكثير من الكلمات التقليدية التى تعبر عن الحب والاحترام والطاعة . بيد أن ما اعتزمه أخى فى قلبه كان واضحًا جليًّا . وقد سأل صديقه أن يكتب له لأنه يود فقط أن يجنب والديه ونفسه جرح التحدى السافر . لقد احترق قلبى ضده عندما قرأت الرسالة . وعقب انتهائى منها طويتها وناولتها لأمى ثانية بدون أن أتفوه بكلمة . فقالت :

- لقد انتابه الجنون ، وإنى بعثت إليه برسالة شديدةاللهجة آمره بالعودة فورًا .

هنا عرفتُ عظم تأثرها وتهيجها ، فأمى بكل كيانها من الصين القديمة .. وعندما نُصبت فى شوارع مدينتنا القديمة الجميلة أعمدة طويلة تحمل أسلاكًا - كما تحمل أغصان شجرة أنسجة العناكب - صاحت ضد ذلك التدنيس وقالت فى سخط :

– إن قدماءنا استعملوا الفرشاة والحبر ، فماذا لدينا – نحن أحفادهم التافهين – لنقوله أكثر أهمية من كلماتهم الجليلة حتى نحتاج لمثل هذه السرعة ؟

وحين سمعتْ أن الكلمات يمكن أن تسافر حتى تحت البحر نفسه قالت:

– وماذا هناك ما نرغب فى توصيله إلى هؤلاء الهمج ؟ ألم تقم الآلهة الحكيمة بصبِّ البحر بيننا وبينهم لتفصلنا عنهم ؟ ليس من التقوى أن نصل ما فصلته الآلهة وعزلتنا عنه بمعرفتها .

ولكنها الآن أصبحت فى حاجة إلى مثل هذه السرعة !

وقالت بحزن :

– لقد اعتقدتُ أننى لن استعمل أبدًا تلك المخترعات الأجنبية ، كما ظننت أن ابنى يجب أن يبقى فى بلده ، ولكن حين يتعامل المرء مع الهمجيين، يكون مضطرًا لأن يشد الشيطان نفسه إلى طاحونته !

عندئذ تحدثت لأخفف عنها :

– أماه ، لا تبتئسى كثيرًا .. إن أخى مطيع ، وسيستمع لكِ ويكف عن الركض وراء امرأة أجنبية .

ولكنها هزت رأسها وأحنت جبهتها وأسندتها بيديها . انتابنى قلق مفاجىء لَدَى رؤيتى لها فى مثل تلك الحالة .. كانت فى الواقع تبدو مريضة! لم تكن قط بدينة ، ولكنها الآن بدت مهزولة ، ويدها التى تسند

رأسها كانت ترتجف . انحنيتُ إلى الأمام لأرقبها بمزيد من الاهتمام حين شرعتْ تتحدث ببطء ، فوصلنى صوتها خافتًا فى إرهاق شديد :

– لقد تعلمتُ منذ وقت طويل أنه إذا زحفت امرأة إلى قلبِ رجل ، تتركز عيناه بإحكام عليها ، حتى أنه يعمى عن رؤية أى شىء آخر عداها .

توقفتْ لوقتٍ قصير لتستريح ثم استأنفت الحديث ، فكانت كلماتها أشبه بالتنهدات :

– والدك .. ألا يُعَدُّ رجلًا شريفًا جديرًا بالاحترام ؟ نعم لقد استسلمتُ منذ وقت بعيد وكَيَّفْتُ نفسى وفق هذا الشىء بدون تذمر .. فهو حين يستولى عليه جمال امرأة وتستأثر برغباته ، فإنه يُجَنُّ لفترة من الوقت ، ويزايله فهم أى شىء معتدل يتسم بصواب الفكر ... لقد عَرَفَت عشرين فتاة من المغنيات ، إلى جانب هذه الأفواه الكسولة التافهة التى يجىء بها إلى البيت كمحظيات .. ولدينا منهن ثلاثٌ . أما سبب عدم إحضاره أخرى فيعود إلى أنَّ اشتهاءه لفتاة « بكين » ضعف وانقطع قبل أن تنتهى المفاوضات ، فكيف يكون الابن أكثر حكمة من أبيه ؟

نهضت فجأة وقالت :

– الرجال !

ولَفَّتْ شفتيها حتى بدا فمها شيئًا حيًّا يجسد الهزء والسخرية والازدراء:

- إنَّ أفكارهم فى باطنهم تتحوَّى (١) وتتجمَّع وتستدير كالحيات حول الجسد الحى لامرأة ما !

جلستُ مرتعبةً من كلماتها ، إذ لم يسبق لها قط أن تحدثت من قبل عن أبى والمحظيات .. لقد تغلغلت على حين غرة إلى تجاويف قلبها الداخلية .. كانت المرارة وما لقيته من معاناة ومقاساة أوعية من النيران تتأجج بداخلها.. لم أجد كلمات أُخفف بها عنها .. أنا المرأة التى يحبها زوجها ، حاولت أن أتِصوره يتخذ له زوجة ثانية فلم أَقْوَ على ذلك ، واستطعت فقط أن أتذكر ساعات حبنا ، تطلعت عيناى لا إراديًّا إلى ابننا الذى ما زال يلهو بكعكات السمسم الصغيرة .. ماذا عساى أقول لأمى حتى أُسَرِّىَ عنها ؟

انقضت فترة طويلة قبل أن أبدأ الحديث فى خوف :

- لعَل تلك المرأة الأجنبية ....

غير أن أمى ضربت الأرض بغليونها الطويل ، وكانت قد تناولته لتوها من فوق المنضدة ، وبدأت تحشوه على عجل بأصابع مرتعشة نافذة الصبر ، فقاطعتنى وقالت بحدَّة :

- دعينا ، لا نتحدث فى ذلك الأمر .

وأردفت :

- لقد تكلمتُ ، وعلى ابنى الآن أن يُطيع ، سيعود ويتزوج ابنة «لى »

(١) تتحوَّى : تتلوَّى وتلتفتُ .

خطيئته ، ومنها يجب أن تأتى بِذْرَتَهُ الأولى ، وبهذا يتحقق واجبه إزاء أسلافه القدماء ، وبعدها يستطيع أن يتخذ زوجةً صغيرة له مِمَّنْ يشاء ! أسأنتظر أن يكون الابن أفضل من الأب ؟.. لا عليكِ الآن إلا أن تصمتى وتتركينى ، إننى متعبة مكدودة ، يجب أن أستريح هنيهة فى فراشى .

لم أستطع أن أضيف شيئًا . لقد رأيت فعلًا أن وجهها كان شاحبًا ممتقعًا، وأن جسمها تهدَّل كقصبة من البوص ذابلة . ولذا حملتُ ابنى وانسحبت من حضرتها .

* * *

عندما عدتُ إلى بيتى أخبرتُ زوجى - والدموع تنحدر من عينَىَّ - أننى لم أتمكن من تخفيف أحزان أُمِّى ، فواسانى بوضع يده فوق يدى ، وطلب منى أن أنتظر صابرة مجىء أخى . وحين تحدث معى بهذه الرقة والدماثة انتعش الأمل فى صدرى تجاه المستقبل ، ولكنه حين توجه إلى عمله فى صباح اليوم التالى سقطتُ فريسة للشك مرة أخرى .. لم أستطع أن أنسى أمى !

فمن خلال أحزان حياتها طيلة تلك السنوات داعبها ذلك الأمل العظيم فى المستقبل .. أمل النساء الصالحات جميعاً ، حينما كانت تفكر فى أن ينجب ابنها ابنًا يكون سندًا لها فى سنها المتقدم ، وتُحقق به واجبها نحو الأسرة ، فكيف تأتَّى لأخى أن يضع رغبته الطائشة فى مسيرة حياة أمى ؟

سَأُوَبِّخ أخى .. سأخبره بكل ما قالته أمى .. سأُذَكِّره بأنه ابنها الوحيد ، وسأقول له بعدئذ :

كيف يمكنك أن تضع على رُكْبَتَىْ والدتنا طفل امرأة أجنبية ؟

الفصل السادس



6

لم نسمع جديدًا بعد يا أختاه ! إننى أبعث البستانى يوميًّا إلى بيت أمى ليسأل عن صحتها ، وليعرف ما إذا كانت هناك رسالة جاءت من أخى .. وعلى مدى خمسة عشر يومًا كان يجيبنا كل يوم :

– إن السيدة الكبيرة المبجلة تقول إنها ليست مريضة ، ولكنها فى عيون خادماتها كانت تضعف وتهزل تدريجيًّا ، لقد عزفت عن الطعام . أمَّا بشأن السيد الصغير فلم يبعث بأى رسالة منه ، وربما لهذا السبب تدهورت صحتها ،ففى سنها لا يمكن تحمُّل القلق بسهولة .

أوه ، لماذا لم يبعث أخى بكلمة ؟ لقد أعددتُ طعامًا شهيًّا لأمى ، ووضعتُه فى أوعية جميلة من الخزف الصينى ، وبعثتُ الخادمات به وقلت :

– كلى يا أمى من هذا اللحم المتواضع .. إنه لا طعم له ، ولكن لأنه من إعداد يدىّ فتلطَّفى لتتناولى قليلًا منه .

وقد أخبرونى أنها بدأت تأكل ، ثم وضعت العودين (اللذين يتناول بهما الصينيون طعامهم) جانبًا . لم تستطع أن تحرر قلبها من قلقه . هل يُترك أخى ليقتل أمى ؟ يجب أن يعرف أنها لا يمكنها أن تحتمل أساليب الغرب غير اللائقة التى تبيح عقوق الابن .. من الخزى والمخجل أنه لا يتذكر واجبه !

* * *

قضيتُ عدة ساعات أتأمل وأتعجب .. لا يمكننى أن أقرر ماذا سيفعله أخى .. وفى أول الأمر لم يساورنى الشك فى طاعته لأمنا فى النهاية. أَوَ ليس جسده وجلده وشعره تنحدر منها ؟ أيمكنه إذن أن يلوث هذه القداسة مع فتاة أجنبية ؟

زِدْ على ذلك أن أخى قد تعلَّم فى أوائل شبابه حكمة « السيد العظيم » التى تقول : « إن أول واجب للرجل أن يحرص باهتمام على كل رغبة لوالديه » . وعندما يعود أبى ويسمع بما انتواه أخى فمن المؤكد أنه سيرفضه أيضًا . وبهذا كنت أقنع نفسى كى تركن إلى الهدوء .

وهكذا كنت ألجأ إلى إعمال فكرى فى أول الأمر ، أمَّا اليوم فأنا أشبه بجدول غير مستقر بغير اتجاه مياهه فوق الرمال فيدفع بها تحتها .

إنه زوجى يا أختاه هو الذى جعلنى أشك فى حكمة الأساليب القديمة، فمن حنايا حبه قادنى إلى الارتياب ! ففى الليلة الماضية قال أشياء غريبة . سأخبركِ بها ، لقد كانت على النحو التالى :

جلسنا فى الشرفة الصغيرة التى أقامها من القرميد فى الناحية الجنوبية من البيت . كان ابننا نائمًا فى فراشه الخيزرانى بالطابق العلوى ، أمَّا الخدم فقد انصرفوا إلى شئونهم الخاصة ، وجلست أنا على مقعد الحديقة المصنوع من الخزف الصينى على بُعْدٍ قليل من سيدى ، كما تقضى بذلك اللياقة ، واستلقى هو على مقعد طويل من الخيزران .

ورحنا نرقب القمر فى كامل وجهه وهو يبدو عاليًا فى السماوات . وهبت رياح الليل ، وعبر السماء كان هناك موكب من السُّحُب البيضاء تدور بسرعة الطيور الثلجية الضخمة فتُخْفى وجه القمر تارة ، وتكشف سحره بجلاء تارة أخرى . وكانت السُّحب مسرعة ، حتى بدا القمر نفسه كأنه يدور فوق الأشجار . وتشبثتْ رائحةُ المطر بهواء الليل .. أبهجنى هذا الجمال والسلام ، وأحسستُ بهما ينبعان من داخلى .. شعرت على نحو مفاجىء بالرضا العظيم بحياتى . رفعتُ عينىَّ ، فرأيت زوجى يتفرَّسُ فى وجهى ، فانبعثتْ فى داخلى متعة رائعة فى خفر وحياء .

وأخيرًا قال بصوت يعبر عن رضائه :

– يا له من قمر ! هَلَّا عزفتِ على قيثارتك القديمة يا « كواى لان » ؟

فأثرته بتأنيب ساخر حين قلت :

– إن الهارب له ست حالات بغيضة ممقوتة ، وسبعًا محرمة طبقًا لأسلافنا القدماء الذين وضعوها .

ثم استطردت:

– إن صوتها لا ينطلق فى حالة الحزن ، وفى وجود آلات البهجة فى أعياد القصف واللهو ، وإذا كان العازف شقيًّا وتعيسًا ، وحين يكون شخصه مدنسًا سيىء السمعة ، وعندما تكون أعواد البخور غير حديثة الاشتعال ، أو فى حضور مستمع غير متعاطف . فإذا لم تنبعث الألحان منها فى هذه الليلة يا سيدى ، فأى هذه الحالات المقوتة تكون السبب ؟

اتخذ سيماء الوقار ثم قال :

– كَلَّا يا قلبى ، إننى أعرف أنها فى يوم من الأيام لم تكن لتبعث بصوتها لأننى كنت تلك الحالة المقوتة .. مستمعًا غير متعاطف ، أمَّا الآن فَدَعِى أنَامِلَكِ تعزفُ ألحانَ الحبِ القديمة ، وأغانى الشعراء .

عندئذ نهضتُ وأحضرتُ قيثارتى ، ووضعتها على الطاولة الحجرية الصغيرة التى بجانبه ، ووقفت ، ولَامَسَتْ أصابعى أوتارها فى حين كنت أتأمل فيما أغنيه له . وأخيرًا غنيتُ هذه :

باردةٌ رياحُ الخريفِ ،

صافٍ قمرُ الخريف .

الأوراق الذابلة تسقطُ وتتناثر ثانية،

وغراب مُتَيَّمٌ بالصقيع ينطلق من الشجرة .

أين أنتِ يا حبيبى ؟

هل سأراكِ مرة أخرى ؟

آه ، قلبى يبكى هذه الليلة ..

إننى وحيد !

ثم سمع صدى تلك العبارة « .. وحيد .. وحيد .. وحيد ..» تتكرر مرارًا من الأوتار بعد أن كَفَّتْ أناملى عن مداعبتها ، حملت الرياح الصدى، وامتلأت الحديقة فجأة بالصوت الحزين الذى اهتز فى أعماقى على نحو غريب ، وأعاد إلىَّ حزنى الذى ظل قابعًا منسيًا على مدى ساعة .. إنه حزن أمى . وضعتُ أصابعى على الأوتار برفق لأوقف أنينها ، وقلت :

– إننى يا سيدى واحدة من الحالات المقوتة ، فإننى حزينة ، أنا العازفة، والقيثارة تنوح معى طوعًا :

نهض وأقبل نحوى وأمسك بيدى وقال :

– حزينة ؟

قلت بضعف :

– من أجل أمى !

وتجاسرتُ وأرحتُ رأسى لحظة فوق ذراعه ، وقلت :

– إنها حزينة ، وحزنها يحدثنى من خلال القيثارة ، إنه بسبب أخى .. إننى أشعر بقلقها فى هذه الليلة .. كل شىء قلق ينتظر مجيئه . ليس لديها الآن غيره . لقد انقطعت الصلة بين أبى وبينها منذ أمد بعيد ، وأنا الآن أنتمى إلى أسرة أخرى .. أُسْرَتِكَ .

لم يقل زوجى شيئًا فى بادىء الأمر . تناول تبغًا أجنبيًّا من جيبه وأشعله. وأخيرًا تكلم بصوت هادىء :

– يجب أن تعدى نفسك ، فمن الأفضل مواجهة الحقيقة .. من المحتمل أنه لن يطيع أمك .

أفزعنى ذلك وسألت :

– لماذا تعتقد ذلك ؟

سأل بدوره وهو ينفث من فمه دخان التبغ متقطعًا :

– لماذا تعتقدين أنه سيطيع ؟

استدرتُ نحوه قائلة :

– كلا ، لا تجيبنى بأسئلة توجهها لى ، إننى لا أعرف .. أنا لستُ ذكية ، ولا أجيد الإقناع بالحجة والمنطق ! وإذا كان لدىَّ سبب حقيقى فلأن أخى قد تعلَّم طاعة الوالدين كأساس من أسس الدولة ، وكواجب من واجبات الابن .

فقاطعنى ورمقنى بنظرة ذات معنى :

– إن الأسس القديمة قد تحطمت ، ويجب أن تكون هناك أسباب أقوى من هذه فى أيامنا !

ملأنى الشك فى أثناء حديثه ، ثم تذكرتُ سلوى سرية تريحنى ، هى شىء لم أتحدث عنه علانية ، كان هذا هو أفكارى الداخلية ، وهمست قائلة:

– ولكن النساء الأجنبيات قبيحات ، فكيف يتزوج رجل من جنسنا منهن ؟ لا سبيل لرجالهن سوى الالتجاء لهن ، ولكن ...

لُذْتُ بالصمت ، فقد خجلتُ أن أتحدث عن الرجال هكذا أمام زوجى . ومع ذلك فكيف يرغب الرجل فى أمثال تلك النسوة التى رأيناها قبل مولد ابنى ؟ مثل تلك العيون الفاتحة المسطحة ، والشعر الباهت ، والأيدى والأقدام الخشنة ؟ إننى عرفتُ أخى ! أليس هو ابن والدى ، أوَ لم يكن أبى مولعًا بالجمال فى النساء فوق كل شىء فى العالم ؟

ضحك زوجى ضحكة قصيرة وقال :

– ها ! ليست كل النسوة الصينيات جميلات ، وليست كل الأجنبيات قبيحات ! لقد سمعتُ أن ابنة « لى » التى خُطبت لأخيك ليست جميلة .. يقولون فى مشارب الشاى إن شفتيها عريضتان إلى مدى بعيد ، وإنهما مُنحيتان إلى أسفل كمنجل الأرز .

صِحْت فى سخط :

– ما لكسالى مشارب الشاى والتحدث عن مثل ذلك الشىء ؟ إنها فتاة محترمة ، وأسرتها من النبلاء !

هز زوجى كتفيه وقال :

– لقد أشرتُ فقط إلى ما أسمعه ، وإلى ما لاشك قد سمعه أخوكِ ، وقد يكون مثل هذا الحديث قد يَسَّرَ له أن يتعلق قلبه التائه بامرأة أخرى .

خيم علينا الصمت لحظة ، ثم أكمل حديثه وهو يدخن مفكرًا :

– وهاته النسوة الأجنبيات ! بعضهن يشبهن النجم الأبيض فى جمالهن ! عيون صافية ، وأجساد متحررة .

استدرتُ ونظرتُ لزوجى بعينين مفتوحتين إلى أقصى مدًى ، ولكنه لم يَرَنِى وتابع حديثه :

– وأذرعهن تلك العارية الجميلة .. ويمكننى أن أقول لكِ إنهن متحررات كتحرر الشمس والرياح ، وبضحكهن ورقصهن يسلبن لُبَّ الرجل ، ويجعلن قلبه ينساب بين أناملهن كضوء الشمس ، حتى ينطرح فوق الأرض .

توقف أنفاسى لحظة .. عَمَّنْ تحدث زوجى إذن ؟ أية أجنبية علمته ذلك ؟ شعرت بغضب مرير يغلى فى داخلى ، فقلت متلعثمة :

– أنت .. هل كان لديك ...

هز رأسه ، وضحك منى قليلًا وقال :

– أية امرأة أنتِ ! كلا ، لم يحدث قط أن سلبت واحدة قلبى هكذا . لقد حفظته بطريقة مًّا حتى ....

وتغيرت نغمة صوته وهبطت إلى مستوى رقيق من الحب والحنان أدركها قلبى فاطمَأَنَّ ، وشعرت براحة البال .

ثم همست :

– ولكن هل كان الأمرُ صعَبًا ؟

– نعم فى بعض الأحيان ، فنحن – الرجال الصينيين – أبقينا على عادة الانفصال ، فنساؤنا متحفظات ، متظاهرات بالاحتشام ، لا يفصحن عن شيء ، وبالنسبة لشابٍّ – وأخوك شاب – تبدو الأخريات ، أعنى النساء الأجنبيات ببشراتهن الجميلة الناصعة البياض ، وأجسادهن الفاتنة ، يقدمن أنفسهن فى الرقص ....

فقاطعته بوقار :

– صه يا سيدى .. هذا حديث رجال .. لن أستمع إليه ..هل حقيقة أن هؤلاء الناس يعوزهم التهذيب ، وغير متحضرين ، ومتوحشون كما صدر من بين شفتيك وطَرَقَ مسامعى ؟

أجاب بتمهل :

– كلَّا ، إن بعض السبب يعود إلى أن بلدهم فتيّة ، والشباب فيها يستمتعون بشكل بسيط صريح ، ولكننى تحدثت عن ذلك لأن أخاك شاب أيضًا ، وحتى إذا كُنْتِ لا تودِّين سماع ذلك ، فإن الشيء الذى لا يُنْسَى هو أن شفتى خطيبته عريضتان ومقوستان كمنجل الأرز .

ابتسم ثانية ، وارتمى على مقعده وراح يحدق فى القمر ..

زوجى حكيم ولا يمكننى أن أطرح كلماته جانبًا بسهولة ، ومما قاله بدأت أدرك أن هناك بعضًا من السحر يحوم حول اللحم العارى لتلك

النسوة الأجنبيات ، وحين تكلم أزعجنى ما سمعته ، مِمَّا حَدَا بى أن أتذكر عينى أبى المتألقتين وضحكته ومحظيته الأثيرة لديه . ارتجفتُ ، ومع ذلك لم أستطع أن أنتزع أفكارى .

لقد تأملتُ وفكرت مليًّا .. صحيح أن أخى رجل ، هذا بالإضافة إلى أن صَمْتَهُ المتواصل علامة سيئة . كانت هذه طريقته منذ طفولته ، إذ كان يلتزم بالصمت ، ويصرٌّ على تنفيذ ما عقد عليه عزمه ، فحين كان طفلًا صغيرًا إذا حدَثَ ومنعتْ أمى عنه شيئًا ، فإنه كان يلوذ بالصمت فجأة ، ويتشبث بذلك الشىء بشدة ، كما قالت « وانج دا ما » .

وأخيرًا وضعتُ القيثارة فى علبتها المصقولة المطلية بورنيش اللَّك وأنا أتنهد .. سَلَّمَ القمر نفسه للسحاب تمامًا ، وبدأ رذاذ المطر يتساقط ..لقد تغير مزاج الليل ، فتوجهنا إلى البيت ، ونمتُ ليلة سيئة .

* * *

طلع الفجر فى هذا اليوم تحت سماء رمادية ساكنة ، والهواء مثقل بحرارة حديثة ، ومشبع بالرطوبة . كان الطفل قَلِقًا مضطربًا على الرغم من أننى لم أجد فيه مرضًا .

عادت الخادمة اليوم من بيت أمى بعد أن سألت عن صحتها ، وأخبرتنى أن أبى قد جاء .. يبدو أن « وانج دا ما » قد تجرأت وبعثت إليه برسالة ، بوساطة كاتب الرسائل المحترف الذى يجلس عند باب المعبد ، تتوسل إليه بتذلل أن يجىء لأن صحة أمى وضعفها لم يطرأ عليهما

تحسن . فهى تلازم حجرتها يومًا بعد يوم ، وغير قادرة على تناول الطعام .. تسلم أبى الرسالة فحضر إلى البيت ليقضى فيه يومين ..

عندئذ عزمتُ أن أذهب لأراه . ألبستُ ابنى ثوبًا أحمر . إنها المرة الأولى التى يراه فيها أبى .

وجدت أبى جالسًا على مقربة من البِرْكَة فى فناء الأسماك الذهبية ، لما كان الجو حارًّا ، ونظرًا لأنه ازداد بدانةً الآن ، فقد جلس بجانب البركة متدثرًا فقط بسترته التحتية وسروال من الحرير الصيفى .. كان شاحبًا كالماء تحت أشجار الصفصاف . ووقفت السيدة الثانية بجواره تحرك الهواء قُبالته بمروحة اليد . كانت حبات العرق تتدحرج على خديها لعدم تعوُّدها على مثل ذلك الإجهاد . وكان أحد أطفاله يجلس على رُكْبَتَيْه مرتديًا ثوبَ المهرجانات احتفاءً بعودته .

وعندما دخلتُ إلى الفناء صفق بيديه وصاح :

– آها .. آها .. ها هى ذى الأم وابنها تجىء !

أنزل ابنه عن ركبته ، وطلب من ابنى أن يقترب وهو يغريه بصوت منخفض مبتسماً له . انحنيتُ بعمق تحية لأبى ، فردَّها بإيماءة من رأسه، وعيناه ما تزالان مُرَكَّزَتَيْن على ابنى ، ثم ثنيتُ ذِرَاعَىْ طفلى ، وطلبتُ منه أن ينحنى . سَرَّ ذلك أبى أيما سرور ، وطفق يكرر بلطف :

– آها .. آها ..

ثم رفع ابنى وأجلسه على ركبته ، وراح يتحسس ذراعيه المستديرتين وساقيه ، وضحك لمرأى عينيه المتسعتين فى دهشة ..

صاح مبتهجًا :

– يا له من رجل ! دَعِى إحدى الجوارى تُحضر له الحلوى ، وثمرَ البرسيمون المكتسى بالسكر ، وبعضَ الكعك المكسو بالدهن !

لقد انزعجت . ليس لطفلى غير عَشْر أسنان ، فكيف يستطيع أن يأكل ثمر البرسيمون المسكَّر ؟

فتوسلت إلى والدى :

– أوه يا أبى المبجل ! إنَّ معدته الصغيرة اعتادت فقط على الطعام الخفيف . أرجوك ..

لكنَّ أبى لوَّح بيده ليسكتنى وتحدث إلى الطفل ، فاضطررتُ إلى أن أمتثل .

– ولكنكَ رجل ! أمَا تزال أمك تغذيك بثديها ؟ يا بنيتى إن لى أبناءً أيضًا ..أبناء كثيرون ، أربعة أو خمسة ؟.. لا أستطيع أن أتذكر .. على أية حال ، إننى أعرف عن الأبناء أكثر مما تعرف أم لواحد فقط ، وحتى أم لواحد كهذا !

قهقه عاليًا ثم أكمل قائلًا :

– آه ، لو أن ابنى – أعنى أخَاكِ – أنجبَ طفلًا كهذا من ابنة « لى » لرَفَعَ من روحى المعنوية !

ولما ذَكَرَ أخى تملكتنى الشجاعة كى أسأل :

– ولكن ماذا إذا تزوج بأجنبية يا أبى ؟ هذا هو الخوف الذى يدمر قلب أمى حتى أخذ جسدها يذوى يوماً بعد يوم .

أجاب باستخفاف :

– يا لكِ من بَبَّغَاء ! لن يستطيع .. كيف يمكنه أن يتزوج دون موافقتى؟ هذا غير شرعى .. إنَّ أمك اهتزت واهتاجت لذلك الأمر بلا مبرر .. لقد قلت لها فى هذا الصباح :

– كُفِّى عن غيظك الأحمق .. دَعِى الفتى يعبث بفتاته الأجنبية ، فهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، ودمه يستحثه ويثيره ويدفعه بقوة ، وهذا لا شىء ، ففى مثل عمره كان لدىَّ ثلاث مغنيات أحببتهن . دعيه يستمتع، فإذا ما سئمها .. قولى فى شهرين ، أو إذا كانت جميلة حقًّا ، ربما فى أربعة أو خمسة أشهر ، ولو أننى لا أتوقع ذلك ، فستهدأ أعصابه وسيحسم أمره ويصبح أكثر استعدادًا لزواجه . إنه ليس من المفروض أن يعيش راهبًا أربعة أعوام وهو فى بلاد أجنبية .. أليست النساء الأجنبيات من الجنس اللطيف ؟

ثم قال :

– ولكنَّ أُمَّكِ كانت على الدوام مُبْهَمَة لا يُسْبَرُ غورها ، فمنذ البداية الأولى كان يتملكها تأثر غريب .. كلا ، إننى لا أتحدث عنها بالسوء . فهى حكيمة ، ولم يُنْفَق ذهبى وفضتى من بين يديها بطيش ، وأنا لا أشكو ، ولم يحدث قط أن سَلَقَتْنِى بأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ كما تفعل بعض النساء . لقد

مرت بى أوقات كنت أتمنى فيها لو تفعل ذلك لعلها لا تلقانى بذلك الصمت الذى حيرنى حتى منذ البداية . أوه ، هذا ليس له أهمية الآن . لا أحد يفهم غرابة أطوارهن ونزواتهن وأهوائهن المفاجئة ، وميلهن إلى التغلب فى الرأى بلا أسباب ظاهرة ، ولكنها منذ شبابها كان عندها هذا العيب ، وقار ورزانة أشد مما تقتضيه مسائل الحياة اليومية من سهولة ويسر .. إنها تتمسك بفكر واحد فى واجبٍ تتخيله ، ومن ثَمَّ تصبح الحياةُ نفسها بالنسبة إليها أمرًا مرهقًا شاقًّا لا يحتمل .

ثم توقف فجأة عن حديثه ثائرًا مهتاجا فى غضب منكر عنيف لا عهد لى به من قبل ، تناول مروحة اليد من السيدة الثانية وبدأ يحرك الهواء أمام وجهه بحدَّة ، لقد وضع ابنى على الأرض وبدا أنه نسيه . واستأنف حديثه فى غضب :

– وهى الآن لديها وَهْمٌ نسائى عجيب ينحصر فى أن أول زواج لابننا يجب أن يثمر حفيدًا لنا ، واستحوذت عليها فكرة خرافية ، وهى أن الطفل سيكون عندئذ منحة من السماء . آه من النساء !! إنهن عنيدات متصلبات وأحسنهن جاهلات انغلقن على أنفسهن بعيدًا عن العالم !.

أغلق عينيه وحرَّكَ الهواء تجاهه بمروحة اليد فى صمت بضع لحظات، وزايله الغضب ، وعاودته نظرته المسالمة المعتادة ، وانفرجت أسارير وجهه وهو يبتسم فى مرح ، فتح عينيه وقدَّم الكعك لابنى فى عجلة قائلًا :

– كُلْ يا صغيرى ! ماذا عساه يهم ؟ لا تزعجى نفسك يَا بُنَيَّتِى . أَوَ

يستطيعُ ابْنٌ أن يعصى أباه ويعيش ؟ لا يمكن أن يقلقنى ويثيرنى ذلك .

كنت لا أزال غير مقتنعة ، وبعد فترة صمت كان لدىَّ مزيد يجب أن أقوله :

– ولكن ماذا يا أبتاه لَوْ رَفَضَ أن يتزوج خطيبته ؟ لقد سمعت أنه فى هذا الزمان المتغير...

لم يكن والدى مستعدًّا لسماع شىء عن ذلك بتاتًا، ولوَّح بيده فى حركة خفيفة ولم يدعنى أكمل ، وابتسم قائلاً :

– يرفض ؟ لم أسمع من قبل فى أى مكان أنَّ ابنًا يمكن أن يعصى أباه .. هَدِّئى من روعك يا بُنَيَّتِى ، فبعد سنة من الآن سينجب ابنًا وفقا للقانون من ابنة « لى » سيكون مماثلاً لابنك ، رجلنا الصغير !

وَرَبَتَ وجْنَةَ ابنى.

* * *

أخبرتُ زوجى بما قاله والدى، فاستمع لى وأجاب مستغرقًا فى التفكير:

– إن المشكلة فى كل ذلك قد ترجع إلى أن الأجنبية ليست على استعداد لتقبل مركزًا ثانويًّا .. ليس من عادات بلادهم أن يرتبط الرجال بزوجات ثانويات .

لم يكن لدىَّ ما أقوله فى إجابة فورية ، إذ لم يحدث لى أن فكرت فى

الفتاة الأجنبية ، وفيما تعتقده عن عاداتنا . أَلَمْ تنجح فى جَذْب أخى وإغرائه ؟ فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ لقد ذهب فكرى هكذا بعيدًا من أجل أخى وواجبه نحو والديه .

سألت :

– هل تعنى أنها تتوقع أن تظل الزوجة الوحيدة طوال حياتها ؟

كنت ساخطة قليلًا ، كيف تتوقع أن تحرم أخى من حقه الشرعى الذى يكفله له قانون بلاده ؟ هل تطلب منه أكثر مما طلبت أمى النبيلة المبجلة من أبى ؟

قلت ذلك لزوجى وأنهيت حديثى كما يلى :

– أعتقد أنه من السهل لو تَزَوَّجَتْ رجلًا من جنسنا أن تعطيه الحرية التى اعتادها . إذ لا يمكنها أن تجلب أساليبها وعاداتها الأجنبية إلى هنا ؟

نظر زوجى نحوى وابتسم ابتسامة بالغة الغرابة .. لم أستطع أن أفهمه . ثم تحدث قائلاً :

– افرضى أننى أبديتُ رغبتى فى اتخاذ زوجة صغيرة .. محظية ؟

أصبت برعب شديد مفاجىء وأحسست بشىء بارد كما لو كان ثلجًا يسدد ضرباته ويطعننى فى صدرى الأعزل . فقلت هامسة :

– أوه ، كَلَّا يا سيدى !! لن تستطيع أبدًا .. ليس الآن ! لقد أعطيتُك ابنًا!

قفزَ واقفًا على قدميه ، وَلَفَّ ذراعه حول كتفىّ . وتمتم :

– كلا ، كلا ، يا قلبى الصغير .. إننى لا أقصد ذلك .. لن أفعله .. وفى الواقع لن أستطيع .

ولكن كلماته الأخرى كانت مفاجئة ، وهى الكلمات التى تخشاها كثير من الزوجات ويتوقعنها ، أمَّا أنا أتوقعها منذ أن أحبنى . والآن – بدون سابق إنذار – دَفَعَ إلى قلبى كل الآلام المبرحة التى عانتها أمى ومئات الأجيال من النساء اللاتى أحببن أسيادهن وفقدن الحظوة عندهم . انخرطْتُ على حين غرة فى بكاء لم أَقْوَ على كبحه .

وإذا بزوجى يُسرِّى عنى مدمدماً .. بيد أننى لا أستطيع يا أختاه أن أخبرك بكلماته ، إذْ لو قيلت ثانية حتى فيما بيننا لأخجلتنى . إننى أستحى حين أفكر فيها .. كانت كلمات حب بالغة الروعة . توقف بكائى من نفسه، وشعرت بالراحة .

ساد الصمت بيننا فترة سألنى بعدها :

– ولكن لماذا بكيتِ ؟

نكست رأسى ، وأحسستُ بالدم يتصاعد سريعًا إلى وجنتىّ .

رفع رأسى بين يديه :

– لماذا ؟ لماذا ؟

وواصل السؤال بعزم وإصرار ، وكشأنى دائمًا حين أُجيب عن أسئلته، أفلتت الحقيقة من بين شفتى :

– لأن سيدى قد سكن قلبى .

ثم تلعثمت :

– وملأة تماماً ، وسوف ....

ولاذَ صوتى بالصمت طَوْعًا ، غير أننى وجدتُ الإجابة فى عينيه . ثم قال بصوت خفيض يفيض رقة وحنانًا :

– وماذا لو كانت تُحب أخاكِ هكذا ؟ إن طبيعتها لا تختلف عن طبيعة سائر النساء لمجرد أنها وُلدت فيما وراء البحار الغربية .. أنتن نساء ، وكلكن متشابهات فى أرواحكن ورغباتكن .

لم أكن قد فكرتُ فيها هكذا .. أرى أننى لم أكن أفهم شيئًا بوضوح . إن زوجى هو الذى يعلّمنى دائمًا .

– أوه ، إننى خائفة .. خائفة ! لقد بدأت أفهم قليلًا الآن .

ماذا سنفعل إذا كان هناك مثل ذلك الحب بين الفتاة الأجنبية وأخى ؟


الفصل السابع

7

جاء خطاب من أخى .. لقد كَتَبَ رسالة لى ولزوجى يلتمس فيها معاونتنا .. توسَّل إلىّ أن أتشفع له عند والديه . ثم راح يتحدث عنها الأجنبية – مستعملاً كلمات متألقة يصف بها ملاحتها ، ويقول إنها تشبه شجرة صنوبر مغطاة بالثلج لفرط جمالها .

ثم .. آه يا أختاه ! ها هو ذا يقول إنه تزوجها طبقًا لقانون بلادها ، وسيحضرها إلى البيت ، حيث تلقى الآن رسالة والدتنا التى طالبته فيها بالعودة ، وهو يرجو مِنَّا أن نساعده من أجل حياته نفسها .. فكل واحدٍ منهما يحب الآخر !

إننى حائرة ، فبسبب ما بينى وبين زوجى أبدو مرتبكة تماماً . لم أعد أستطيع الآن أن أستمع لحديث أمى .. إننى لا أتذكر حزنها ، ولا عصيان أخى لها ، ولا شىء غير هذا الذى يحثنى عليه أخى .. وإذا كانت تحبه كما أحب سيدى فكيف أستطيع أن أرفض لهما شيئًا ؟

سأذهب إلى أمى .

* * *

مرت ثلاثة أيام الآن يا أختاه منذ أن التقيت بأمى .. كنت قد أعددتُ نفسى لأمثل بين يديها فى تذلُّل .. لقد انتقيتُ كلماتى مسبقًا كما يختار العريس الحلى والمجوهرات لعروسه .. مضيتُ إلى حجرتها وحدى ، ووقفت أمامها ، تكلمتُ برقَّة وكياسة وأنا أتوسل إليها .

لم تفهم شيئًا على الإطلاق يا أختاه ! لقد دَبَّ النفور بين أمى وبينى . إنها تتهمنى فى صمتها بمصادفة الفتاة الأجنبية ، وبمناصرة أخى والوقوف إلى جانبه ضد أمه . وعلى الرغم من أنها لم تقل هذا ، إلا أننى أعرف أنها فى أعماقها تقول ذلك لنفسها . إنها لن تستمع لشىء إذا شرحتُه أو فسرتُه لها .

حدث هذا مع أننى خططتُ لحديثى معها بكل عناية ! فقلت فى نفسى:

– سأوقظ ذكرياتها عن زواجها نفسه ، وعن الأيام الأولى لحب والدى لها حين كانت فى أوج جمالها وعنفوان شبابها .

ولكن كيف لمثل تلك القوالب الشكلية الجامدة من الكلمات أن تحتوى عبير الحب الزكى ؟ إِن هذا كَمَنْ يحاول أن يحبس سحابة وردية داخل وعاء حديدى ، أو يرسم فراشات بفرشاة خشنة من الخيزران . وحين تكلمتُ مترددة لرهافة الموضوع ، وعن سحر الحب بين الشابين ، وعن ذلك الانسجام الخفى الذى يربط بين قلبين دون توقع ، تملكها الاحتقار والازدراء ، وقالت بغطرسة :

– ليس هناك مثل هذا الشىء بين رجل وامرأة ، إنها الرغبة فقط

.. لا تستعملى تعبيرات شعرية فيما يتعلق بذلك ، إنها الرغبة فقط .. رغبة الرجل فى المرأة ، ورغبة المرأة فى ابن . وإذا أُشبعت تلك الرغبة لا يبقى هناك أى شىء .

حاولت من جديد :

– هل تذكرين يا أماه حين تزوجتما أنت وأبى ، كيف تحدثت روحاكما ؟

ولكنها أغلقتْ شفتىَّ بضربة من أصابعها النحيفة الساخنة فوقهما .

– لا تتحدثى عنه .. كان فى قلبه مائة امرأة ، فإلى أى منهن تحدثت روحه؟

سألتها برقة وأنا أتناول يدها فتوسدت يدى وهى ترتجف ، ولم تلبث أن سحبتها .

– وقلبك يا أمى ؟

قالت :

– إنه خالٍ أجوف .. إنه ينتظر حفيدى ابن ابنى ، وحين سيتوجهون به ليقف أمام لوحات أسلافه يمكننى أن أموت فى سلام .

استدارت مُزْوَرَّةً عنى ، ورفضت أن تتحدث إلىّ أبعد من ذلك .

عُدْتُ حزينة . ترى ما الذى فرق بينى وبين أمى إلى ذلك المدى البعيد ؟

لقد صحنا عالياً ، ولكننا لم يسمع بعضنا بعضًا . أشعر أننى تغيرت ، وأعرف أن الحب غَيَّرَنى .

إننى أشبه بجسر ضعيف سهل الكسر يمتد عبر المسافة اللامتناهية بين الماضى والحاضر .. إننى أحتضن يد أمى ولا أستطيع أن أتركها ، لأنها دونى ستكون وحيدة ، ولكن يد زوجى تمسك بيدى .. تقبض عليها بإحكام .. لايمكننى على الإطلاق أن أَدَعَ الحب يرحل !

فماذا عن المستقبل إذًا يا أختاه ؟

قضيتُ أيامى أنتظر . وَبَدَوْتُ أحلم ، وأرى فى الحلم على الدوام سفينة بيضاء تمخر عباب مياه زرقاء ، وتمضى كطائر ضخم يسرع إلى الشاطىء ، وإذا استطعت لمددت يدى إلى منتصف المحيط وأمسكت بالسفينة وتركتها هناك حتى لا تجىء أبداً .. هل هناك طريقة أخرى يستطيع بها أخى أن يكون سعيداً بهذا الذى فعله ؟ لم يعد له مكان الآن فى بيته تحت سقف أبيه.

لكنَّ يدىَّ الضعيفتين ليس فى إمكانهما إيقاف أى شىء .. إننى أحلم فقط ، ولا أستطيع أن أفكر بوضوح وجلاء . لا شىء يمكن أن يعزل السفينة بعيداً سوى ابنى وهو يبتسم ويثرثر بكلماته الأولى ، إننى أبقيه بجانبى طوال اليوم ، ولكننى أستيقظ ليلاً وأسمع هدير الأمواج حولى ، وتندفع السفينة ساعة بعد ساعة ، ولا شىءيمكنه أن يوقفها ليمنعها من الاقتراب .

ما الذى سيحدث شبيهاً لذلك عندما يجىء أخى مستصحباً لها ؟ إننى أخشى ذلك الشىء الغريب .. إننى بكماءصامتة فى هذا الوقت من الانتظار، لا أعرف خيرًا ولا شرًّا ، إننى أنتظر فحسب .

يقول زوجى : إن السفينة البيضاء ستصل بعد سبعة أيام إلى الميناء عند فوهة النهر ، الابن العظيم للبحر ، الذى يتدفق إلى ما وراء البوابة الشمالية للمدينة . وزوجى لا يمكنه أن يفهم لماذا أتتبع الساعات متمنية أن تمتد وتطول إلى مدًى أبعد حتى اليوم الثامن. إننى لا أستطيع أن أصيغ له الكلمات لأعبر بها عن مخاوفى من هذا الشىء الغريب القادم .

إنه رجل ، كيف يستطيع أن يفهم قلب أمى ؟ لا يمكننى أن أنسى كيف تخشى مجىء أخى .. إن لم أذهب لأراها مرة أخرى . ليس لدينا الآن ما يقوله بعضُنا لبعضٍ ، فقط لا أستطيع أن أنساها ، وأنها وحيدة.

وأيضا ليس فى مقدورى أن أنسى أخى ، ولا تلك التى يحبها .. إننى أتمزق هنا وهناك كشجرة خوخ ضعيفة لا تقوى على مقاومة رياح عارمة ضارية .

* * *

لم أستطع أن أنتظر وقتَ فراغكِ يا أختاه ! جئتُ سعيًا على الأقدام ، تركتُ ابنى ، إذْ دفعتُ به إلى ذراعى حاضنته دون أن أبالى بصرخاته حين رآنى أغادر البيت . كلاًّ .. لا أريد شيأً ! يجب أن أعود مباشرة ، لقد أسرعت إليك لأخبرك ..

– لقد جاءَا ! أخى والمرأة الأجنبية جاءَا ! لقد جَاءَا منذ ساعتين وتناوَلا الطعامَ معنا . وهأنذى قد رأيتها ، وسمعتها تتحدث ، ولكننى لم أستطع أن أفهم شيئا مما تقوله . إنها غريبة ، حتى أننى ظللتُ أتفرَّس فيها دون إرادتى .

دخلا حينما كنا جالِسَيْنِ إلى مائدة الإفطار ، وإذا بحارس البوابة جاء إلينا مندفعًا لا يكاد يتوقف حتى ينحنى ، وقال وهو يلهث :

– هناك رجل عند البوابة ومعه شخص أو شكل لم أَرَ مثله من قبل ! ولا أعرف حتى إذا كان ذكرًا أم أنثى . إنه طويل القامة كرجل ، لكنَّ الوجه يبدو وجه امرأة !

نظرَ إلَيَّ زوجى ، ووضع العودين اللَّذَيْنِ يتناول بهما الطعام جانبا ، وقال بهدوء مجيبًا عن تساؤل عينى المندهشتين :

هاهما .

ثم ذهب إلى البوابة بنفسه ، وسرعان ما دخَلَ البيت . وقفتُ لأحييهما ، ولما رأيت الشخصية الأجنبية الفارعة الطول ، جَفَّتِ الكلماتُ فى فمى ، كنت لاأكاد أرى أخى بأية حال ، وانصبَّ شُعورى فقط عليها ، تلك الأجنبية بطول قامتها ونحافتها وهى ترتدى ثوبًا أزرق قاتمًا كان ينسدل إلى ما تحت ركبتها .

غير أن زوجى لم يكن مرتبكاً على الإطلاق .. دعاهما للجلوس إلى المائدة معنا ، وأمر لهما بشاى جديد وأرز .. لم أَقُلْ شيئاً . طفقتُ أنظر إليها فقط ، وأُعاود ذلك المرة تلو المرة .

وحتى الآن ما فتئت أقول مرارًا وتكرارًا :

– ماذا سنفعل مع تلك المرأة الأجنبية ؟ كيف يمكن أن تنتمى على الدوام إلى حياتنا ؟

لم أتذكر أن أخى يحبها .. إننى مرتبكة ومندهشة لوجودها هنا فى بيتنا .. هذا أشبه بحُلم ، وحتى حين يراه المرء وهو يحلم يبدو غير حقيقى ، وسرعان ما يزول ، لأنه أبعد ما يكون عن الواقع .

أنتِ تسألين : كيف تبدو ؟ إننى أعرف كيف أخبرك ، مع أننى - كما قلتُ لكِ - لم أفعل شيئًا سوى التفرس فيها منذ أن دخلتْ من الباب .. دعينى أفكر ماذا تبدو .

إنها أطول من أخى . شعرها مقصوص ، ولكنه لا ينسدل محتشمًا فوق أُذنيها ، ويبدو كأنه يطير مع الرياح فى الجهات الأربع ، لونه أسمر مشوب باصفرار يحاكى لون نبيذ عظام النمر .. عيناها بلون البحر تحت سماء عاصفة ، وهى لا تبتسم بسهولة .

وحينما رأيتها سألت نفسى على الفور : أهى جميلة ؟ ولكننى أجيب بأنها ليست مليحة ، فحاجباها ليسا رقيقين ناعمين مثل الفراشة كما نحب أن يكونا فى وجوه النساء . إنهما داكنان ومحدودان بدقة فوق عينيها المستغرقتين فى التفكير . ويبدو وجه أخى بجانبها أنضر ، بوجنتين أكثر استدارة . ومع ذلك فهى فى العشرين من عمرها وتصغره بأربعة أعوام .

وبالنسبة ليديها ، لو وُضِعَتَا بجانب يَدَىْ أخى وأخفينا جسديهما لَقُلْتُ : إن يَدَىْ أخى هما يدا المرأة ، إذْ أنهما ناعمتان ، ولحمهما زيتونى ، أما عظام يديها فبارزة تحت الجلد ، ورسغاها أكثر خشونة من رسغىَّ .

وحين شَدَّتْ على يدى أحسست براحتها خشنة قوية . ذكرت ذلك لزوجى عقب الإفطار فى لحظة كنا فيها وحدنا . فقال إن ذلك يرجع إلى لعبة تسمى « التنس » تلعبها النساء الأجنبيات مع أزواجهن لتسليتهم كما أتصور .. ما أغرب تودُّ د النساء الأجنبيات وسعيهن وراء الحب !

وقدماها أطول من قدمى أخى ببوصتين على الأقل كما بدا لى .. كم يكون ذلك مربكاً لكليهما !

وبالنسبة لأخى فقد كان يرتدى ثياباً غريبة ، وبدا لى أجنبيًّا فى أشياء عديدة .. إنه يتحرك بسرعة ولا يهدأ . وحين أنظر إليه لا أَرَى الشاب الخفيض الرأس ذا العينين اللتين لهما لمعان الفضة كما كان فى وقت مضى . إنه اليوم يرفع رأسه عالياً ، ولا يبدو الابتسام على وجهه ، إنه لم يكن يتحدث . وهو لا يضع أية خواتم أو حلى عَدَا خاتمٍ ذهبىٍّ بسيط فى الأصبع الثالث من إحدى يديه . وهذا الخاتم ليس مرصعًا بجوهر ثمين من أى نوع . أمَّا ملابس الغرب القاتمة الضيقة التى يرتديها فقد أبرزت شحوب وجهه بوضوح أشد .

وحتى عندما يجلس فإنه يحاكى الأجانب فى جلوسهم ، فيضع ساقًا فوق ساق . وهو يتحدث الأجنبية بطلاقة مع زوجى ومعها ، فتنثال الكلمات من أفواههم مُحْدِثَةً جَلَبَة كتلك الناجمة عن ارتطام الحَصَى بإحدى الصخور.

لقد تغير تماماً ، حتى عيناه تغيرتَا ، فلم تَعُودَا منكسرتين حزينتين كما

كانتَا من قبل ، فهما سريعتا الحركة ، جريئتان ، تنظران بجسارة تجاه الشخص الذى يتحدث معه . وهو يرتدى نظارة ذات إطار من الذهب وبعض الصدف القاتم اللَّافت للنظر لغرابته ، وتجعله يبدو أكبر سنًّا مِمَّا هو.

غير أن شفتيه ما زالتا كشفتى والدتنا ، رقيقتين منضغطتين معًا فى استرخاء ، لا يزال بهما أثر قديم من عناد الطفولة الذى كان يجىء دائمًا حين تُرْفَضُ له رغبة ، وبهذا عرفتُ أخى .

أظن أننى وابنى كُنَّا الصينيين الوحيدين بينهم . كانوا يقفون هناك فى بيتنا متلففين فى ثيابهم الغريبة ، يتحدثون بلسانهم العجيب ، ولم أكن أنا وابنى نفهم حديثهم .

كان عليهما أن يمكثا فى بيتنا حتى يستقبلهما أبى وأمى . وعندما تعرف والدتى بأننى سمحت بإقامتهما هنا سَتَشْتَاطُ غضبًا على ابنتها العاقَّة ، وسخطًا على السقف الذى سيؤويهما تحته .. إننى أرتعد ، ومع ذلك فما يريده زوجى يجب أن يُنَفَّذ . وفوق كل ذلك أليس هذا هو أخى ابن أُمٍّ واحدة لنا ؟

* * *

عندما جلسنا معًا لتناول الأرز ، لم تستطع استعمال العيّدان .. كان مشهدًا مسليًّا ، فضحكتُ خَفية ، وقد أخففتْ فى الإمساك بهما ، ولا حتى كما يمسك بهما ابنى بيديه الصغيرتين .. إنها تقبض عليهما بشدة ،

وانعقد حاجباها فى سعيها الجاد لتتعلم ، بيد أن يديها تفتقران إلى المهارة فى الأشياء الدقيقة .. إنها لا تعرف شيئًا .

وصوتها يا أُختاه لا يشبه أى صوت سمعتُه من امرأة . إننا نحب أن نسمع صوت المرأة خفيفًا ناعمًا كجدول ماء صغير ينساب بين صخرتين، أو كما تُغَرِّد الطيور الصغيرة على عيدان البوص . ولكن صوتها كان عميقًا وممتلئًا ، ولما كانت لا تتحدث إلَّا نادرًا فإن المرء يتوقف ليصغى إليها .. إنَّ صَوْتَها ذو نغمة ثرية كطائر السُّمَّان الذى يجىء وقت الحصاد فى الربيع ، حين يكون الأرز فى انتظار لِيُحْصَدَ ويكوَّم فى حزم . وحين تتكلم تنحدر كلماتها فى عبارات سريعة إلى أخى وزوجى . وهى لا تتحدث معى ، لأننى لا أفهمها وهى لا تفهمنى .

ابتسمت لى مرتين ، ابتسامة مشرقة سريعة ، تنبعث من عينيها مثل وميضٍ فضىّ تعكسه مياه جدول رقراق حين تسقط عليه أشعة الشمس، وحين تبتسم أفهمها ، فهى تقول :

– هل سنكون أصدقاء ؟

وتنظر كُلٌّ واحدة منا إلى الأخرى فى شك .

ثم أجيبها فى صمت :

– عندما ترين ابنى سأعرف ما إذا كنا نستطيع أن نكون أصدقاء أم لا.

ألبستُ ابنى سترته الحريرية الحمراء وسرواله الأخضر ، وجعلته

ينتعل الحذاء المطرز بأزهار الكرز ، ووضعتُ على رأسه قبعته المستديرة ذات الطوق الرفيع المزين بصور « بوذا » الذهبية الدقيقة ، وحول عنقه كانت تتدلى سلسلة فضية . لقد بَدَا فى زيّه هذا أشبه بأمير ، وأحضرتُه إليها .. وقف قُبالتها مفتوحَ الساقين ، وراح يحدق فيها بدهشة .. طلبتُ منه أن ينحنى ، فضم يديه الصغيرتين معًا ، وانحنى وهو يتمايل ويترنح لما بذله من جهد فى محاولته هذه .

تَفَرَّسَتْ فيه مبتسمة . وعندما انحنى أطلقت ضحكة بنبرة صوتها الطبيعية فبدت كنغمة صادرة من طَرْقَةٍ على ناقوس عميق ، ثم صاحت بكلمة حلوة مجهولة ، وأمسكت به وحملته قبالة صدرها وألصقت شفتيها بعنقه الناعم . سقطت قبعتُه ، ونظرت إلىَّ من فوق رأسه الحليق . يا لها من نظرة يا أختاه ! قالت عيناها :

– أَوَدُّ أن يكون لى واحد يُماثله تمامًا !

ابتسمتُ قائلة :

– إذًا سنكون صديقتين !

أعتقد أننى بدأت أَرَى لماذا يحبها أخى .

***

انقضى الآن اليوم الخامس منذ مجيئها دون أن يمثلا بين يَدَىْ أبى وأمى. انهمك زوجى وأخى عدة ساعات فى حديث مقلق بذلك اللسان الأجنبى، ولا أعرف ما الذى انتهيا إليه ، ومهما يكن ما توصَّلَا إليه فيجب

أن يتم إنجازه على مهل . وفى تلك الأثناء كنت أرقب المرأة الأجنبية .

إذا سَألْتِنِى يا أختاه عن رأيى فيها لما عرفت .من المؤكد أنها ليست مثل نسائنا . إن كل حركة من جسمها حُرَّة وغير مقيدة ، ومفعمة بالحيوية والرشاقة ، ونظرتها مباشرة وجريئة ، وعيناها تسعى إلى عينى أخى دون خجل . إنها تستمع إلى أحاديث الرجال ، ثم تقذف فى حديثهما بكلمة سريعة فيضحكان . لقد اعتادت على الرجال مثلما كانت السيدة الرابعة .

ومع ذلك فهناك فرق بينهما ، إذ يبدو لى أن السيدة الرابعة على الرغم من ثقتها فى جمالها فإنها كانت تشعر بالخوف فى حضرة الرجال ، وإنى أعتقد أن خوفها - حتى وهى فى أوج فتنتها - يرجع إلى خشيتها من اللحظة التى يبدأ فيها جمالها يخبو ، فلا يبقى لديها شىء تجذب به قلوب الرجال .

أما هذه الأجنبية فلا تخشى شيئًا ، على الرغم من أنها ليست جميلة مثلما كانت السيدة الرابعة ، وهى لا تزعج نفسها ، وتتقبل اهتمام الرجال بها كحق لها ، ولا تبذل أى جهد لتظفر بنظراتهم ، ويبدو أنها تقول : « هذه هى أنا .. إننى كما تروننى ، ولا أبالى أن أكون شيئًا آخر » .

وإنى أعتقد أنها ذات كبرياء شديد ، وهى على الأقل تبدو غير مكترثة - على نحو غريب - بالعقبات التى جلبتها لأسرتنا .. إنها تلاعب ابنى بتراخٍ وكسل ، وتقرأ كُتُبًا .. لقد أحضرت معها صناديقها العديدة الممتلئة بالكتب .. وتكتب فى الأدب .. وياله من أدب ! تفرست من فوق كتفيها

فرأيت الصفحة مغطاة بعلامات كبيرة ممتدة فى غير نظام أو اتساق ، ومعقوفة ومتصلة ببعضها بما يشبه الخطاطيف .. إننى غير قادرة على عمل أى شىء يماثل ذلك .. وهى مولعة بالجلوس فى الحديقة لتحلم دون أن تفعل شيئاً على الإطلاق . ولم يحدث أن رأيتها مرة تطرز شيئاً فى يديها .

وذات يوم خرجت مع أخى فى الصباح الباكر ثم عَادَا فى الظهيرة مُغَبَّرَيْنِ مُعَفَّرَيْنِ مُلَوَّثَيْنِ بالأتربة والطين .. سألت زوجى مندهشة : أين كانا ليعودا إلينا بمثل تلك الحالة ؟ أجاب :

– كانا فيما يسميه الغربيون نُزْهَة طويلة سيرًا على القدمين .

سألته فى فضول :

– ماذا تكون تلك النزهة ؟

فأجابنى :

– إنها سير طويل سريع إلى بقعة معينة على مسافة بعيدة . وقد ذهبا اليوم إلى قمة الجبل البنفسجى .

سألت بدهشة كبيرة :

– لماذا ؟

قال :

– إنهم يعتبرون ذلك متعة .

هذا فى منتهى الغرابة ! فهنا حتى المرأة المشتغلة بالزراعة تعتبر المشى هكذا لمسافة بعيدة عملًا شاقًّا .

وعندما قلت ذلك لأخى أجاب :

– كانت حياتُها فى بلادها حُرَّةً طليقة ، وهى تشعر بنفسها مقيدة فى هذه الحديقة الصغيرة خلف تلك الأسوار المرتفعة .

دُهشت بشدة حين سمعت ذلك . فقد بدا لى أن حياتنا بلا شك تُعَدُّ عصرية تمامًا وخالية من القيود القديمة . وسور الحديقة أقيم فقط للحفاظ على حُرْمَةَ البيوت ، حتى لا يتمكن أحد من بائعى الخُضَر أو الحلوى الجائلين من استراق النظر إلينا . وقد فكرت فى نفسى متسائلة :

– ماذا ستفعل فى أفنية البيت إذًا ؟

ولكننى لم أجد إجابة لذلك .

* * *

إنها تُظهر حبها لأخى بصراحة .. فى الليلة الماضية جلسنا فى الحديقة لنستمتع ببرودة الليل ، وجلستُ أنا فى مكانى المعتاد على مقعد الخزف الصينى ، على بُعْدٍ قليل من الرجال ، أمَّا هى فقد جلست بجوارى فوق «الدرابزين» القرميدى المنخفض الذى يحيط بالشرفة ، وبأسلوبها نصف المبتسم راحت – ونحن معًا ، حمرة الأفق عند غروب الشمس – تشير إلى شىء تلو الآخر ، وتسألنى عن اسم كُلٍّ منها ، وهى تكرر الكلمة من بعدى .. إنها سريعة التعلُّم ، وهى لا تنسى أَيًّا منها طالما سمعتها

صحيحة . كانت تكرر كل مقطع بصوت ناعم خفيض وهى تتذوق طريقة تنغيمه ، وتضحك قليلًا فى خجل حينما أُصَحِّحُ لها ما تخطىء فيه ، وهكذا سلينا أنفسنا بعض الوقت حين كان الرجلان يتحاوران .

ولما حلت عتمة الليل ، ولم نعد نميز الأشجار والأزهار والحجارة ، لزمت الصمت ، وانتابها القلق .. أدارت عينيها ناحية أخى ، وأخيرًا وقفت على حين غرة وتوجَّهت إليه وهى تتمايل وتتثنى فى مشيتها ، وكان ثوبها الأبيض الهفهاف يتطاير كضباب رقيق ، ضحكت وقالت له شيئاً بصوت خافت ، ثم وقفت إلى جانبه ومدت يدها إلى يده دون تحفظ .

حولتُ بصرى عنهما .

وعندما حملقتُ إليهما مرة أخرى ، متظاهرة بأننى أبحث عن شىء فى اتجاه الرياح ، كَوَّمَتْ نفسَها بجانب مقعده على أرض الشرفة المرصوفة بالقرميد ، وَوَضَعَتْ وجنتها على يده ! شعرتُ بغصَّة تعاطفًا مع أخى ، إذْ لا ريب أنه خَجِلَ مما أبدته المرأة من حُبّ وهيام بطريقة مبتذلة مكشوفة .. لم أستطع أن أَرَى وجهه فى الظلام ، غير أن الحديث قد توقف بأكمله ، ولم يكن هناك سوى دمدمة حشرات الصيف عبر الحديقة .. نهضتُ واقفةً وانسحبت .

ولَمَّا لحق بى زوجى بعد دقائق معدودات قلت له :

– هذه الأجنبية غير محتشمة !

ضحك ثم قال :

- أوه ، كلا .. إنه بالنسبة لَكِ فقط أيتها الصينية الصغيرة !

وخزنى السخط ، فاستدرت لأنظر إليه وسألت :

- هل تقبل إذًا أن أتشبث بيدك أمام الناس ؟

ضحك ثانية وهو ينظر إلىّ :

- كلا ، لأنك لو فعلتِ مثل ذلك فكم سيكون مخالفًا للاحتشام حقًّا !

أدركت أنه كان يضحك ساخرًا منى بعض الشىء ، ولما كنت لا أعرف لماذا فإننى لم أقل شيئًا .

إننى لا أفهم حريتها هذه ، ومع ذلك فالأغرب أننى عندما أتأمل وأُفكر مليًّا لا أتبين أىَّ لمحة شرّ فيها . إنها تجاهر بحبها لأخى ببساطة ، كطفل ينشد رفيق لَعِبه ، لا يوجد شىء خفى أو ماكر خبيث فيها .. ما أغرب هذه !! إنها ليست مثل نسائنا .

إنها كزهرة متفتحة فى شجرة برتقال برية ، نقية لاذعة ، لكنها بلا أريج أو عبير .

* * *

أخيرًا اتفقا على ما سيفعلانه .. إنها سترتدى ثوبًا صينيًّا ويمضيان معًا للقاء المبجلين المسنين .. وقد علمها أخى الطريقة المثلى التى تنحنى بها أمامهما . وكان علىَّ أن أسبقهما لأُمَهِّدَ الطريق وأحمل الهدايا .

لم أستطع أن أنامَ ليلًا ،إذْ كنت أُفَكِّر فى تلك الساعة.. شفتاى جافتان ،

وحين أُبلّلهما بلسانى أَجِدُهُ جافًّا أيضًّا داخل فمى . حاول زوجى أن يشجعنى بالضحك والكلمات الجريئة ، ولكنه حين يتركنى يعاودنى الخوف .. إننى أخذتُ بصراحة الجانب المضاد لأمى ، أنا التى لم أعْصِ رغبتها من قبل طوال حياتى .

من أين ستواتينى الشجاعة لأفعل هذا الشىء ؟ إننى مخلوقة خائفة ومتردِّدة دائماً ، وإذا تُرك الأمر لنفسى فإننى لا أجد فيه شيئًا غير الشر .. إننى أرى بوضوح حتى الآن ما يعتمل فى قلب أمى بخصوص ذلك الموضوع ، فحين أنفرد بنفسى أقول إنها على حق بالنسبة لعادات شعبنا.

إنه زوجى الذى غيرنى ، حتى أننى أصبحتُ أتجاسر – رغم خوف – على التحدث عن الحب ضد تقاليد أسلاف ، ولكننى أرتجف ..

إن المرأة الأجنبية هى الوحيدة الهادئة بيننا .

الفصل الثامن



8

إننى اليوم متعبة ، منهوكة القوى يا أختاه ، وكأننى أحس فى قلبى وتر قيثارة ظل مشدودًا بإحكام أيامًا عديدة ثم ارتخَى فجأة ، فماتت الموسيقى فيه .

لقد انقضت الساعةُ التى كنت أخشاها ! كَلَّا ، لن أقول كيف مضت .. سأخبرك بالموضوع كاملًا ، ومن ثم يمكنك أن تحكمى عليه بنفسك . أَمَّا بالنسبة لى فلن أخبرك بالنهاية قبل البداية .

بعثنا برسولٍ إلى والدُينا يحمل التماسنا أن يُسْمَحَ لنا بالمثول فى اليوم التالى ظهرًا . فعاد يقول إن والدنا قد غادر البيت إلى « تينتسين » لما سمع بوصول أخى ، وبهذا تجنب اللحظة العصبية .. هكذا كان دائمًا يتحاشى اتخاذ القرارات والفصل فى المسائل .. وقد حددت والدتى نيابة عنه ساعة الظهر لتستقبلنى أنا وأخى . ولم تشر إلى الأجنبية بشىء ، ولكن أخى صاح :

– إذا ذهبتُ فستذهب زوجتى أيضًا .

ذهبت أنا أولا إلى البيت فى اليوم التالى فى الساعة المحددة ، وسارت خادمة أمامى تحمل الهدايا .. انتقى أخى هذه الهدايا من البلاد الأجنبية ، وكانت كلها عجيبة وأشياء ممتازة يندر أن نراها فى مدينتنا .. ساعة صغيرة مطلية بالذهب فى بطن طفل مذهب ، وكلها لا يزيد ارتفاعها عن ست بوصات ، وساعة للمعصم مرصعة بالمجوهرات ببراعة ، وآلة إذا أُديرت بمقبض استطاعت أن تتكلم وتصيح ، ومصباح يشتعل دون نار ، ويُجَدِّدُ ضَوْءَهُ مهما ظل مشتعلاً ، ومروحة يد من ريش النعام بيضاء ككتلة من زهور الكمثرى .

مضيتُ بهذه الهدايا للمثول بين يديها .. كانت والدتنا قد بعثت بكلمة قائلة: إنها ستستقبلنا فى قاعة الضيوف ، وحين دخلت كانت جالسة هناك على مقعد ثقيل من الخشب الأسود المنقوش ، على يمين المنضدة الموضوعة أسفل لوحة الإمبراطور « مينج » .. رأيتها مرتدية ثوبًا من الساتان الأسود المطرز بخيوط الذهب ، وقد زَيَّنَتْ شعرها بحلى ذهبية . كانت فى يديها خواتم عديدة من الذهب مرصعة بالياقوت الأحمر والتوباز بمختلف أشكاله وألوانه . وانسجمت تلك الأحجار الكريمة مع وقار سنها .. كانت تتكىء على عصًا من الأبنوس والفضة . لم يحدث قط أن شاهدتها بمثل ذلك الجلال ، وتلك الفخامة فى المظهر الخارجى .

بيد أننى كنتُ أعرفها جيدًا ، لقد أنعمتُ النظر فى وجهها عن كثب لأتبين كيف كانت صحتها ، فسقط قلبى من الخوف . فلون ثيابها الأسود أكد نحافة وجهها بصورة جلية واضحة .. لقد أصبحت نحيلة

حتى أن شفتيها تقوست حتى كادت تُحاكى منحنيات الموت نفسه ، واتسعت عيناها وأصبحت غائرة كعينى مريض ميئوس من شفائه . وكانت الخواتم حول أصابعها سائبة وتصلصل حين تصطدم ببعضها ، وتصدر موسيقى قاتمة إذا حَرَّكت يديها .. تلهفتُ على سؤالها عن حقيقة صحتها ، ولكننى لم أتجاسر على ذلك ، لمعرفتى أن السؤال سيزعجها .. لقد توترت أعصابها لتحضر هذا اللقاء ، وهى بحاجة إلى كل قواها .

ولهذا فإنها حين استقبلتنى لم تنبس ببَنْتِ شَفَة .. قُدِّمَتْ إليها الهدايا، فتناولت كل واحدة منها من يد الخادمة ، ثم وضعتْهَا أمامها . عبرت عن شكرها بإحناءة وقورة من رأسها ، وأشارت إلى خادماتها اللاتى كُنَّ يقفن بالقرب منها لِتَلَقِّى أوامرها أن يحملن الهدايا إلى حُجرة أخرى ، غير أن قبولها لها شجعنى بعض الشىء ، فلو أنها رفضتها لكان ذلك معناه بلغة تقديم الهدايا أن أخى صار مرفوضًا . وعلى ذلك قلت :

– يا أمى المبجلة .. إن ابنك هنا وينتظر رِضَاءَكِ !

أجابت ببرود :

– لقد أخْبِرْتُ بذلك .

وغامرتُ بضعف وتردد معتقدة أن من الأفضل اطْلاعها فورًا بأسوأ الأخبار ، ومع ذلك شعرت بروحى تغوص فى قلبى ..

– لقد أحضرت المرأة الأجنبية .

تلقت ذلك بصمت .. لم أستطع أن أصل إلى شىء من تعبيرات وجهها الذى ظل جامدًا .

سألتُ يائسة دون أن أعرف ماذا أقول ، عدا ما كان مُخَطَّطًا له :

– أيمكنها الحضور ؟

أجابت بالصوت نفسه :

– دَعِيه يحضر.

ترددتُ ، دون أعرف كيف أواصل سبيلى إلى الإنجاز .. ألم تكن المرأة الأجنبية على العتبة ؟ توجهت إلى الباب حيث كانا ينتظران ، فأزحتُ الستار جانبًا ، وأخبرت أخي بما قالته والدتنا ، وأنه من الأفضل أن يذهب بمفردة أولا .

اكفهرَّ وجهه بتلك النظرة القديمة التى تذكرتُها فى صباه حين كان شىء يثير استياءَه . تحاوَرَ لحظة مع تلك الأجنبية بلغتها . رَفَعَتْ حاجبيها حين سمعت كلماته ، هزت إحدى كتفيها هزة طفيفة ، ووقفتْ تنتظر فى هدوء ودون مبالاة، وما كان من أخى إلاّ أن أمسك بيدها على عجل ، ودخَلاَ معًا قبل أن أتمكن من الحيلولة دون ذلك .

ما أغرب تلك الشخصية التى كان عليها أن تدخل إلى القاعة العظمى لأسلافنا ! وَقَفْت متعلقةً بالستارة وأنا أكاد أكون مسلوبة الحركة أمام ذلك المشهد . أول دم أجنبى غريب يتخطى هذه العتبة !وقد حفزنى عجبى من هذه الفكرة إلى أن أواصل التطلع إلى المراة الأجنبية ، حتى أننى

نسيت أمى فى ثانية ، على الرغم من أننى عرفتُ حينئذ – وأنا نصف واعية – أن عزم أخى على ألاَّ يدخل وحده ، لابد أنه أوقف فى لحظةٍ ميل أمى نحوه وتشوفها الطبيعى لأن تراه مرة أخرى ، فلم أملك سوى التعجب فى هذه اللحظة .

اختار أخى ثياباً من بلادنا لترتديها الأجنبية ، سترة من الحرير الأزرق الباهت ، ثقيلة جدًّا من المخمل الأسود غير المطرز .وقد أبرزت هذه الملابس القائمة بياض بشرتها التى حاكت بياض اللآلىء اللامعة تحت ضوء القمر ، وراح شعرها يتمادى ويتوهج حول وجهها كألسنة اللهب الصفراء ، وكانت عيناها فى زُرْقة سماء اجتاحتها عاصفة رعدية ، واسترخت شفتاها فى كبرياء . ودخلت مرتفعة الهامة فى عجرفة ، وقد دفعت برأسها إلى الوراء . التقت عيناها بعينى أُمِّى بلا خوف أو ابتسام .

ولما رأيتُ هذا ضغطت بيدى على فمي لأمنع صيحة كادت تفلت منى. لماذا لم يخبرها أخى بضرورة الدخول مسدلة العينين أمام من تكبرها سنًّا ؟ تأسفتُ كثيرًا من أجله بسبب سلوكها المتغطرس . لقد دخلت كما تدخل الملكة الحاكمة فى حضرة أرملة عجوز مهيبة من الأباطرة .

ثَبَّتَتْ أمِّى عينيها عَلى المرأة الأجنبية – تلاقت أعينهما ، وسرعان ما أعلنتا عدواتهما .. ثم أدارت أمى عينيها بكبرياء بعيدًا ناظرة إلى الفضاء فيما وراء الباب المفتوح . قالت المرأة الأجنبية شيئاً لأخى بصوت هادىء، عرفت فيما بعد ما سألته إياه .

– هل يجب أن أركَعَ الآن ؟

أومأ برأسه وَرَكَعا معًا أمام والدتنا ، وشرع أخى يتحدث بالكلمات التى سبق أن أعدَّها .

أيتها السيدة العريقة الجديرة بأسمى آيات التبجيل .. لقد عُدْتُ من البلدان الأجنبية بناءً على أمرك ، كى أحظى بالمثول بين أيدى والدىّ الكريمين . أنا ابنك الذى لا يستحق عطفك .. لقد أبهجنى أن والدتنا رأت أنه من المناسب أن تقبل هدايانا عديمة الجدوى . أقول هدايانا لأننى أحضرت زوجتى معى التى كتبت رسالة عنها بيد أحد أصدقائى، لقد أتت لتكون زوجةٍ لابنك ، وعلى الرغم من أن دماء أجنبية تجرى فى عروقها فإنها أرادت منى أن أخبر والدتنا المجبلة أنها منذ أن تزوجتنى أصبح قلبها صينيًّا ، وستأخذ طوعًا جنسيتنا وعادات أسرتنا وتتخلى عن عاداتها ، وسيكون أبناؤها جميعًامن أُمَّتنا السماوية ، مواطنين من الجمهورية الساطعة المتألقة ، وورثة الإمبراطوريةالوسطى ، وهى تقدم وَلاءَها .

الْتَفَتَ إلى المرأة الأجنبية التى كانت تنتظر فى هدوء حين كان يتحدث ، واعطاها إشارة .. انحنت بوقار فائق حتى لامست جبهتها الأرض أمام قدمى أمى .. لقد انحنت ثلاث مرات .. ثم انحنت مع أخى ثلاث مرات أخرى .. ثم نهضا معًا فى انتظار كلمات أمى .

لم تقل شيئا لفترة طويلة .. وظلت عيناها مُرَكَّزَتَيْنِ على الفضاء الفسيح فيما وراء الباب .. واستمرت هكذا عدة دقائق صامتة مرفوعة الهامة فى كبرياء .

يغلب على ظنى أنها كانت فى دخيلة نفسها حائرة إزاء جسارة أخى فى تحدِّيه بإدخال الأجنبية أمامها ، حين قالت إن عليه أن يأتى وحده .. أعتقد أنها كانت فى صمتها تتعجب كيف تواجه اللحظة العسيرة العويضة .. تصاعد الدم على شكل بقعة على خَدَّيْهَا ، ورأيت عضلة تنتفض فى فكها الرقيق ، ولكنها فى سلوكها الثابت الصاعد لم يكن يبدو عليها أية علامة من الارتباك .

جلستْ وكلتا يديها منثنيتان على الرأس الفضية للعصا .ولم تتذبذب عيناها وهى تحدق فوق رأسيهما . انتظر الاثنان أمامها .. وأطبق الصمت على القاعة ثقيلًا مرهقًا وهما ينتظران .

وفجأة انفرجت أسارير وجه أمى المتجهم .. لقد تغيرت ، وتراجع اللون بسرعة كما جاء ، وأصبحت وجنتاها شاحبتين .. سقطت إحدى يديها مرتخية فى حجرها ، ونكَّسَتْ عينيها نحو الأرض فى غموض ، وأَحْنَتْ كتفيها، وانكمشت فى مقعدها . وقالت وهى على وشك الإغماء :

– يا بنى .. يا بنى !! مرحبًا بكَ على الدوام فى بيتك .. سأتحدث فيما بعد.. والآن عليكَ بالانصراف .

رفع أخى عينيه إلى وجهها يسبر غَوْرَه .. لم تكن نظرته حادَّة قوية كنظرتى، ولكنه عرف أيضًا أن هناك شيئاً خاطئًا . تردد ثم حدق فى وجهى . رأيت أن فى جعبته مزيدًا يريد أن يتحدث عنه ، أن يحتج على برودها ، إلَّا أننى كنتُ جَزِعَةً من أجلها .. هززتُ له رأسى ، فتحدث بكلمة إلى الأجنبية ثم انحنيا وانسحبا .

هرولتُ إلى جانب أمى ، ولكنها أشارت إلَىَّ كى أظل بعيدة دون أن تتفوه بكلمة . كنت أتلهَّفُ على أن أسألها العفو ، لكنها لم تسمح لى بالتحدث ، وقد استطعتُ أن أرى أن هناك ألمًا خفيًّا يرهقها ، ولم يكن مسموحٌ لى بالبقاء، ولذلك انحنيتُ واستدرت خارجة على مهل ، ولكننى نظرتُ ورائى من الفناء فرأيتها تسير ببطء عائدة إلى مسكنها وهى تتكىء بكل ثقلها على جاريتين .

تنهدتُ وعدتُ إلى بيتى .. لا أستطيع أن أفعل شيئًا من أجل المستقبل ، أو أفكر فيه كما يجب .

أما بالنسبة لهذين – أخى والأجنبية – اللذين حَطَّمَا قلب أمى ، فقد ذَهَبَا بعيدًا ليستريحا من ذلك اليوم فى نزهة من نزهاتهما التى يسيران فيها طويلًا ، وحين هبط الليل عَادَا ،ولم نتجاذب الحديث معًا .

* * *

لقد طال غيابُكِ يا أختاه ! ثلاثين يوماً بل إنها بلغت الأربعين تقريبًا منذ رأيتك .. شَهر قمرى كامل وأكثر ! هل كانت الرحلة هادئة ؟ أشكر الآلهة لأنك عُدْتِ .

نعم ، إن ابنى بخير .. إنه الآن يقول كل شىء ، وصوت كلامه يجرى ثابتًا خلال اليوم كجريان الماء فى العزيز .. إنه لا يسكت إلاَّ فى أثناء النوم فقط.. يا لَحدِيثِه العذب يا أختاه ! كلماته رقيقة ومتكررة وتثير فينا الضحك، نحن نحرص فى كثير من الأحيان ألاَّ ندعه يرانا نبتسم ، لأنه إذا

عرف أننا نضحك منه لَغَضِبَ وضرب الأرض بأخمص قدميه الصغيرتين. إنه يعتبر نفسه رجلاً . حبذا لو شاهدتِهِ وهو يسير بجانب والده بساقيه السمينتين منفرجتين حتى يلحق بخطى والده السريعة !

إنك تسألين عن زوجة أخى ! آه .. إن جوابى لكِ ليس إلا تنهيدة .. فالأمور ليست على ما يرام مع أخى .. نعم ، إنهما ما زالا هنا ينتظران .. لم يتقرر شىء بعد .. وأخى قَلِق ، فالأيام تمر فى كسل دون أن تأتى بقرار .. لقد تعلَّم نفاد الصبر من الغرب ، وهو ينشد تلبية رغباته على الفور ، ناسياً أن الوقت فى بلادنا لا يساوى شيئًا ، وأن المصائر والأقدار قد تظل مجهولة حتى لو حمَّ القضاء . ليس هناك تعجل يمكن أن يحث الزمن على الإسراع ، ولكننى سأخبرك .

بعدأن قَدَّمَا نفسيهما لوالدتى ، دارت الأيام ، ثمانية أيام طويلة . انتظرنا، ولكن لم تأت كلمة .. فى أول الأمر كان أخى يتوقع فى كل ساعة أن تأتى رسالة مًّا .. لم يسمح للأجنبية أن تفك أحزمة الصناديق الضخمة ، التى أحضر اها معها ، لإفراغ محتوياتها ، وهتفت صائحاً :

– لا داعى إلى ذلك الآن .. إنْ هى إلا يوم أو يومان .. كان قلقًا مزعزعًا فى مسلكه ، وسرعان ما يقهقه عالياً على لا شىء .. يمرح أحيانًا ، ويصمت فجأة أحيانًا أخرى بدون أن يسمع ما قيل له . كان أشبه بإنسان يصغى بلا انقطاع لبعض الأحاديث أو الأصوات التى لا يسمعها أحد سواه فى الحجرة .

غير أنه حين مر يوم وراء يوم دون أن تأتى رسالة لهما ، غضب وأصبح سريعَ التهيج والانفعال ، وكَفَّ عن الضحك على أى شىء ، وبدأ يتذكر ويعيد النظر فى الساعة التى فيها مع والدته ، وطفق يتحدث عنها مرارًا وتكرارًا ، ملقياً اللوم الآن على الأجنبية التى لم تكن أكثر تواضعًا أمام أمه ، ثم لا يلبث أن يلوم والدته لغطرستها وعجرفتها معلناً أن زوجته كانت على حق ، ومن السخف فى هذه الأيام الانحناء أمام أى أحد ونحن فى عهد الجمهورية . وحين سمعتُ ذلك أخذنى العجب وقلتُ :

– ألم تعد والدتنا هى والدتنا منذ أن أصبحت لنا جمهورية ؟

غير أنه أصبح نافد الصبر ، ويثور مغتاظاً لأى شىء ، ولا يسمع شيئًا مما يُقال له .

ولكننى يجب أن أكون عادلة منصفة للأجنبية ، فهى فى الحقيقة لم تعترض على الانحناء أمام والدته ، وقيل لى إنها قالت :

– إذا كانت هذه هى عادتكم فإننى سأفعل ذلك بلا ريب ، على الرغم من أننى أعتقد أنه من السخف بعض الشىء أن أنحنى بهذا الشكل أمام أى شخص !

كانت هادئة ، أكثر هدوءًا من أخى ، وأكثر ثقة بالمستقبل : كانت تفكر فيه على الدوام ، وكيف تنجح فى إعادة السعادة إليه . وفى بعض الأحيان عندما تراه غاضًبا تأخذ فى ملاطفته، وتمضى به إلى الحديقة أو إلى خارج البوابة .

وذات مرة نظرتُ إليهما من النافذه ، ورأيتهما هناك فى الحديقة . كانت تتحدث إليه بجد ، وأخَيرا عندما ظل لا يجيبها ، واستمر ينظر إلى الأرض بكآبة وعبوس ، مدت يدها إلى وجنته برفق ، وحملقت فى وجهه نصف مبتسمة ، ونصف حزينة . ولا أعرف ماذا كانت تقول له عندما ينفردان معًا هكذا . أن أخى بعدئذ تحسَّن قليلاً ، وأصبح أكثر هدوءًا ، وإنْ كان باله لم يرتح قط ، وظل متوتراً من جراء الانتظار .

ولكنها لم تكن تُلاطفه هكذا على الدوام . إذ كانت تهز كتفيها فى بعض الأحيان بطريقتها الخاصة ، وتدعه وحده غير أن عينيها كانتا تُتابعانه بتلك النظرة العميقة التى كانت تصوبها إليه كلما تفرست فى وجهه .فإذا لم يأت إليها فإنها تحبه وتُحادثه بكلمات لا أستطيع أن أفهمها .

وقد بدأت أيضاً تتعلَّم منى شيئًا من موسيقى القيثارة القديمة ، وسرعان ما تعلمت ما يكفى لكى تعزف لحنًا مصاحبًا لأغانيها . إن صوتها حينما تغنى ممتلىءَ ومثير فى عمقه ، على الرغم من أنه بالنسبة لآذاننا – التى اعتادت على النغمات الرقيقة العالية للصوت البشرى – كان يتصف بعذوبة خشنة ، وهى تستطيع أن تجعل أخى يندمج على الفور منفعلاً مع أغانيها ، وأنا لا يمكننى فهم الأغانى ، ولكننى حين أسمعها أحس بألم خفى غامض مبهم .

وأخيًرا ، عندما لم تصل رسالة من أمى ، بدا أنها كَفَّتْ عن التفكير فى الموضوع ، وحوَّلت ذهنها إلى الاهتمام بأشياء أخرى . إن الأجنبية

تذهب يوميًّا لمسافات طويلة سيرًا على الأقدام وحدها ، أو مع أخى . أدهشنى أن أخى يدعها تذهب وحدها ، إذ لا شك أن ذلك لا يناسب امرأة، ولكنه لم يقل شيئًا ، وكانت تعود وفى جعبتها الكثير للحديث عن الطرقات ، متعجبة من مناظر لم يلاحظها الآخرون ، ومن رؤيتها لأماكن غريبة رائعة الجمال . وإنى أتذكر يومًا عادت فيه تبتسم ابتسامتها السريعة ، كما لو أن هناك ابتهاجًا فى أعماق نفسها لم يحس به الآخرون ، وحين سألها أخى بخصوصه ، قالت بلغتها ما أخبرنا به أخى فيما بعد :

– شاهدت جمال الأرض وهى تضع حبوبها. فى متجر الحبوب فى الشارع الرئيسى كانوا يضعون فى سلال بنيةصغيرة من الأغصان المجدولة شتى الحبوب بألوانها المحبوبة .. الذرة الصفراء ، الفول الأحمر، الفاصوليا الجافة الرمادية ، السمسم العاجى اللون ، فول الصويا بلونه العسلى الشاحب ، القمح المتورد اللون ، الفول الأخضر .. لم أستطع أن أتجاوزها مسرعة. يالها من لوحة وَدِدْتُ أن أرسمها لو أتيح لى أن أغمس فيها قلمًا من الباستيل!

لم أتمكن من فَهْم ماذا تعنى بهذا كله ؟ ولكنها هى هكذا .. إنها تعيش داخل ذاتها .. ترى الجمال حيث لا يراه غيرها.. أنا لم أفكر فى متجر الحبوب بهذا الشكل، صحيح أن الحبوب هناك متعددة الألوان، ولكنها هكذا بوساطة الطبيعة .. لم يقم أحد بتغيير ألوان الحبوب ، ولا شىء يدعو للدهشة .. فهى دائماً هكذا .. ومتجر الحبوب فى أعيننا ليس إلا مكاناً لشراء الطعام.

بيد أنها ترى كل شىءبعيون غريبة، على الرغم من أنها نادرًا ما كانت تُعلّق على ما تشاهده ، مكتفية فقط بإلقاء الأسئلة ، وتختزن إجاباتها فى ذاكرتها.

ولما كنت أحيا معها يومًا بعد يوم فقد أحببتها وأنا أنمو فى كنفها .. وعندما أرقبها كنت أَرَى أحيانًا بعض الجمال فى بعض نظراتها وأساليبها الغريبة ، ولاشك أنها كانت على درجة كبيرة من الكبرياء . إنها صريحة إلى أبعد حدود الصراحة ، ولا يكبحها شىء فيما تود أن تُدْلى به ، حتى مع أخى - زوجها - لم تكن متواضعة قط . ولعل أغرب الأشياء جميعاً أنه لا يحتمل هذا من امرأة صينية، فى حين يبدو أنه يجد منها ذلك مبعثاً لسروره، ويغضُّ الطرفَ عَمَّا قد يُحدثه هذا من وخزات الألم ، بل ويزداد افتتاناً بها. وعندما يراها تتحول لتتسلى بدراساتها أو قراءاتها ، أو حتى باللعب مع ابنى، ينتابه القلق ، ويحدق فيها المرة تلو المرة ، ويتحدث معها . وأخيراً إذا لم تعره انتباهًا فإنه يدع تفكيره الطويل جانباً ويمضى إلى جانبها ، فتستحوذ عليه من جديد. وهذا لا يشبه شيئًا سبق أن رأيته قط ، ذلك الحب بينهما .

* * *

وأخيراً جاء يوم .. أظن أنه كان الثانى والعشرين بعد مقابلة أمى ، حيث أرسلت تستدعى أخى، وأبدت رغبتها فى أن تلقاه وحده . كانت كلمات الرسالة رقيقة حتى بلغت حَدَّ الكرم واللطف ، فبعث ذلك الأمل

بين جوانحنا جميعًا ، وذهب أخى إلى هناك على الفور ، وانتظرت أنا والأجنبية عودته .

عاد بعد ساعة ! اجتاز الباب الأمامى بخطى واسعة ، وقدم إلى الحجرة التى كنا نجلس فيها . كان غاضباً ، متجهم الوجه، مقطّبَ الجبين، وطفق يقول مراراً وتكرارا : إنه سينفصل عن والديه إلى الأبد . لم نستطع فى أول الأمر أن نتبين شيئًا مرتبًا منظمًا من حديثه ، ولكننا أخيرًا حين ضممنا هذا بذاك وصلنا إلى بعض الحقيقة .

يبدو أنه عندما كان فى طريقه إلى لقاء والدته كان مفعمًا بالحب والرقة والحنان ، والرغبة فى استمالتها واسترضائها ، ولكنه قال إنها منذ البداية لم ترغب فى تقديم أية تنازلات ، لقد استهلت حديثها بالتأكيد على صحتها السيئة ، قائلة :

– لن يمضى وقت طويل حتى تنزعنى الآلهة لأرحل إلى دائرة أخرى من الوجود .

تأثر بكلماتها فقال متوسلًا :

– لا تقولى ذلك يا أمى ! ما زال أمامك متسع من الحياة لترى أحفادك .

وقد ندم على الفور أنه نبهها إلى تلك الفكرة .

ردت بهدوء :

– أحفاد ؟ آهٍ يا بنى، من أين سيأتينى أى حفيد إلَّا من صُلْبك ؟ وابنة «لى » ، زوجة ابنى ، لا تزال عذراءَ تنتظر !

ثم راحت دون استخدام مزيد من الكلام المهذب تتحدث ببساطة وتحثه على الزواج من خطيبته ليمنحها حفيدًا قبل أن تموت . عندئذ قال : إنه الآن متزوج . فقالت بغضب : إنها لا توافق البتة أن تكون الأجنبية زوجة له .

هذا ما جمعناه ورتبناه مِمَّا قاله .. إننى لا أعرف ما جرى بينهما أكثر من ذلك .

لكن «وانج دا ما» الخادمة المخلصة ، تقول إنها أصاخت السمع من خلف الستارة ، وأن الحديث الساخن بينهما تطاير وتناثر وتطور بشكل غير متوقع ، على نحو غير ملائم بين أم وابن ، فقد كان كقصف الرعود عبر السماء ، وهى تقول إن أخى قد استمسك بالصبر إلى أن هددته أمى بحرمانه من ميراث الأسرة ، عندئذ قال لها بمرارة :

– وهل ستعطيك الآلهة ابنًا آخر حتى تُلْقى بى بعيدًا ؟ وهل سيَخصبون رَحِمَكِ مرة أخرى فى مثل هذه السن ؟ وهل ستُطَأْطِئِين رأسك وتنزلين إلى مستوى أدنى وتأخذين ابن إحدى المحظيات ابنًا لكِ ؟

لا شك أنها كانت كلمات غير ملائمة من ابن !

ثم اندفع بقوة خارج المدخل ، وهَرْوَلَ قُدُمًا خلال الأفنية لاعِنًا أسلافه .. جثم صمت عميق على حجرة أمى ، ثم سمعت « وانج دا ما » عويلا .. كانت أمى تنوح .. دخلت « وانج دا ما » على وجه السرعة . لكن أمى صمتت فى الحال ، وسألت الخادمة بصوت خافت وهى تعض شفتيها أن تعاونها فى الذهاب إلى فراشها .

من المخجل أن يتفوَّه أخى بمثل هذا الكلام لأمى ! إننى لا ألتمس له العذر مهما كان السبب .. كان يجب أن يتذكر سِنَّها ومكانتها .. إنه يفكر فقط فى نفسه .

أوه ، إننى أحيانًا أمقتُ الأجنبية لأنها تحمل قلب أخى فى راحة يدها تمامًا ! أتوق إلى الذهاب لأمى على الفور ، لكن زوجى توسل إلىَّ أن أنتظر حتى تستدعينى .. أمرنى أيضًا بالانتظار ، لأننى إذا ذهبتُ سيبدو ذلك عملًا ضد أخى ، ولما كان يتناول الآن أرزنا ، فذهابى سيكون جافًّا فظًّا ، ولهذا لم يكن لى ملاذ سوى الصبر .. ويا له من طعام فقير لقلب قلق، يا أختاه !

وهكذا بقيت الأمور معنا .

* * *

سَرَّنى بالأمس أن السيدة « ليو » جاءت لزيارتنا .. قضينا يوماً عسيرًا تذكرنا فيه اليوم السابق حين غضبت أمى على أخى ، فلم يثمر لقاؤهما غير خيبة الأمل .. أخذ أخى يتسكع فى الحجرات ، لا يكاد يُحادث أحدًا ، ويحملق من خلال النافذة إلى الخارج . وكان إذا التقط كتابًا ليقرأه فإنه يلقيه بسرعة ليختار كتابًا آخر ، لا لشىء إلَّا ليعجل بطرحه جانبًا .

أمَّا الأجنبية حين لاحظته بهذا الشكل فقد انسحبت إلى أفكارها مع أحد كتبها الصغيرة .. وشغلتُ نفسى بابنى حتى لا أحتاج إلى الاقتراب منهما .. غير أن خيبة الأمل جثمت على البيت ثقيلة مرهقة ، حتى أنَّ مَرَحَ

زوجى عندما يجىء ظُهْرًا لتناول الأرز ، نادرًا ما كان يُخفف من كآبة أخى.. ولم تخرج الأجنبية عن صمتها ، لذا كان مجىء السيدة « ليو » بعد الظهر أشبه برياح باردة نقية تهب مخترقة حرارة كئيبة مُمِلَّة فى أحد أيام الصيف .

كانت زوجة أخى تجلس حاملة كتابها فى يدها بلا مبالاة كما لو كانت نصف حالمة فوقه . تَفَرَّسَتْ قليلًا فى السيدة « ليو » ، لم يكن يزورنا أحد منذ مجىء أخى ، فقد عرف أصدقاؤنا موقفنا الصعب فلم يجيئوا لزيارتنا بدافعٍ من كياستهم ، ومراعاتهم لأحاسيس الآخرين . كما أننا لم نَدْعُ أحدًا ، لعدم معرفتنا كيفية تقديم الأجنبية إليهم. كنت أدعوها زوجة أخى مجاملة له ، مع أنها حتى الآن ليس لها موقف شرعى حتى يعترف أبى وأمى بها .

إن السيدة « ليو » لم تكن مُحْرَجَةً على الإطلاق .. لقد أمسكت بيد الأجنبية ، وسرعان ما تحدثت الاثنتان بسهولة ويسر ، وضحكتا أيضًا . لم أعرف ماذا تقولان ، إذْ كانتا تتحدثان بالإنجليزية . وبدا أن الأجنبية تيقظت وانتبهت فجأة .. كنت أرقبها ، فدهشت لذلك التغيير .. إنَّ لها هاتين الشخصيتين ، واحدة صامتة ، منعزلة ، كئيبة بعض الشىء ، والأخرى هى هذه المبتهجة ، بل وتبدو شديدة المرح .. كنت أَرقبهما ، فكرهتُ السيدة « ليو » لفترة قصيرة ، لأنها بدت غير مبالية بصعوبة موقفنا، ولكنها حين نهضت مستوية على قدميها لتنصرف ، شدَّت على يدى ، وقالت بلغتنا :

– إننى آسفة ، هذا صعب على كل إنسان .

واستدارت وقالت شيئًا للمرأة الأخرى ، شيئًا جعل عينيها الزرقاوين الداكنتين فجأة تتألقان كالفضة ، حيث اغرورقتا بالدموع . وقفنا ثلاثتنا، ثم أخذ بعضنا يتطلع إلى بعض ، وقد تَرَدَّدَتْ كل منا فى الحديث ، وفجأة – ودون سابق إنذار – استدارت الأجنبية وخرجت مسرعة من الحجرة . كانت السيدة « ليو » ترقبها بوجه اكتسى بشفقة هادئة ، وعادت تردد :

– هذا صعب على كل إنسان . هل العلاقة بين الاثنين سعيدة ؟

ولما كانت السيدة « ليو » صريحة كزوجى فقد أجبتها دون مواربة :

– هناك حب بين أخى وبينها ، ولكن أمى تموت من خيبة أملها .

وأنت تعلمين كم هى ضعيفة واهنة الآن ، وقد أوغلت بها السن إلى هذا الحد .

تنهدت وهزت رأسها :

– آه .. إننى أعرف !! كثيرًا ما أَرَى ذلك الآن .. هذه أيام قاسية بالنسبة للمسنين .. ليس هناك تفاهم ممكن بين الكبار والشباب . من الواضح أنهم قد انفصل بعضهم عن بعض كما يحتز سكين مرهف النصل غصنًا من شجرة .

قلت بصوت خافت :

– هذا خطأ كبير

أجابت :

- كلَّا ، ليس خطأً ، إنما هو شيء محتوم يتعذر اجتنابه ، وهذا أكثر ما يدعو إلى الحزن فى العالم .

* * *

بينما كنا ننتظر يائسين عاجزين لَاعَوْنَ لنا ، نتطلع نحو إشارة أو علامة تهدينا سواء السبيل ، فإننى لم أستطع أن أنسى أمى ، فكرتُ مليًّا فيما قالته السيدة « ليو » بأن هذه الأيام محزنة بالنسبة لكبار السن ، ولكى أُسَرِّىَ عن نفسى قلت :

- سآخذ ابنى لزيارة وَالِدَى أبيه ، فهما أيضًا مُسِنَّان ، تعلو وجهيهما أماراتُ الأَسَى والاكتئاب .

لقد رَقَّ قلبى لكل هؤلاء المسنين .. ألبستُ ابنى سُترة الساتان الطويلة التى تشبه سُترة أبيه ، وكنا قد ابتعنا له فى عيد ميلاده الأول قبعة من المخمل الأسود مثل قبعات الرجال ، وكانت تُناسب رأسه بإحكام ، ولها زر أحمر فى أعلاها ، فوضعتها فوق رأسه ، ولمستُ ذقنه ووجنتيه وجبهته بفرشاة كانت مغموسة فى صبغ الزنجفر القرمزى ، ولما أنجزتُ ذلك بلغ من الجمال حدًّا خشيت معه أن تعتبر الآلهة جماله أكثر مما يستحقه كائن بشرى فتعمل على إهلاكه .

وهذا ما اعتقدته جدته أيضًا حين رأته ، فحملتْهُ واحتضنتْهُ ، فاهتزت وجنتاها المستديرتان من الفرح والضحك ، وقد استنشقت بشرته التى يفوح منها أريج العطر ، وأخذتْ تُردد فى نشوة وابتهاج غامر :

- آه يا صغيرى !! آه يا بْنَ ابنى !

لقد هزنى انفعالها العاطفى ، وأنَّبْتُ نفسى لأننى لم أُحضره إليها مرارًا ، ولم آسف أننا أخذناه لأنفسنا ؛ فهذا كان جزءًا محتومًا مِمَّا يتعذر اجتنابه .. ذلك الذى تحدثت عنه السيدة « ليو » . ولكننى شعرت بالأسى لهؤلاء الذين تتقدم بهم السن حتمًا دون أن يروا استمرارًا لوجودهم ، ولهذا وقفتُ أبتسم وهى تهيم بالطفل .. ثم نَظَرَتْ إليه من جديد وقالت بسرعة ، وهى تدير وجهه بيديها من خديه يمينًا ويسارًا :

- ولكن ما هذا ؟ إنكِ لم تفعلى شيئًا لتقيه من الآلهةِ ! ما هذا الاستخفاف واللامبالاة ؟

ثم استدارت نحو الجوارى وصاحت :

- احضرن قرطًا ذهبيًّا وإبرة !

كنت قد فكرت قبل ذلك أنه يتعين علىّ أن أثقب أُذنه اليسرى ، وأُعَلِّقَ فيها قرطًا ذهبيًّا لأخدع الآلهة كى يظنونه بنتًا لا جدوى منها لهم .. إنها وسيلة قديمة لتحاشى الموت المبكر للابن الوحيد . ولكنكِ تعرفين يا أختاه مدى رقة لحمه ، لقد تقلص جسمى ألمًا من أجله ، وهذا ما حدث لى الآن أيضًا ، ولكننى لم تواتنى الجرأة على أن أُنازع حماتى وأجادلها فى حكمتها .

إن ابنى حين لامَسَتْ الإبرةُ شحمةَ أُذنه الصغيرة صرخ واتسعت عيناه رعبًا ، وجذب فمه إلى أسفل ، حتى أن جدته حين رأت ذلك لم تَقْوَ

على ثقب أُذنه ، وأسقطت الإبرة . وأخذت تهمهم وتدمدم لتهدئته، وطلبت خيطًا من الحرير الأحمر ، وربطت به القرط حول أذنه دون ثقبها . عندئذٍ ابتسمَ ، فأدخلت ابتسامته السرور على قلبينا معًا .

ولما رأيت مكانة ابنى بالنسبة لجدته وصلتُ إلى فَهْمٍ عميق لمدى الألم الذى تُقاسيه أمى .. إن ثمرة حياتها هو حفيدها الذى لم يُولَد بعد .

ولكننى كنتُ سعيدة حين أدخلتُ السرور على قلب جدة ابنى ، قد خفف ذلك بعض الشىء مما أشعرُ به من أَسًى وحزن من أجل المسنين .

* * *

لقد سُرَّتِ الآلهة يا أختاه لأننى كنت بارَّة ومضيت بالأمس مع الطفل إلى جدته لأبيه ، ففى هذا الصباح أتى إلينا رسولٌ يحمل رسالة من أمى . كانت معنونة باسم أخى ، ولم يكن فيها شىء من كلماتها الغاضبة ، وطلبت من أخى ببساطة أن يذهب إلى البيت . وقالت إنها لن تتحمل مزيدًا من المسئولية تجاه الأجنبية .. كانت المسألة ضخمة بالنسبة إليها ، ويجب أن يتولى والدنا وكبار رجال العشيرة اتخاذ قرار بشأنها .

وفى الوقت نفسه قالت إن أخى يمكنه أن يُحضرها معه إلى البيت ، وعليها أن تعيش فى القاعة الخارجية ، إذ ليس من اللائق أن نجعلها تختلط بالمحظيات وأطفالهن . ثم انتهت الرسالة .

دُهشنا جميعًا إزاء ذلك التَّغَيُّرِ فى عقلية أمى .. اجتاح الأمل نفس أخى فى الحال ، فارتسمت الابتسامات على وجهه ، وهو يصيح مرددًا :

– كنت أعرف أنها ستتخلى عن عزمها فى النهاية ! فأنا فوق كل شىء ابنها الوحيد !

وعندما ذكَّرته بأنه لا يوجد اتجاه منها على أنها رضيت بالأجنبية ، قال :

– طالما كانت داخل الأبواب فسيحبها الجميع .

عندئذ لم أقل شيئًا ، لعدم رغبتى فى تثبيط همته ، ولكننى فى قلبى كنت أعرفُ أن النساء الصينيات لا يحببن الآخرين بسهولة ، ومن المرجح أن النسوة سيتذكرن ابنة «لى » التى تنتظر إتمام زواجها .

سألتُ رسولَ أمى سرًّا ، فأجاب أنه فى الليلة الماضية اشتد المرض على أمى حتى أنهم جميعًا خشوا فى تلك اللحظة أن ترحل إلى مقر الموتى . ارتفعت الصلوات ، واستُدعى الكهنة ، فتحسنت حالتها ، وفى الصباح عُوفيت بمعجزة ، حتى أنها استطاعت أن تكتب الرسالة بخط يدها .

لقد فهمت فى الحال ما حدث حين رأت الموت يدنو منها ، خشيت ألَّا يعود ابنها إلى بيته أبدًا ولا إلى تأدية واجبه ، فأقسمت فى تلك اللحظة أنها ستستدعيه إذا حفظت الكهنة حياتها .

أحسَّ قلبى بالألم إزاء مَذَلَّتِهَا ، وتَلَهَّفْتُ على الذهاب إليها فورًا ، ولكنَّ زوجى قال :

– انتظرى ! ليس لديها قوة لتحتمل أكثر من شىء فى وقت واحد ، وحتى التعاطف يكون ثقيلًا ومرهقًا فوق احتمال المريض الضعيف .

عندئذ كبحتُ جماحَ نفسى ، وعاونتُ زوجةَ أخى فى حزم صناديقها .

ولو كان فى مقدورى أن أحدثها تلقائيًّا بلغتنا ، لقلت لها :

– تذكّرى أنها مُسِنَّةٌ ومريضة ، وأنك أخذتِ منها كل ما كان لها .

بيد أننى لا أستطيع أن أقول شيئًا ، لأن حديثنا معاً تهشمه الكلمات غير المفهومة .

* * *

رحل أخى اليوم هو وزوجته إلى بيت أسلافه ، وسيعيشان فى الشقق القديمة، حيث أمضى فيها أخى حداثته ، ولن يسمح لها أن تنام أو تأكل أو تتسكع فى شقق النساء ، وهكذا تكون أمى غير معترفة بها .

الآن وقد انصرفا ، أسعدنى أن أكون وحدى مع زوجى وطفلى ، ومع ذلك فقد رحلتْ بعض الحيوية من البيت حين غادراه ، وكأن رياح الغرب قد فارقتنا مع مغرب الشمس فتركَتْ وراءَها صمتًا وسكونًا أقرب إلى الموت .

إننى أفكر فيهما وأتصورهما وحدهما فى الحجرات القديمة ، وقد قلت لزوجى فى الليلة الماضية :

– ماذا سيأتى من جرَّاء هذه المشكلة برمتها ؟

هز رأسه فى شك ثم قال :

– بهذين الاثنين تحت سقف واحد ، العجوز والشابة ، أشبه بالحديد

يقدح حجر الصوان .. مَنْ ذا الذى يستطيع أن يخبرنا أيهما سيمحو الآخر ؟

فقلت :

– وماذا سيجىء من وراء ذلك ؟

أجاب برزانة :

– نوع من النيران ستشب نتيجة ذلك .. إنى أُشفق على أخيك .. ليس هناك رجل يستطيع أن يقف مكتوف اليدين بين امرأتين متكبرتين متغطرستين ، إحداهما عجوز والأخرى شابة ، وكلتاهما تحبانه حبًّا عظيمًا .

حمل ابننا وأجلسه فوق ركبته ، وقد تعلَّقَ بصره بالطفل ، واستغرق فى التفكير .. لم أعرف ماذا كان يدور بخلده .. ولكن الطفل رفع ببراءة خصلة شعره من فوق أذنه ليكشف مزهوًّا عن القرط الذى علقته جدته فيها وهو يصيح :

– أَوَ ترى يادا .. دى ؟

وفى الحال نسينا أخى وزوجته .. تطلَّعَ إلَىَّ زوجى بنظرة شك وتأنيب، وسأل :

– « كواى لان » ما هذا ؟ لقد اعتقدتُ أننا انتهينا من تلك الأعمال الخرافية الحمقاء !

قلت متعلثمة :

– لقد وضعته والدتُك فى أُذنه ، ولم يطاوعنى قلبى على ...

فصاح :

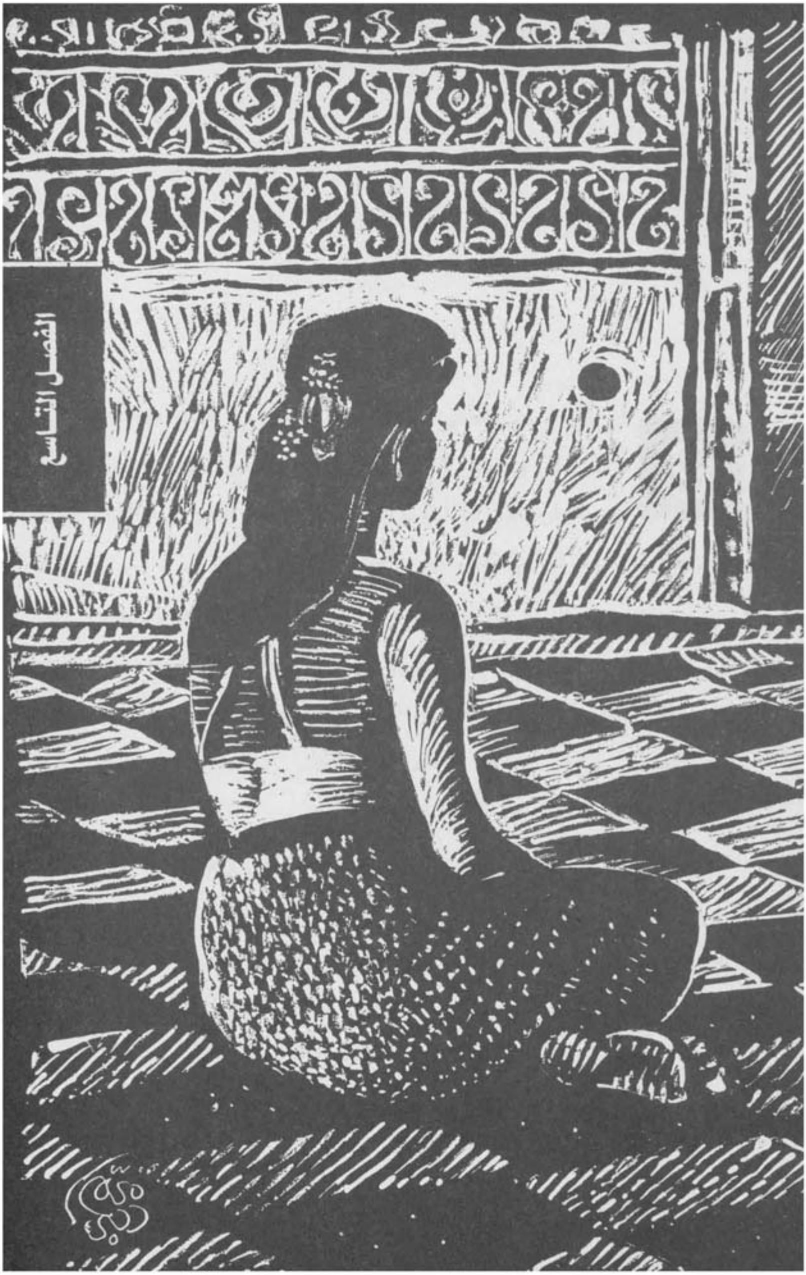
– هراء ! يجب أن نفكر فى الطفل أوَّلًا ! ولا يمكننا أن ندعه يتلقى مثل هذه الأفكار .

وأخرج من جيبه مُدْيَةً صغيرة ، وقطع بحرص الخيط الحريرى الذى يشد القرط ، ثم مال بجسده وألقى بالقرط خارج النافذة إلى الحديقة .. وحين ثَنَى الطفل شفتيه استياءً ، قال له ضاحكًا :

– أنت رجل مثلى ! انظر .. إننى لا أعلّق قرطًا فى أُذنى مثلما تفعل المرأة.. إننا رجال ... نحن لا نخشى الآلهة !

ابتسم الطفل لكلمات أبيه المرحة .

ولكننى فى ظلمة الليل فكرتُ فى ذلك نصف خائفة .. أَوَ يمكن أن يكون القدامى على خطأ دائمًا ؟ وماذا لو كان هناك آلهة برغم ذلك ؟ لن أهمل شيئًا يجب أن أفعله من أجل ابنى .. آه ، كم أفهم أمى !


الفصل التاسع

9

لم أَزُرْ بيتَ والدتى طوال عشرين يوماً ، كنت مرهقة ومتوعكة، وعندما كنتُ أفكر فى أمى وأخى ، يزداد عقلى حيرة وارتباكًا ، فإذا تذكرتُ زوجى انعطفَ قلبى إلى أخى ، وإذا حملتُ ابنى بين ذراعىَّ تعلَّق قلبى بأمى .

هكذا بالإضافة إلى أن أُمِّى لم ترسل فى استدعائى ، فإذا ذهبتُ من تلقاء نفسى فربما لا أعرف كيف أُحييها ، أو أشرح سبب قدومى . ولما كنتُ أمكث وحدى فى البيت الهادىء - وأنتِ تعرفين أن زوجى يعمل طوالَ اليوم ، وحتى ساعة متأخرة من الليل - فتنتابنى الدهشة والتعجب ، وأتخيل وأتصور أشياء عديدة .

كيف تقضى الأجنبية الأيام الطويلة المتثاقلة ؟ هل رأتها أمى مرة أخرى، وتحدثت إليها ؟ إننى أعرف أن الجوارى والمحظيات سيثيرهن ذلك فيرقبونها من خلف الزوايا والأركان ، وأن الخدم سيتذرعون بإحضار الشاى إلى أخى ، ويتعلَّلُون بهذا أو ذاك من الحيل لكى يروها . ويدور الحديث فى المطبخ عنها ، وعن أساليبها ونظراتها ، وكيف تتصرف

وتتكلم ، وينتهى حديثهم دائمًا بإلقاء اللوم على وجودها فى البيت ، وبالرثاء لابنة « لى » .

وأخيرًا قدِمَ أخى ليرانى .. وجلستُ ذات صباح أُطرز زوجاً من الأحذية لابنى .. فأنت تعرفين أن مهرجان الربيع الصافى لم يبق على حلوله سوى سبعة أيام لا غير .. وفجأة فتح الباب ودخل أخى دون سابق إعلان .. كان يرتدى ثوبًا صينيًّا ، وبدا منظره أشبه بما كان عليه فى حداثته من أى وقت مضى منذ عودته ، إلا أن وجهه كان يخيم عليه الوجوم .. جلس وشرع يتحدث دون أن يحيينى ، كما لو كنا نُكمل حوارًا بدأ من ساعةٍ مَضَتْ .

- هل ستأتين يا « كواى لان » ؟ إنَّ أمى فى أشد حالات الوهن والضعف ، وأعتقد أنها مريضة ، غير أن إرادتها وحدها بقيت قوية كعهدنا بها دائمًا .لقد أصدرت قرارًا بأن تعيش زوجتى لمدة عام وفقًا للحياة التى تتبعها المرأة الصينية فى مسكنها ، ولما كانت التركة كلها التى سأرثها تتوقف على طاعتها ، فإننا نحاول أن ننفذ رغبات أمى .. ولكن ما أشبه ذلك بحبس طائر الصافر الذهبى فى قفص ! تعالى وأَحْضِرِى الطفلَ معكِ .

نهض وسار فى الحجرة جيئةً وذهاباً والقلق يبدو على وجهه ، وعندما رأيتُ اضطرابه ارتباكه وَعَدْتُه بالحضور .

وعلى ذلك مضيتُ بعد ظهر ذلك اليوم لزيارة أمى .. وطاف بذهنى أنه

يجب – وأنا فى طريقى عبر الأفنية – أن أتوقف لرؤية تلك الأخرى ، زوجة أخى .. لم أتجاسر أن أدع أمى تعرف أننى إنما جئت لأراها وحدها فقط دون أحد سواها . وفى الواقع عزمت على ألَّا أذكر الأجنبية أمام والدتى إلَّا إذا أتاحت لى الفرصة لذلك .

مضيتُ رأسًا للمثول بين يدى أمى دون أن أتلكَّأ فى الأفنية ، وعلى الرغم من ذلك فإننى لم أكد أصل إلى مساكن النساء حتى جاءت السيدة الثانية إلى مدخل بوابة القَمَر ، وأومأت إلىَّ من وراء إحدى أشجار الدفلى ، ولكننى انحنيتُ لها فقط ، وغذيت السير للقاء أمى .

وبعد أداء التحيات ، استهللنا الحديث عن ابنى ، ثم واتتنى الشجاعة لأتفحص وجه أمى .. لقد بَدَا عليها بعض التحسن على الرغم مِمَّا ذكره أخى ، أو على الأقل لم تكن مريضة بالدرجة التى كنتُ أخشاها ، لذا لم أسألها عن صحتها ، حيث كنت أعرف أن مثل تلك الأسئلة كانت دائمًا تثيرها ، على الرغم من أنها لم تكن تتقاعس عن الإجابة بكياسة ولطف . وبدلًا من ذلك سألتها :

– كيف وجَدْتِ مدى تغيُّرِ ابنك – أخى – بعد سنواته التى قضاها بالخارج؟

رفعت حاجبيها المزججين بدرجة طفيفة .

– نادرًا ما تحدثتُ إليه فى شىء ذى أهمية . أمَّا مسألة زواجه من ابنة «لى» فهى بلا ريب تنتظر مجىء والده . إنه يبدو أشبه بمظهره السابق ، وعلى الأقل منذ أن أرسلتُ كلمةً لافتةً نظرَهُ إلى أن عليه أن يرتدى ملابسه

المعتادة حين عاد إلى البيت . لم يسرنى أن أرى ساقيه فى سراويل على غرار تلك التى يرتديها السَّقَّاء الذى يحمل المياه .

ولما كانت قد تحدثت عن زواجه ، تعمدت أن أسأل فى غير مبالاة ، متظاهرة بأننى أتفحص الرسوم المنقوشة على ردائى الحريرى :

– كيف وجدتِ الأجنبية ذات العينين الزرقاوين ؟

كنت مدركة أن جسم أمى سيتصلب عندئذ ، إلا أنها سعلت فحسب ، ثم أجابت بصوت يُشْتَمُّ منه أنها تتحدث عن شىء مُهْمَلٍ تافه :

– أما عن تلك الأجنبية التى تقطن داخل المساكن فلا أعرف عنها شيئًا. لقد أرسلتُ إليها ذات مرة لتعد لى الشاى بعد أن أرهقنى شقيقك بتوسلاته إلىَّ كى أسمح لها بالحضور عندى . ولكننى وجدت أننى لا أستطيع تحمل يديها المرتبكتين غير البارعتين فى تناول الأدوات على نحو سريع ، ونظراتها الهمجية .. كانت خرقاء تعوزها الرقة معى .. وقد أدركت أنها لم تتدرب قط على السلوك القويم مع من يكبرها سنًا .. لن أحاول أن أراها ثانية .. إننى تزداد سعادتى حين أتمكن من نسيان الموضوع، وأتذكر فقط أن ابنى قد عاد ليعيش تحت سقف أسلافه .

أدهشنى أن أخى لم يخبرنى بأنها استُدعيت كى تعد الشاى لوالدتنا . كانت لحظة لها أهميتها ، ولكننى حين قَلَّبْتُ الأَمْرَ فى ذهنى اتضح لى أنه تعمَّد عدم إخبارى به ، طالما أنها كانت كريهة فى نظر أمنا ، ولكننى حين تذكرت قلق أخى تجاسرت على أن أسألها المزيد :

– أوَ أستطيع أن أدعوها لقضاء ساعة فى بيتى المتواضع طالما أنها غريبة هنا ؟

أجابت ببرود :

– كلا ، لقد فعلت ما فيه الكفاية ، لن أسمح لها بالخروج عبر البوابة الضخمة مرة أخرى طوال إقامتها هنا ، يجب أن تتعلم العُزْلة الجديرة بالسيدات إذا كانت ستعيش هنا .. لا يعنينى أن تتحدث المدينة بأسرها عن الموضوع .. إننى أدرك أنها جامحة متمردة على القانون ، لا يقيدها شىء ، ويجب أن تُرَاقَب ويُكبح جماحها لتصبح منضبطة . لا تتحدثى عنها أبعد من ذلك .

لم يكن لباقى حديثنا أهمية تُذْكَر ، ورأيت أنها لن تطرق فى حديثها شيئًا غير مسائل الحياة اليومية العَرَضية .. كتمليح الخضراوات للخدم ، وارتفاع أسعار أقمشة ملابس الأطفال ، وأغراس أزهار الأقحوان الواعدة التى زُرعت لتُزْهِرَ فى الخريف ، ولذا وَدَّعْتُهَا ومضيتُ خارجة .

بيد أننى حين عبرتُ البوابات الصغيرة متجهة إلى الخارج ، قابلتُ أخى، كان ذاهبًا إلى بوابة البيت الضخمة ليوجه إلى البواب بعض الأسئلة، ولكننى عرفت على الفور أنه كان ينتظر خروجى ، ولما دنوتُ منه تفرست فى وجهه فرأيت حزمًا وتصميمًا جعلاه يبدوغريبًا فى عينىَّ ، إلا أنهما سرعان ما أفسحا الطريق للحيرة والقلق اللتين تضافرتا مع ملابسه الصينية ورأسه الخفيض ليبدو ثانية مثل ذلك التلميذ نصف المكتئب الذى كانه قبل أن يذهب بعيدًا .

سألته قبل أن يتحدث :

– كيف حالُ زوجتك ؟

ارتعشت شفتاه ، وبلَّلهما بلسانه ، وقال :

– ليست على ما يرام . أوه يا شقيقتى ! نحن لا نستطيع احتمال هذه الحياة طويلًا ، يتحتم علىّ أن أفعل شيئًا .. أرحل بعيدًا ، وأبحث عن عمل.

سكت عن الكلام ، ورحتُ أستحثه على الصبر قبل أن يقرر الرحيل ، وألَّا يستهين بسماح أُمى للأجنبية بالمجىء إلى البيت ، وأن فترة سَنَة ليست بالطويلة .. ولكنه هز رأسه وقال مُثْقَلًا مهموماً :

– إن زوجتى بدأت نفسها تيأس ، فهى لم تقنط ولم يهن عزمها حتى جئنا إلى هنا ، أَمَّا الآن فهى تذبل من يوم لآخر .. إنها لا تستسيغ طعامنا ، ولا أستطيع أن أُدِبِّرَ لها طعامًا أجنبيًّا . وهى لا تأكل شيئًا .. كانت فى وطنها معتادة على الحرية ، وتلقى هناك الثناء والتقدير . وتُعَدُّ مليحة جميلة فى بلدها ، وكثير من الرجال قد أحبوها ، وكنت فخورًا مزهوًّا أن أظفر بها من دونهم جميعًا . واعتقدتُ أن ذلك يثبت تفوق جنسنا .

ثم استطرد قائلًا :

– ولكنها الآن تشبه زهرة قُطِفَتْ وَوُضِعَتْ فى آنية للزينة ، ولكن دون ماء ، وهى تجلس صامتة يومًا بعد يوم ، وعيناها تحترقان فى وجهها الناصع البياض الذى اعتراه الشحوب .

تعجبتُ وأنا أسمع شقيقى يعتبر محبة كثير من الرجال لإحدى النساء

ميزة من مزاياها ، وفضيلة من فضائلها . فمثل هذا الثناء والإطراء لا يليق هنا إلا بإحدى بائعات الهوى ، فكيف يتطرق إليها الأمل فى أن تصبح واحدة منا فى يوم من الأيام ! غير أنه بعد أن تحدَّث قفزتْ إلى ذهنى فكرة جديدة ، فسألت فى لهف :

– أَوَ ترغب فى العودة إلى ذَوِيها؟

هنا رأيت حلًّا ، فهى إذا ذهبت بعيدًا وامتدت البحار بينهما مرة أخرى، فإن أخى مع ذلك ليس إلَّا رجل ، سيكف عن التفكير فيها ، وسيعود إلى أداء واجبه ..ولكننى لن أسارع إلى نسيان نظرته حينما قلت له هذا ، فقد لاحَ لى أن عينيه تنظران نحوى فى غضب ، وقال فى عنف فجائى :

– لو ذهبت فسأذهب معها ، وإذا ماتت فى بيتى هذا فلن أكون ابنًا لوالدىَّ إلى الأبد !

أَنَّبْتُهُ برقة لهذه الكلمات العاقَّة ، فإذا به لشدة دهشتى ينشج وينفجر متنهدًا بأنفاس سريعة متلاحقة ، ثم استدار وهرول خارجًا .

وقفت هناك لا أكاد أعرف ماذا عساى فاعلة ، إننى أرقب شخصه المنحنى يتراجع إلى المسكن الآخر الذى يقطنه . عندئذ بعد أن مكثت برهة مترددة حائرة ، وفى الواقع نصف خائفة من أمى ، ذهبت فى إثْرِهِ أنشد اللحاق به .

دخلت لأرَى الأجنبية .. كانت تسير بقلق فى الفناء الداخلى لشقة أخى

.. كانت ترتدى زيها الأجنبى مرة أخرى ، ثوبًا مهندمًا ذا لون أزرق قاتم، مفتوحًا من أعلى ليكشف عن عُنقها الأبيض العارى . وحملتْ فى يدها كتابًا أجنبيًّا مفتوحًا ، مطبوعًا بسطور قصيرة من الحروف الممتدة وسط كل صفحة، فى مجموعات صغيرة .

كانت تتجول وهى تقرأ وتقطب جبينها وهى تلتهم السطور بعينيها ، ولكنها حين رأتنى انفرجت أساريرها وهى تبتسم ، ووقفت ساكنة حتى أصبحتُ بجوارها ، ثم تحدثنا بكلمات قليلة ، كلمات عرضية كيفما اتفق .. إنها تستطيع أن تتحدث الآن جيدًا إذا تكلم معها المرء فى موضوعات بسيطة ، وقد رفضتُ أن أدخل إلى مقر إقامتها ، إذْ يجب أن أعودَ لابنى ، فانتابها الأسف . وأشرت إلى شجرة العَرْعَر القديمة ، وهى من الفصيلة الصنوبرية ، الموجودة فى الفناء ، وتحدثت عن لعبة كانت تصنعها لابنى من القماش المحشو بالقطن . شكرتها .. ولم يعد هناك ما نقوله . انتظرت، ثم شرعتُ أودعها ، وأنا أشعر بألم غامض ، لأن هناك بحارًا تفصل بيننا ، وليس بوسعى أن أفعل شيئًا لأساعد أخى وأمى .

ولكننى حين استدرتُ لأمضى خارجة ، أمسكتْ بيدى على حين غرة ، وتشبثت بها بشدة ، وهنا نظرتُ إليها ، فرأيت الدموع ترتعد فى عينيها ، فَطَوَّحَتْ برأسها فى حركة سريعة ، فطفرت الدموع منها وتساقطت . هزَّتنى الشفقة عليها وأنا أهمهم – دون أن أعرف ماذا أقول – عدا وعدى لها بزيارة سريعة ثانية . ارتجفت شفتاها وهى تحاول الابتسام .

* * *

وهكذا مَرَّ شهر قمرى آخر ، ثم عاد أبى إلى البيت . ومن الغريب أنه اهتم اهتماماً بالغًا بزوجة أخى ، ومال إليها . قالت « وانج دا ما » : إنه ما إنْ دخل من البوابة الضخمة حتى سأل عَمًّا إذا كان أخى قد أحضر الأجنبية إلى البيت ، وحين سمع بحضورها غَيَّرَ ملابسه ، وأرسل بكلمة قائلًا : إنه سيزور شقة أخى حالما ينتهى من تناول طعامه .

دخل بلطف مبتسمًا ، وتقبل انحناءةاحترام أخى ، وطلب أن يرى الأجنبية ، وعندما قَدِمَتْ ضَجَّ بالضحك ، وراح يتفحص مظهرها ،وعَلَّقَ بحرية على طلعتها وهيئتها ، وهو طَلْقُ المحيًّا قائلاً فى وُدٍّ :

– إنها وسيمة تمامًا ، على طريقتها .

ثم أردف :

– حسنًا ، حسنًا ، هذا شىء جديد فى الأسرة .. وهل يمكنها أن تتكلم لغتنا ؟

لقد استاء أخى من حريته فى الحديث ، وأجاب باقتضاب : إنها تتعلمها.

أفرطَ والدى فى الضحك وصاح :

– لا بأس ، لا بأس .. أظن أن كلمات الحُبِّ لها صوت حلو عذب أيضًا باللسان الأجنبى .. ها .. ها .. ها !

وانطلق يضحك حتى أخذ جسده البدين يهتز .

أمَّا هى فلم تستطع أن تفهم كل كلماته التى يقولها بطيش ولامبالاة

كدأبه حين يتحدث بصوته القوى العميق ، ولكنَّ الوُدَّ الدافِء الذى أبْدَاهُ لها أوقع فى نفسها شعورًا بالرضا والابتهاج ، ولم يستطع أخى أن يخبرها افتقار والده إلى احترامه لها .

وقد نَمَا إلىّ أن أبى كثيرًا ما يزورها الآن ويُعابثها ، ويحدق فيها بحرية ، ويُعَلِّمها كلمات وتعبيرات جديدة من لغتنا ، وأرسل لها حَلْوَى ، وفى إحدى المرات شجرة ليمون بحجم يد « بوذا » داخل إناء أخضر مصقول .. ومن ناحية ثانية كان أخى يحرص على أن يكون موجودًا فى كل هذه المقابلات .

إنها مثل الطفلة ، وهى لا تفهم شيئًا على الإطلاق .

* * *

ذهبتُ لزيارة زوجة أخى مرة أخرى بالأمس ، بعد أن قدمتُ التهنئة لأمى بيوم العيد .. لم أجرؤ على أن أجازف بإثارة استياء أمى وغضبها بأكثر من الزيارات العابرة للأجنبية ، لئلا تمنعنى تماماً من الذهاب إلى شقة أخى .

سألتها :

– هل أنتِ أسعدُ حالًا ؟

ابتسمت ابتسامة سريعة أضاءت وجهها المتجهم كشمس تشرق فجأة من خلف سحابة معتمة .

أجابت :

– نعم ، ربما ! فالأمور على الأقل لا تسير معنا على نحو أسوأ . لم أَرَ أُمَّه سوى مرة واحدة حين طلبت منى أن أعد لها الشاى ، ولم يسبق لى قط طوال حياتى أن أعددتُ شايًا بهذه الطريقة ! ولكنَّ أباه يأتى ليرانا كل يوم تقريبًا .

قلت لها :

– سنصبر ، فسيأتى يوم تلين فيه الأم الجليلة المهيبة .

قَسَا وجهها على الفور ، وتحدثت بكلمات مركزة قالتها بصوت خافت:

– ليس الأمر كما لو كنتُ قد فعلتُ شيئًا . لا ريب أنه ليس خطأً أن نحب ونتزوج ؟ إنَّ أباه هو الصديق الوحيد لى فى هذا البيت .. إنه ودود وشفوق معى ، ويمكننى أن أقول لك إننى بحاجة إلى العطف والحنان ! ولا أعتقد أننى يمكننى الصمود أكثر من ذلك محبوسة بهذا الشكل !

طوحت بشعرها الأصفر القصير إلى الوراء ، وفجأة أطل الغضب من عينيها ، واكفهرَّ وجهها .. رأيتها تنظر إلى الخارج نحو المساكن الأخرى ، فتتبعتها بعينى ، وإذا بها تصيح :

– انظرى إلى هناك مرة أخرى ! هاهن .. إننى أشبه بمسرحية بالنسبة لهؤلاء النساء ! إننى مرهقة وسئمت حتى الموت من تحديقهن . لماذا هن هناك دائمًا يتهامسن ، ويختلسن النظر ، ويُشرن نحوى ؟

أومأت برأسها صوب بوابة القمر حين كانت تتحدث . هناك كانت

المحظيات ونصف دستة من الجوارى قد تجمعن عند المدخل . كن يأكلن الفول السودانى فى خمول ، ويُلقمنه لأطفالهن ، ولكنهن كن يسترقن النظر خفية إلى الأجنبية ، واستطعتُ أن أسمعهن يضحكن . قطبتُ جبينى ونظرتُ إليهن بوجه متجهم ، ولكنهن تظاهرن بعدم رؤيتهن لى . وأخيرًا سحبتنى معها إلى الحجرة ، صفقت ضلفتى الباب الخشبى الثقيل فى وجوههن ، وأحكمتْ غَلْقَهُ بالمزلاج .

قالت وهى تَتَّقِدُ غضبًا :

– لا يمكننى احتمالهن ، ولا أستطيع فهم ما يَقُلْنَهُ ، ولكننى أعرف أنهن يتحدثن عنى من الصباح حتى المساء .

قلت لتهدئتها :

– لا تُعِيرهُنَّ انتباهًا ، فهن جميعًا جاهلات .

ولكنها هزت رأسها قائلة :

– لا يمكننى أن أحتمل ذلك يومًا بعد يوم .

لكنها قطبت وجهها وصمتت ، وبدا عليها التفكير ، وانتظرت ، وجلسنا معًا فى الحجرة الكبيرة المعتمة . وأخيرًا تطلعت حولى ، طالما لم يكن هناك ما يقال ، ولاحظت التغييرات التى قامت بها لتجعل الحجرة على ما اعتقد ذات طابع غربى ، إلَّا أنها بدت فى عينىّ شديدة الغرابة .

كانت هناك بضع لوحات عُلِّقَتْ على الجدران بلا نظام ، ومن بينها

بعض الصور الفوتوغرافية داخل إطارات . ولما رأتنى أنظر إليها أشرق وجهها وقالت بشوق :

– إنهم والداى وشقيقتى .

سألتها :

– أليس لك أخ ؟

هزت رأسها ، وتكورت شفتاها قليلًا :

– كلا ، ولكن هذا لا يهم ، فنحن لا نهتم بأبنائنا فقط .

تعجبت بعض الشىء من لهجتها ، ولكننى لم أفهمها ، واستويتُ واقفة لأتفحص الصور . كانت الأولى صورة رجلٍ عجوز وقور ذى لحية قصيرة بيضاء مدببة .. كانت عيناه تشبهان عينيها ، ثائرتين ثقليتى الأجفان . وله أنف شامخ ، ورأسه أصلع .

قالت وعيناها مثبتتان بحنان وإعزاز على وجه الرجل العجوز :

– إنه يعمل بمهنة التعليم ، فهو أستاذ فى الكلية التى حدث فيها أول لقاء بينى وبين أخيك . من الغريب أن يُرَى فى هذه الحجرة ، فهو غير مناسب هنا .. تمامًا كما أبدو أنا أيضًا غير مناسبة .

وأضافت فى صوت خفيض حزين :

– ولكن وجه والدتى هو الذى لا أستطيع أن أحتمل التطلع إليه فى هذه الأيام !

كانت قد جاءت ووقفت بجانبى بقامتها المديدة التى تفوقنى فى الطول كثيرًا، إلا أنها استدرات مبتعدة عن الصورة الثانية ، ورجعت إلى المقعد الذى نهضت منه ، والتقطت قطعة من القماش الأبيض من فوق المنضدة القريبة ، وبدأت فى حياكتها . لم أكن رأيتها قط تمارس الحياكة قبل الآن . وقد وضعت فوق أصبعها قلنسوة معدنية غريبة لا يمكن أن تكون بأى حال مثل « الكستبان » الحقيقى الذى يحيط بالأصبع الوسطى ، وأمسكت بالإبرة كما لو كانت خنجرًا . ولكننى لم أقل شيئًا . ذهبت لأتفحص وجه أمها . كان صغيرًا ورقيقًا وناعمًا حنونًا بطابعه الخاص، على الرغم من أن ملاحته قد أفسدت طريقة تكتل الشعر الأبيض حوله . أما وجه الشقيقة فهو يشبه وجه أمها بوضوح ، على الرغم من أنه كان صغيرًا وضاحكًا . سألتها بلطف :

– هل تشتاقين بشدة لرؤية والدتك ؟

ولكننى دهشت حين هزت رأسها وقالت بطريقتها المفاجئة القاطعة :

– كلا ، بل لا أستطيع حتى أن أكتب إليها .

سألتُ متعجبة :

– لماذا ؟

– لأننى أخشى أن يتحقق كل ما كانت تخاف أن يحدث لى .. ولا أَوَدُّ لها البتة أن ترانى على الحال التى أعيشها هنا ! وهى تعرفنى جيدًا ،

ستدرك بوضوح ما أعانيه إذا كتبت إليها . لم أكتب لها على الإطلاق منذ أن أتيتُ إلى هذا المكان .

ثم استرسلت :

– أوه ، هناك في بلادى بَدَا كل شىء مدهشًا .. فقد اعتقدتْ شقيقتى الصغرى أنَّ حبنا هو أكمل رومانسية يمكن تخيلها . والنسبة لى فإنك لا تعرفين كم كان مُحِبًّا مثاليًّا . فقد اعتاد أن يقول أشياء بطريقة يبدو معها الغَزَل والحب الذى يبثه أى رجل آخر مملًّا تافهًا مبتذلًا . كان غَزَلُه يبدو جديدًا . غير أن أمى كانت دائمًا متخوفة !

سألتها مشدوهة :

– ما الذى كانت تخشاه؟

– ألَّا أكون سعيدة بذهابى هكذا بعيدًا .. وألَّا يتقبلنى أهله .. أو لعلهم يفعلون شيئًا يؤدى إلى إخفاق الموضوع بأكمله .. إننى أشعر بأن كل شىء يسير على نحو خاطىء مغلوط ، ربما ! فأنا لا أعرف .. ولكن يبدو لى أن شبكة تتجمَّع لتلتف حولى . إننى وأنا أعيش محبوسة خلف هذه الأسوار العالية أتخيل أشياء عدة .. لا يمكننى فهم ما يقوله هؤلاء الناس.. لا أعرف ماذا يضمرون .. إن وجوههم لا تفصح عن شىء ، ويعترينى الخوف ليلًا .

واستطردت قائلة :

– ثم إننى أحيانًا أظن أن وجهه يُحاكى وجوههم ، ناعمًا جامدًا كما

لو كان يضع عليه قناعًا لا يكشف عَمَّا يعتمل داخله من مشاعر . أمَّا هناك فى بلادى فكان يبدو كواحد منا ، بل وكان أكثر سحرًا ، ويمتاز بفتنة جديدة لم أرها قط من قبل . ولكنه يبدو هنا ينسلُّ عائدًا القهقرى ، وجانحًا إلى الغرابة .. إنه يفلت من بين يدىَّ بعيدًا . أوه ، إننى لا أعرف كيف أعبر عن ذلك ! لقد اعتدت دائمًا على الصراحة والمرح ، وأن أتحدث فى صدق بكلام مباشر مستقيم .. وهنا أجد الصمت المُطْبَق ، والانحناء ، والعيون المتلصصة تزحف نحوى . ربما أستطيع أن أتحمل سَلْبِى حريتى بهذا الشكل إذا عرفتُ ماذا وراء كل ذلك . ولكن .. أَوَ تعرفين أننى قد أخبرته هناك فى وطنى أنه يمكننى أن أصبح صينية ، أو « هوتنتونية »، أو أى شىء من أجله .. بيد أننى لا أستطيع ، لا أستطيع ! إننى سأظل أمريكية على الدوام !

لقد انهمر كل هذا ، واندفع متدفقًا ، نصفه بلغتها ، ونصفه بالقليل الذى تعرفه من لغتنا ، وكان حاجباها يلتويان ، ويداها تتحركان ، ووجهها مكفهرًا .. لم أحلم قط أن يكون فى جعبتها كل هذا الحديث .. لقد صَبَّتْهُ كما تتفجر المياه وتتدفق فجأة من إحدى الصخور الصَّمَّاء . أصابنى ارتباك شديد ، لأننى لم أر قط قلب امرأة عاريًا هكذا ، ومع ذلك فقد هزنى نوع من الشفقة الغامضة تجاوبًا معها .

وبينما كنت أفكر فيما أقوله لها إذْ دخل أخى من حجرته المجاورة لنا ، كما لو كان سمع كل ما قيل ، وإذا به يتجاهلنى ، ومضى إليها ، وتناول يديها اللتين كانتا مشغولتين بالتطريز ، وركع إلى جانبها وهو ما زال

ممسكًا بيديها ، وراح يضغطهما على وجنتيه . ثم رفعهما فوق عينيه ونكس رأسه .. ترددتُ ، فقد كنت لا أدرى هل أذهب أو أبقى . ثم نظر إليها بوجه أضناه القلق . وهمس بصوت أجش :

- مارى ، مارى ، لم أسمعك قط تتحدثين هكذا ! هل تَشُكِّينَ فىَّ حقًّا ؟ لقد قُلْتِ لى فى بلدكِ إنكِ ستأخذين جنسى وقوميتى وتشاركينني إياهما.. حسنًا إذا كان ذلك مستحيلًا فى نهاية ذلك العام ، فسنترك كل شىء خلفنا، وسأصبح أمريكيًّا معك ، فإذا تعذَّرَ هذا فسنجد دولة جديدة ، وجنسًا جديدًا فى مكان ما ، حتى يمكننا أن نكون معًا .. يجب أَلَّا ترتابى فىَّ يا حُبِّى!

لقد فهمتُ كثيرًا مما قاله ، لأنه تحدث بلغته الأصلية ليعبر عَمَّا يجيش فى نفسه بمزيد من الحرية ، ثم بدأ يتمتم إليها بلغة أخرى ، ولا أعرف ماذا قال لها ، ولكنها ابتسمت ، ورأيت أنها تستطيع تحمُّل الكثير من أجله . أحنت رأسها حتى استكانت فوق كتفه ، وغابا فى صمت خفق خلاله قلباهما . خجلت من أن أطيل بقائى أمام هذا المشهد من الحب المكشوف .

لذا تسللت خارجة بهدوء ، متذرعة بتعنيف الجوارى اللاتى كن يختلسن النظر إليها من خلال البوابة . ومن الطبيعى أننى لم أستطع أن أوبخ محظيات أبى ، إلَّا أننى تعمدتُ أن أتحدث إلى الجوارى على مسمع منهن ، وهن لسن أكثر من خاويات جاهلات ، بل وفضوليات صفيقات .

وقد قالت المحظية البدينة وهى تمضغ بصوت عال ، وتتلمظ بشفتيها أمام كعكة ذات نكهة شهية :

– أَىُّ امرىء ذى مظهر ساخر وهمجى يجب أن يتوقع تحديق الناس فيه، بل وضحكهم عليه أيضًا !

فقلت بقسوة وصرامة على قدر ما أمكننى :

– ومع ذلك فإنها إنسانة ،ولها أحاسيس مثل أحاسيسنا .

غير أن السيدة الثانية هزت كتفيها وهى تلوك الطعام فى فمها ، وتمسح أصابعها فى كم ردائها .

خرجتُ غاضبةً ، حتى أصبحتُ على مقربة من بيتى قبل أن أدرك أن غضبى كان بأكمله من أجل زوجة أخى ، وليس ضدها .

* * *

والآن يا أختاه ، لقد حدث ما كنا لا نرغب فيه .. فقد حملت! إنها أدركت ذلك منذ عدة أيام قبل أن تخبر به أخى بطريقتها الأجنبية الغريبة المتحفظة . وما إن أبلغته بهذا حتى أخبرنى به الآن .

وهذا شىء لا يبعث على الابتهاج ، وحين سمعتْ به أمى حملوها إلى فراشها ، ولم تعد قادرة على النهوض من فرط أساها ، فهذا ما كانت تخشاه وترتعب منه ، ولم يعد جسمها الضعيف يستطيع أن يصمد أمام خيبة الأمل هذه ، إنَّكِ تعلمين كيف كانت ترغب فى أن تكون أولى الثمار للأسرة من لحم أخى . والآن لما كان ذلك لن يتحقق ، فهى تعتقد أن

الفضيلة قد غادرته من أجل لا شيء ، لأن ذلك الصبى من المستحيل أن تعتبره حفيدًا لها .

عندئذ ذهبتُ لزيارة أمي ، فوجدتها مستلقية على فراشها دون حراك. كانت عيناها مغلقتين ، وفتحتهما برهة فقط لترانى قبل أن تغلقهما ثانية . جلستُ إلى جوارها بهدوء ، وانتظرتُ فى صمت .. وفجأة تغيَّر وجهها كما حدث فى يوم سابق ، فبدا مرهقًا منطفئًا ساكنًا بلون الرماد المفزع ، وبدأتْ تتنفس بمشقة .

أصابنى الرعب ، وصفقت استدعى إحدى الجوارى ، فجاءت « وانج دا ما » نفسها وهى تعدو حاملة غليونًا من الأفيون مشتعلًا ، تتصاعد منه سُحُب الدخان . أمسكت به أمى وراحت تدخن يائسة ، فسكن ألمها .

ولكننى حين رأيتُ ذلك شعرت بعدم ارتياح ، فمن الواضح أن الألم كان مألوفًا حيث كان غليون الأفيون مُعَدًّا ، والمصباح مشتعلًا. وحين هممتُ بالتحدث عن هذا ، فمنعتنى أمى قائلة بحدَّة :

– هذا لا شيء . لا تُزعجينى .

لم تقل شيئًا أكثر من ذلك . وبعد أن بقيت إلى جوارها قليلًا ، انحنيتُ وخرجتُ . ولما مررت خلال مقر الخدم ، سألت « وانج دا ما » بخصوص أمى ، فهزت رأسها :

– إن السيدة الأولى تعانى بهذا الشكل كل يوم عدة مرات تزيد على عدد أصابع اليدين . كان الألم عرضيًّا لسنين طويلة ، غير أنكِ تعرفين

أنها لن تبوح بشيء من شئونها الخاصة ، ولكنها بتأثير أحزان هذا العام أصبح الألم مستمرًّا . إنى أحرص أن أكون على مقربة منها على الدوام ، فأرى وجهها حين يتحول إلى اللون الرمادى ، وعندما ينتفض ألمًا فى مطلع الفجر حينما أقدم لها الشاى . غير أن بعضَ الأَمل قد ساندها على تحمُّل الألم حتى الأيام القلائل الأخيرة . أمَّا الآن فقد انهارت كشجرة اجْتُثَّ آخر جذر فيها بضربة فأس قاطعة .

أمسكتْ أُمى بطرف مريلتها الزرقاء ، ومسحتْ عينيها ، ثم تنهدت .

آه ، إننى أعرف الأمل الذى قَوَّى من احتمال أمى ! ولم أقل شيئًا ، ولكننى عُدْتُ إلى بيتى وبكيتُ ، وأخبرت زوجى ، وتوسلت إليه أن يذهب معى لنراها ، بيد أنه نصحنى بأن أنتظر ، وقال :

– إذا أكرهت أو أُغضبَتْ فستزداد حالتها سوءًا ، وعندما يجىء الوقت المناسب توسَّلِى إليها كى ترى طبيبًا، ولن تكون عليكِ مسئولية أكثر من ذلك نحو شخص بلغ من الكبر عِتِيًّا .

إننى أعرف أنه على حق دائمًا ، ولكننى لا أستطيع أن أطرح جانبًا إحساسى بنذير الشر .

* * *

يبدو أن والدى سَرَّهُ أن الأجنبية ستلد طفلًا . وها هو ذا يصيح عندما سمع بذلك :

– آه ، ها ! الآن سيكون لنا أجنبىٌّ صغير لنلعب معه ! هاى .. يا ! لعبة جديدة لاشك ! سندعوه المهرج الصغير ، وسوف يُسلينا !

دمدم أخى متذمرًا من هذه الكلمات .. لقد بدأ يكره والدنا من أعماقه ، واستطعتُ أن أرَى ذلك .

أما الأجنبية فقد تخلَّت عن الحزن ، وزايَلَها اليأس .. وعندما ذهبت لرؤيتها كانت تغنى بلحن أجنبى غريب ، ولما سألتها عن معناه ، قلت إنها أغنية تجلب النعاس للطفل .. تعجبتُ ، كيف يمكن أن يهدأ الطفل وينام لدى سماعها ؟! يبدو أنها نسيت ما كشفته لى عن تعاستها فى ذلك اليوم . وهى وأخى قد جَدَّدَا حُبهما ، ولم يعد الآن أى مكان فى عقلها لغير الطفل القادم .

إننى أتشوَّق من أعماق قلبى لرؤية هذا الطفل الأجنبى ، لا يمكن أن يكون جماله مضارعًا لجمال ابنى ، قد تكون طفلة ، وربما سيكون لها شعر أمها الأصفر المتوهج . آه ، يا لأخى المسكين ! إنه تعيس مُحْبَط ! هناك الآن طفل سيولد ، فأصبح أخى أكثر تلهفًا من أى وقت مضى على إثبات المكانة الشرعية لزوجته ، وهو يُلَمِّحُ يوميًّا إلى والدنا بهذا الموضوع، ولكن أبانا يتملص منه بالابتسام ، والحديث المتمهل عن أشياء أخرى .

وفى اليوم الثانى من العيد قال أخى إنه سيلح على ذلك الأمر أمام رجال العشيرة فى قاعة الأسلاف قبالة لوحاتهم المقدسة ، حتى يولد الطفل شرعيًّا كابنه البكر ، ومن الطبيعى إذا جاءت بنتًا فالأمر لن يكون ذا أهمية ، ولكننا لا نستطيع أن نتبيَّن شيئًا من المستقبل .

إننا الآن فى الشهر القمرى الحادى عشر من العام .. الثلج يكسو الأرض ، يجثم ثقيلًا على أعواد الخيزران فى الحديقة ، فتبدو كبحر ذى موجات بيضاء يعلوها الزَّبد حين تحركها الرياح بلطف . نالت زوجة أخى شهرة بالطفل الذى تحمله فى أحشائها ، ففى بيت أمى هناك إحساس ثقيل بالانتظار . إننى أسأل نفسى يوميًّا : لماذا ؟

حين نهضت من فراشى هذا اليوم رأيت الأشجار عارية ، واسودَّت تحت سماء رمادية شتوية عاصفة . استيقظت فجأة وأنا أشعر بالخوف كما لو كنت أصحو من حلم مشئوم كريه ، ومع ذلك فحين اختبرت ذاكرتى اكتشفتُ أننى لم أحلم بشىء . ترى ما معنى حياتنا ؟ إنها فى أيدى الآلهة ، ونحن لا نعرف شيئًا سوى الخوف .

حاولتُ أن أتبين لماذا أنا خائفة ؟ هل من أجل ابنى ؟ ولكنه أسد صغير فى قوته ، وهو يتحدث الآن كملك يحكم العالم . لا أحد يجرؤ على عدم طاعته ضاحكًا غير أبيه ، أمَّا بالنسبة لى ، فأنا جاريته ، وهو يعرف ذلك. يا للخبيث ! إنه يعرف كل شىء . كلَّا إن خوفى لا يرجع إلى ابنى .

غير أننى مهما حاولتُ أن أتعقل الأمر فلا يمكننى أن أطرح قلقى جانبًا، أو إحساسى الغريزى بالشر الذى سينقض علينا من السماء مستقبلًا، إننى أنتظر أن تعلنه الآلهة ، إننى متأكدة من مقصدهم المملوء بالحقد والغل . أيكون ابنى برغم كل شىء هو الهدف ؟ إننى مازلت نصف خائفة بعد أن طَوَّحْنَا بالقرط بعيدًا .

وها هو ذا والده يضحك ، صحيح أنه سليم من رأسه إلى قدمه ،

وشهيته تكفى لإثارة دهشتى .. إنه الآن يدفع ثديى بعيدًا عنه ، ويطلب الأرز والعودين اللذين يتناوله بهما ثلاث مرات يوميًّا . لقد فطمتُه عن الرضاع ، وهو رجل. آه ، لا يوجد من يماثل ابنى فى قوّته !

ازدادت أمى ضعفًا . وكم وددت ألا يرحل أبى ، فحينما أصبح أخى مزعجًا بإلحاحه من أجل زوجته ، وجد والدى ما يشغله من أعمال تجارية بإلحاحه من أجل زوجته ، وجدو والدى ما يشغله من أعمال تجارية فى «تيننتسين» فتغيب شهورًا عدة ، أمَّا الآن حين غدا الشر معلقًا فوق بيته فيجب أن يعود . إنه لا يهتم بشىء سوى مسراته ، كعادته دائماً، ولكنه يجب أن يتذكر أنه ممثل أسرته أمام السماء .

ومع ذلك فلا أجرؤ على الكتابة إليه، فأنا مجرد امرأة تستحوذ عليها مخاوف النساء ، قد لا يكون هناك شىء ، ولكن إذا لم يكن هناك شىء فلماذا يحدق بنا هذا التوقع القاسى الذى ننتظره يومًا بعد يوم ؟

لقد أخذتُ بعضَ أعواد البخور وأحرقتها أمام الإلٰهة « كوان – ين » سرًّا ، مخافة أن يضحك زوجى منى . قد يكون سائغًا ألَّا نعتقد فى الآلهة حينما لا تكون هناك مشكلة تدنو منا ، ولكن إذا رفرف الحزن بأجنحته السود فوق أحد البيوت فبمن نستغيث ؟ لقد صليتُ لها قبل أن يُولَد طفلى فسمعتنى واستجابت لى .

* * *

هذا اليوم يعلن بداية الشهرالقمرى الثانى عشر . إن أمى ترقد فى

فراشها ساكنة بلا حراك ، وقد بدأت أخشى عليها ألَّا تستطيع أبدًا النهوض منه. توسلتُ إليها أن تستدعى الأطباء ، فوافقت فى النهاية ، وأخاف أن يكون ذلك نتيجة تعبها منى . فاستقدمت « تشانج » الطبيب الشهير ، والمشتغل بعلم التنجيم الذائع الصيت ليعنى بها . ودفعت له أربعين أوقية من الفضة ، وقد وعدها بالشفاء . وأثلج صدرى حين قال هذا ، حيث يعرف الجميع أنه حكيم .

ولكننى تعجبت متى تحل ساعة الفرج والتماثل للشفاء .. إنها تدخن الأفيون المحشو به غليونها على نحو متواصل لتقضى على الألم فى أعضائها الحيوية ، وهى فى حالة نعاس لا يمكِّنها من الحديث ، ووجهها أصفر باهت، وجلدها مشدود فوق العظام حتى أصبح جافًا ، وله ملمس الورق الرقيق .

التمستُ منها أن ترى زوجى لعله يحاول علاجها بالأدوية الغربية ، ولكنها أَبَتْ . وتمتمت بأنها كانت شابة ، والآن صارت عجوزًا ، ولكنها لن تستطيع أبدًا احتمال الطرق والأساليب التى يتبعها الهمجيون .. أمَّا زوجى فهو يهز رأسه حين أُحَدِّثُه عن أمى ، وإنى لأَرى أنه يعتقد أنها قَابَ قوسين أو أدنى من دخول ظُلْمَة الموت .

آه يا أمى !! يا أمى !

* * *

أخى لا ينبس ببنت شفة من الصباح حتى الليل ، فهو يجلس فى

سكينة مستغرقًا فى التفكير داخل شقته الخاصة ، محدقًا بعينيه ، مقطبًا جبينه ، وحين ينتبه من أعماق ذاته فإنما ليعبر فقط عن نوبة مسعورة من الحب والحنان نحو زوجته .. لقد صارا يعيشان فى وجود خاص بهما، فى عالم يقيما فيه وحدهما مع طفلهما الذى لم يُولَد بعد .

وقد قام بوضع حاجز من عصى الخيزران المجدولة على بوابة القمر حتى لا تتمكن النساء الخاملات من استراق النظر إليها .

وعندما أتحدث معه عن والدتنا يتصامم غير راغب فى الإصغاء . وينطلق قائلًا المرة تلو المرة كطفل غاضب :

– لن أستطيع أنْ أسامحها .. لن أستطيع أنْ أسامحها !

لم يسبق قط طوال حياته أن رُفض له أى شىء ، وهو الآن لا يمكنه أن يسامح أمه !

وظل عدة أسابيع لا يذهب ليراها ، ولكنه أخيرًا تأثر قليلًا بمخاوفى وتوسلاتى ، فمضى معى ووقف بجوار فراشها ، وظل واقفًا فى صمت عنيد، رافضًا أنْ يُحييها . نظر إليها ، وفتحت عينيها وتطلعت إليه بثبات دون أن تنطق بكلمة .

ومع ذلك ، فحين انسحبنا معًا من حضرتها ، وعلى الرغم من أنه لم يتحدث عنها حتى معى ، فإننى لاحظتُ أن وجهها المريض قد هزه . كان يشك فى أن هناك قرارًا مريرًا ستتخذه ضده هو الذى جعلها تُلازم

حجرتها، ولكنه أدرك الآن أنها مريضة على نحو مُميت ، ولذا فإنه صار بعد ذلك يذهب كل يوم كما أخبرتنى « وانج دا ما » ، ويحمل إناء الشاى بكلتا يديه ويقدمه بنفسه لأمه ، دون كلام .

كانت تشكره أحيانًا بصوت واهنٍ ، وفيماعدا ذلك لم يكن لديهما ما يقولانه بعد أن صار معروفًا أن زوجته تحمل فى أحشائها طفلًا .

بعث أخى برسالة إلى والدنا ، وسيحضر غدًا .

* * *

لم تتحدث أمى منذ عدة أيام ، وترقد مستغرقة فى نوم عميق لم يسبق أن رأينا مثله قط . هز الطبيب « تشانج » كتفيه ، ومد يديه قائلًا :

– إذا قضت السماء بالموت ، فَمَنْ أنا لأمنع قضاءً علويًّا ؟

تناول أجره من الفضة ، ودفع يديه فى كُمَّيْهِ وانصرف . وحين مضى إلى حال سبيله ، هرولتُ إلى زوجى والتمستُ منه أن يأتى ليرى أمى . وأنها الآن لا ترى شيئًا مما يجرى حولها ، ولن تعرف ما إذا كان قد جاء أم لا . رفض فى أول الأمر ، إلا أنه عندما رأى مدى خوفى عليها جاء كارهًا ، ووقف بجانب فراشها ، وكانت هذه أول مرة يرى فيها أمى .

لم أره قط بمثل تلك الحالة من التأثر .. أطال النظر إليها ، ثم ارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وخرج مسرعًا . ذهلتُ ، خشية أن يكون مريضًا ، ولكننى حين سألته اكتفى بقوله :

– سبق السَّيْفُ العَذَلَ .. سَبَقَ السيفُ العَذَلَ (١) .

ثم استدار نحوى فجأة وهو يصيح :

– إنها شديدة الشبه بكِ ، حتى خِلْتُ أنَّ وجهك قد استلقى هناك وقد فارقته الحياة !

وبكينا معًا .

* * *

إننى الآن أذهب إلى المعبد يوميًّا ، حيث لم أعد أتوجه إلى هناك إلا نادرًا منذ أن وُلد ابنى ، وحين اكتحلت عيناى به لم يعد لدىَّ ما أريده من الآلهة، لذا فهم غضبوا لسعادتى ، عاقبونى من خلال أمى المحبوبة . إننى أذهب إلى إلٰه العمر الطويل . وأقدم أمامه قرابينَ من اللحم والنبيذ . وقد نذرت للمعبد مائة حلقة من الفضة إذا أَبْلَتْ أُمِّى من مرضها . ولكن الإلٰه لم يستجب لى . إنه يجلس بلا حراك خلف ستارته . ولست أعرف ما إذا كان يتقبل قرابينى أم لا .

من تحت حياتنا جميعًا تتآمر علينا هذه الآلهة من وراء الحجاب .

* * *

آه يا أختاه ! لقد تحدثت الآلهة أخيرًا ، وأبانوا لنا عن ولعهم بالأذى ! انظرى ! إننى أرتدى كساءً من الخيش ! الأبيض الخشن ! من أجلها .. من

---

(١) مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَا قد فات ولا يُسْتَدْرَك .

أجل أمى !آه يا أمى ، يا أمى !. لا تمنعينى من البكاء .. يجب أن أبكى الآن .. لأنها قد ماتت!

كنتُ قد جلستُ معها وحدى فى منتصف الليل وكانت ترقد – كما استلقت طوال هذه الأيام العشرة – كأنها قطعة من البرونز .. لا تتحرك .. لم تتكلم ولم تأكل .. لقد سمعتْ روحُها فى ذلك الحين نداءَ الأصوات العلوية ، ولم يبق لها سوى قلبها القوى ينبض بوهن فى سكون .

وحين أطلت ساعة ما قبل الفجر ، رأيتُ فى خوف مفاجىء أن هناك تغيرًا ألم بها ، فصفقتُ بيدىَّ ، وأرسلتُ الجارية التى كانت تؤدى الخدمة ليلًا إلى أخى . كان يجلس فى الحجرة الخارجية مستعدًّا فى انتظار استدعائى له .. وحين جاء نظر إليها وهمس وهو نصف خائف :

– لقد حل التغيُّر الأخير . لنرسل أحدهم إلى أبينا .

أشار إلى « وانج ادا ما » التى كانت تقف بجانب الفراش تكفكف دموعها ، فانسحبتْ لتنفِّذ ما أمرها به . وقفنا ننتظر وقد تشابكت أيدينا ، وطفقنا نبكى فى رهبة .

وعلى حين غرة بدا أن أمى تحاول النهوض ، أدارتْ رأَسَها وحدَّقَتْ فينا ، ورفعت ذراعيها ببطء كما لو كانتا تنوءان بحملٍ ثقيل ، وتنهدت بعمق مَرَّتين ، ثم سقط ذراعاها ، وفاضت روحها فى صمت كما كانت فى حياتها دون أن تبوح بشىء .

وعندما دخَلَ والدنا – وهو ما زال نصف نائم ، وأثوابه ملقاة بسرعة

حول جسده – أخبرناه .. وقف قُبالتها يحدق فيها خائفًا .. فلطالما كان يخشاها فى قلبه .. وشرع الآن يبكى ، وانهمرت دموعه كطفلٍ ، وصرخ بصوت عالٍ :

– زوجة فاضلة .. زوجة فاضلة !

قاده أخى بلطف بعيدًا ، وأخذ يُهدئه وهو يطلب من « وانج دا ما » أن تحضر نبيذًا ليخفف عنه ، وليجد فيه سلوى وعزاء .

ثم تُرِكْتُ وحدى مع أمى ، فنظرتُ ثانية إلى الوجه الصامت المتيبس ، وكنتُ الوحيدة التى طالما رأيتها على حقيقتها ، وانصهر قلبى فى دموع حارة ملتهبة . وأخيرًا أسدلتُ الستائر عليها ، وأغلقتُ الباب ، وتركتها للوحدة التى عاشت فيها .

أُمَّاه .. آه يا أمى !

* * *

عطرنا جسدها بزيت زهور « الأَقَنْثا » ، وطوقناها بلفة تلو اللفة من الشاش الحريرى الأصفر . ووسَّدْنَاها فى أحد تابوتين كبيرين صنعا من جذوع أشجار الكافور الضخمة ، وكانا قد أُعِدَّا لها ولأبى منذ سنين عديدة حين مات جدى وجدتى .. ووضعنا حجر « اليشب » المقدس فوق عينيها المغلقتين .

أحكمنا الآن إغلاق التابوت الكبير ، واستدعينا ضارب الرمل بغية التكهن وكشف الغيب ، واستشرناه ليدلنا على اليوم السادس من الشهر

القمرى السادس من العام الجديد .

عندئذ استدعينا الكهنة فجاءوا مرتدين ثياباً قرمزية وصفراء طبقًا لشعائرهم وطقوسهم الدينية . وفى موكب جليل مهيب بمصاحبة موسيقى حزينة معزوفة على المزامير ، أوصلناها إلى المعبد انتظارًا ليوم الدفن.

إنها ترقد هناك تحت أعين الآلهة فى صمت وغبار القرون . ليس ثمة صوت يعكر صفو نومها الطويل ، هناك فقط الأناشيد الخافتة التى يترنم بها الكهنة على الدوام فى الفجر فى حُمْرَةِ الأفق عند غروب الشمس ، ورنين جرس المعبد الذى يدق على فترات متباعدة خلال الليل .

إنى لا أستطيع أن أفكر فى أَحَدٍ غيرها .

الفصل العاشر



10

أَمِنَ الممكن أن تكون أربعة أَشْهُر قمرية قد افترقنا فيها يا أختاه ! إننى أضع فى شعرى شريط الحداد الأبيض من أجلها ، تلك الأم العريقة . ولو أننى أعيش حياتى ، إلا أننى لم أَعُدْ كما كنت . لقد فصلتنى الآلهة من منبعى ، من اللحم الذى صاغ لحمى، والعظم الذى صُنعت منه عظامى ، وسأظل أنزف على الدوام عند موضع الاتصال .

غير أننى أتأمل الأمر وأفكر فيه مليًّا . لما كانت السماء لم تُلَبِّ رغبة أمى الكبرى ، فهل كان من كرم الآلهة ومحبتهم لها أَنْ نقلوها من عالم متغيِّر لم يكن باستطاعتها أن تدركه قط ؟ لقد بلغت من العمر أرذله ، فكيف يمكنها أن تحتمل ما سيجىء ؟ سأخبرِكِ بكل شىء يا أختاه .

لم يكد موكب الجنازة يمر عبر البوابة العظمى أمام المحظيات حتى بدأن يتشاجرن فيما بينهن حولَ من ستكون الأولى . لقد تاقت كل واحدة فى أن تكون السيدة الأولى مكان أمى ، مشتهية أن ترتدى الملابس الحمراء التى لم يكن مسموح لهن كزوجات صغيرات أن يتدثرن بها . وكانت كل

منهن تودّ أن تحظى بامتياز أن تُحْمَل عبر البوابة العظمى حين تموت ، لأنكِ كما تعلمين يا أختاه ، أن جثمان المحظية داخل تابوتها يمر فقط من خلال بوابة جانبية ، وكل واحدة من هؤلاء الحمقاوات راحت تتزين من جديد لتظفر مرة أخرى بنظرات أبى .

أَوَ قلتُ كل واحدة ؟ لقد نسيتُ تلك الأخرى ، « لا – ماى » .

كل هذه الشهور التى طالت الآن إلى أعوام ، كانت تقيم فى ضياع الأسرة فى الريف ، وتحت وطأة الحزن الذى انتابنا ساعة موت أمى ، نسينا أن نكتب إليها .. وقد مرت عشرة أيام قبل أن يحمل خادم أبى كلمة إليها .. نعم فقد عاشت فعلًا وحدها هناك دون أن يكون معها أحد سوى ابنها والخادمات ، منذ أن تردد أن أبى سيتخذ محظية جديدة بالإضافة إليها ، وصحيح أنه لم يقدم على ذلك ، لأن رغبته فى المرأة التى أراد إضافتها كمحظية قد تضاءلت قبل المضى فى الترتيبات النهائية ، إذ قرر أنها لا تستحق كمية الأموال التى طلبتها أسرتها من أجلها ، غير أن « لا – ماى » لم تستطع أن تنسى أنه رغب فى غيرها ، وهى لم تعد إليه إطلاقًا ، ولما كان يكره الريف ، فقد عرفت أنه لن يذهب إليها هناك .

ولكنها حين سمعت بوفاة أمى جاءت على الفور ، وذهبت إلى المعبد حيث يرقد جثمان أمى ، وألقت بنفسها على التابوت ، وذرفت دموعها فى صمت طوال ثلاثة أيام دون طعام . وعندما أخبرتنى « وانج دا ما » بهذا مضيتُ إليها ورفعتها بذراعىَّ ، واصطحبتها إلى بيتى .

لقد تغيرت حقًّا . فقد زايلتها ضحكاتها وحيويتها ، ولم تعد ترتدى الحرير الزاهى ، وكَفَّتْ عن صبغ شفتيها اللتين أصبحنا ناحلتين باهتتين فى وجهها الشاحب .. إنها تجلس مكتئبة فى هدوء وصمت ، ولكنها ظلت محتفظة بترفعها القديم ونظرتها الساخرة . وحين سمعت بتنازع المحظيات فيما بينهن تكورت شفتاها فى هزء وازدراء ، وهى وحدها التى لا تبالى ولا تهتم بأن تكون السيدة الأولى .

وهى تتجنب ذِكْرَ أى شىء عن أبى . وقد سمعتُ أنها آلت على نفسها أن تتناول سُمًّا إذا عَنَّ له أن يقترب منها مرة أخرى . وهكذا تخثَّر حبها فى داخلها كما يتخثر اللبن ، وتحول إلى كراهية .

وعندما سمعت عن زوجة أخى الأجنبية لَاذَتْ بالصمت ، كأنها لم تسمع شيئًا مِمَّا قُلته ، ولما حدثتها بذلك ثانية ، استمعت ببرود ، وقالت بصوت خفيض حاد كالثلج :

– إنها محاولة كبرى لإثارة الشعور العام فيما يتصل بشىء سبق أن قررته الطبيعة .. هل يستطيع ابن مثل ذلك الأب أن يكون مخلصًا ؟ إنه الآن بكل كيانه فى غمرة رغبته الجنسية .. إننى أعرف ماذا يعنى ذلك .. ولكن انتظرى حتى يُولد ابنها ويتمزق جمالها كما يتمزق غلاف أحد الكتب .. هل يدور فى خلدها أنه سيهتم بقراءة الكتاب حينئذ ؟ حتى لو لم تتحدث صفحاته بشىء سوى حبها له ؟

ولم تهتم بأكثر من ذلك ، ولم تتحدث عن أبى بأى كلمة فى أثناء الأيام

الأربعة التى قضتها فى بيتى ، لقد مات كل ما كان تمتلىء به جوانحها من مَرَح وابتهاج وتوق إلى الحب .. إنها الآن غاضبة فقط ، دائمًا غاضبة من كل شىء ، غير أن غضبها لا حرارة فيه ، فهو بارد لا مبرر له ، وليس هنا ما يدعو إليه ، مثل غضب الأفعى المتخم بالسم . لقد ارتعبتُ منها أحيانًا ، وأخبرت زوجى بما كان منها بعد أن رحلت ، ووضعتُ يدى فى يده . أمسك يدىَّ بكلتا يديه فترة طويلة ، وأخيرًا قال :

– إنها امرأة ساخرة . وفى ظل عاداتنا القديمة لم تلق المرأة اعتبارًا لائقًا ، وكان يستخفُّ بها ، وهى لم تكن من اللواتى يحببن بسهولة ويتحملن نزع سهامه .

ما أفظعَ الحب إذا لم يستطع أن يتدفق عذبًا نقيًّا ، نضيرًا قويًّا ، فياضًا، من قلب إلى قلب !

ومن جهة « لا – ماى » فقد عادت إلى الريف بعد انتهاء فترة الحداد على أمى .

* * *

أما بالنسبة للمحظيات الأخريات فلم يكن من المستطاع اتخاذ قرار بشأنهن حتى يعترف بزوجة أخى ، حيث إن زوجته الشرعية هى الأحق طبيعيًّا بأخذ مكان والدته كسيدة أولى .

ولكن هناك مسألة أصبحت الآن أكثر إلحاحًا لأن بيت « لى » الذى ما زال أخى خطيبًا لابنته بدأ يبعث بالرسائل يوميًّا تقريبًا مع الوسطاء يستحثنا على إنجاز الزواج فورًا .

من الطبيعى أن أخى لم يخبر الأجنبية بذلك ، ولكننى عرفت الأمر ، ففهمت عندئذ لماذا أصبح وجهه مُنْهَكًا ، وازداد قلقه حين أطبقت عليه هذه التعقيدات ، وأحدقت به : وكان أبى يستقبل الوسطاء ، فى حين أن أخى لم يرهم فى الواقع ، لم يستمع إلى كلماتهم . أمَّا والدى فلم يكفّ عن ترديد ما قالوه بلا مبالاة وهو يضج بالضحك .

ومنذ وفاة والدتنا جدد أخى والأجنبية ما بينهما من حب . وكان ذا فى حد ذاته أشبه بسكين مرهف النصل سُدِّدَ إلى أعضاء أخى الحيوية – كالدماغ والقلب – والتوى فيها ، فاجتث كل حديث عن أى زواج آخر . وعلى الرغم من أن الأجنبية لم تحب أمى فإنها مع ذلك – حين أَنَّبَ أخى نفسه فى النهاية لأنه كان فظًّا غليظًا مع أمه إبَّان مرضها وضعفها ، وحين طفق يدق صدره عندما اعتقد أنه عجل بنهايتها كانت (أى زوجته الأجنبية) تصغى إليه بأناة متعاطفة معه ، وتُعامله بفيض من الرقة والحنان.

كانت تستمع إلى ندمه ، وتحول أفكاره بلطف إلى مجىء الطفل ، ونحو المستقبل . إنها حكيمة . إن امرأة غيرها ذات أفق ضيق كانت تمتعض مستاءة من نواحه وتفجُّعه على أمه. ولكن الأجنبية حين تحدث عن فضائل أمه – شأن كل مَنْ يتحدث عن هؤلاء الذين ماتوا – كانت تسلم بذلك معه ، وكانت تصمت بِسُمُوٍّ ونُبل ولباقة فيما يتعلق بموقف أمى منها . بل قد أضافت إلى إطرائه وثنائه عليها احترامها لقوة روح أمى ، على الرغم من أنها كانت موجهة ضدها . وهكذا كان أخى يبثها ما يعتمل

فى داخله ، مُنَفِّسًا عمَّا تنوء به نفسه من أشجان وأحزان ليتدفق حبه لزوجته مالئًا به فراغه الباطنى من جديد .

ومن ثم مَكَثا معًا فى سكنهما بعيدًا عن كل شىء ، ونادرًا ما كنتُ أراهما طوال فترة ليست بالقصيرة ، وكأنهما كانا يعيشان فى بلاد أخرى نائية ، ولم يكن أحد يستطيع الاتصال بهما ، وعندما كنت أذهب إليهما كانا يُرحبان بى دائمًا ، إلا أنهما – دون أن أعرف لماذا – سرعان ما ينسيان وجودى . كانت أعينهما تلتقى سرًّا ، وتتحدثان معًا من خلال النظرات المتبادلة بينهما ، حتى حين كانت كلماتهما معى تخرج من بين شفاههما ، وإذا حَدَثَ وكانا مبتعدين عن بعضهما – بجلوسهما عند طرفى الحجرة – فإنهما يندفعان دون وعى منهما حتى يُصبحا متجاورين .

وإنى أعتقد أنه فى تلك الأيام من الحب المتجدد بدأ أخى يرى بجلاء ما يجب عمله ، وامتد إلى روحه هدوء خاص حتى أصبح يتوق إلى منحها كل شىء عن طيب خاطر ، وزَايَلَهُ ما كان يعتريه من قلق وأَرَق .

وحين كنتُ أرقبهما أدهشنى أنهما زَرَعَا الدفء فى قلبى ، ولو حدث أنى رأيتهما هكذا قبل زواجى لتقززتْ نفسى من مثل تلك الأحاسيس العاطفية بين رجل وزوجته، وَلَبَدَا لناظرىَّ مشهدٌ يعوزه الوقار والكرامة، طالما كنت لا أستطيع فهمه . ولَقَلَّلْتُ من شأن الحب نفسه ، واستهنتُ به ، معتقدة أنه جدير بالمحظيات والجوارى .

والآن هٰأَنْتِذِى تَرَيْنَ كيف تغيرتُ ، وكيف علَّمَنِى سيدى ! لا ريب أننى كنت لا أعرف شيئًا حتى جاء .

وهكذا عاشَا معًا ، ينتظران المستقبل ، هذان الاثنان ، أخى وزوجته الأجنبية .

* * *

ومع ذلك فلم يكن أخى فى أوج السعادة ، أمَّا هى فقد كانت سعيدة ! لم يكن شيئًا ذا بالٍ الآن عَدَمُ كونها عضوًا فى أسرة أخى ، فبرحيل والدته عن عالمنا – وعلى الرغم من مشاركتها الوجدانية – فقد انزاح عنها نوعٌ من الاسترقاق والعبودية ، ولما كانت تعرف أن طفلها يعيش فى أحشائها ، تحررت من بعض مخاوفها التى انتابتها من قبل ، ولم تعد تفكر فى شىء الآن غير زوجها ونفسها وطفلهما . وعندما تحس بطفلها يتحرك بحيوية ونشاط كانت تبتسم وتقول :

– إنه هذا الإنسان الصغير الذى سيعلمنى كل شىء . سأتعلم منه كيف أنتمى إلى بلاد زوجى وجنسيته .. سيرينى مدى شبهه بوالده منذ أن كان طفلًا رضيعًا حتى بلغ سن الرجولة . لن أكون منعزلة ووحيدة بعد الآن .

وقالت لزوجها مرة أخرى :

– لا يهم الآن إنْ كانت أُسرتُك ستستقبلنى أم لا ، فقد دخل عظمُك ودمك ودماغك فى كيانى ، وسأَلِدُ ابنًا منكَ ومن قومك .

ولكن أخى لم يكن مقتنعًا بقانون الروح هذا .. لقد انحنى لها احترامًا حين تحدثت هكذا ، خرج من أمامها وقد غلى مرجل الغضب تجاه أبيه . وقال لى :

– يمكننا أن نعيش وحدنا – نحن الاثنين – إلى الأبد ، ولكن هل سنحرم الطفل مما سَيَئُولُ إليه بالميراث ؟ وهل يحق لنا أنْ نفعل ذلك ؟

ولكننى لم أستطع أن أجيبه بشىء ، لأننى لم أكن أعرف ما هو الرأى الحكيم .

* * *

حين اقترب موعد ولادة الطفل ، وأصبحت متوقعة ذلك فى أية ساعة ، فإن أخى ذهب مرة أخرى إلى أبى ليسأله منح زوجته اعتبارها الرسمى . وسأخبرك يا أختاه بما قاله لى أخى .

قال : إنه مضى إلى ساكن أبيه ، وهو يحاول أن يؤكد لنفسه ما سبق أن لاقته زوجته من استحسان وتأييد من والده ، وكان أخى يأمل أن يكون ذلك قد أسفر عن بعض الميل الحقيقى نحوها .. أحنى أخى رأسه أمام أبيه وقال :

– يا أبى المبجل ، الآن وقد فَارَقَتْ عالمنا السيدةُ الأولى ، أمى المبجلة ، لتقيم بجوار الينابيع الصفراء ، فإنى ابنك التافه ، ألتمس أن تتفضل وتتنازل بالاستماع لى .

كان والده يجلس إلى المائدة يشرب ، وها هو ذا الآن قد أمال رأسه

وابتسم ، وما زال يبتسم ، وصب النبيذ من الإبريق الفضى ، وأخذ يرتشفه هاشًا باشًا من طاس الخمر الصغيرة المصنوعة من « اليشب » التى كانت بيده ، ولم يجب بشىء ، ولذا تشجع أخى فأكمل حديثه قائلًا :

– إن الزهرة المسكينة التى جاءت من الأرض الأجنبية ، تسعى الآن لتحقيق وضعها فى المركز الملائم بيننا . وقد تزوجنا شرعيًّا طبقًا للعادات الغربية فى الزواج ، وهى فى نظر مواطنيها وأبناء بلدها تعد السيدة الأولى لى، وهى تتوق إلى توطيد وضعها وفقًا لقوانين وطننا ، وهذا شىء فائق الأهمية طالما أنها على وشك أن تضع ابنى الأول .

إن السيدة الأولى رحلت عن دنيانا ، ونحن سنظل نتفجع على فقدها إلى الأبد ، غير أنه من الضرورى أن نضع السيدة الأولى لابنها فى الترتيب الصحيح لجيلنا . إن الزهرة الأجنبية ترغب فى أن تكون واحدة منا ، وأن تنتمى إلى جذورنا ، كما ينقل جزء من غُصَين شجرة الخوخ (١) ويُدفع فى شقٍّ طولى بجذع شجرة أخرى مثمرة فتندمج الخلايا وتلتحم الأنسجة الحية ، قبل أن يحمل الطَّعْم ثمار الفاكهة .

إنها تريد لأطفالنا أن ينتموا إلى جنسنا الصينى العريق السماوى إلى الأبد، ولم يبق الآن إلَّا أن يعترف بها والدنا ، وقد شجعها ما سبق أن أبداه نحوها من عطف ومُساندة ، وكَرَمٍ مُتَّسِمٍ بسماحة النفس .

وظل أبوه صامتًا لا يقول شيئًا ، واستمر يبتسم ، وصب مزيدًا من النبيذ واحتساه من طاس الخمر الصغيرة ، وأخيرًا قال :

---

(١) ويُسَمَّى : الطُّعْم . وغُصَين تَصغير غُصْن .

- إن الزهرة الأجنبية مليحة . وما أجمل عينيها اللتين تشبهان جوهرتين قرمزيتين ! وما أنصع بياض لحمها الذى يُحاكِى لُبَّ اللوز ! لقد سَلَّتْنَا كثيرًا. أليس كذلك ؟ إننى أهنئك ، لأنها على وشك أن تهديك لعبة صغيرة!

صب النبيذ من الإبريق واحتساه ثانية ، وأكمل حديثه بأسلوبه الدمث العذب :

- اجلس يا بنى .. لقد أفْرَطْتَ فى إرهاق نفسك .

وفتح درج المنضدة وأخرج طاسًا ثانيةً ، وأشار لأخى أن يجلس ، وملأ الطاس بالنبيذ حتى حافته ، بيد أن أخى رفض الشراب ، وظل واقفًا قبالته. وواصل أبوه حديثه ، وصوته الغليظ اللَّيِّن ينساب فى سهولة ويُسر:

- آه ، ألا تحب النبيذ ؟

ابتسمَ وارتشفَ الخمر ، ثم مسح شفتيه بيده ، وعاود الابتسام .. وتكلم أخيرًا حين رأى أخى عاقدًا العزمَ على أن يستمر واقفًا أمامه حتى يتلقى جوابًا :

- أما عن طلبك يا بنى فسآخذه بعين الاعتبار وأفكر فيه مليًّا ، إننى مشغول جدًّا ، هذا بالإضافة إلى أن وفاة والدتك قد ملأتنى بلوعة الحزن حتى صرتُ غير قادر الآن على التركيز فى أى أمر من الأمور .. سأرحل الليلة إلى « شنجهاى » لعلنى أجد بعض السلوى واللهو لأعيد إلى عقلى

جِدَّتَه ومُضَاءَه ، حتى لا أسقط سقيمًا عليلًا من فرط ما بُليت به من أحزان وأشجان . بَلِّغْ تحياتى للسيدة التى تنتظر مولودًا ، وأخبرها بثنائى عليها .. أَوَدُّ أن تلد ابنًا كزهرة اللوتس » وداعًا يا بنى .. الابن الفاضل ! الابن الكفؤ !

نهض وهو ما زال يبتسم ، وانتقل إلى الحجرة الأخرى ، وسحب الستارة .

وحين حدثنى أخى عن كل ذلك ، كانت كزاهيته قد بلغت حدًّا جعله يتحدث عن أبى كما لو كان شخصًا غريبًا .. آه !! لقد تعلمنا – حتى حين كنا أطفالًا – أن الأوامر العالية المقدسة تنص على أن الرجل لا يجب أن يحب زوجته أكثر من والديه ، فهذه خطيئة أمام لوحات الأسلاف والآلهة، ولكن أى قلب إنسانى ضعيف يستطيع أن يصد تيار الحب المتدفق فيه ؟ إن الحب يندفع داخله ، سواء قَبِلَهُ القلبُ أو رَفَضه . كيف لم يعرف القدماء ذلك على الرغم مما كانوا يمتلكون من حكمة ؟ إننى لا يمكننى أن ألوم أخى بعد الآن .

* * *

من الغريب أن الأجنبية هى التى تقاسى الآن بشدة .. إن عداء أمى لها ونفورها منها لم تُسبب لها مثل ذلك الحزن . إنها مسحوقة الفؤاد أسًى ويأسًا من إهمال والدى لها ولامبالاته حيالها . كانت فى أول الأمر غاضبة منه ، وتتحدث عنه ببرود ، وحين سمعت بما جرى بين زوجها وأبيه قالت:

- هل كان إذًا كل ما أبداه من مَوَدَّةٍ نحوى كذبًا وادِّعَاءً وتصنُّعًا ؟ لقد اعتقدتُ أنه استملحنى ومال إلىَّ . لقد شعرتُ أننى وجدتُ فيه صديقًا لى. ماذا كان يعنى ؟. أوه ! حقًّا يا له من حيوان متوحش تتحكم فيه طبيعته البهيمية !

صعقنى مثل ذلك الحديث المكشوف الذى ينال ممن هو أكبر سنًّا ، ونظرت إلى أخى لأرى ماذا سيقول لها مُؤَنِّبًا أو مستنكرًا لما بَدَرَ منها ، ولكنه وقف صامتًا وقد أَحْنَى رأسه ، فلم أستطع أن أرى وجهه .. كانت تنظر إليه وقد اتسعت عيناها رعبًا كما بدا لى ، وفجأة ودون إنذار - لأن طريقتها فى الحديث كانت فى منتهى البرود والتحرر - انفجرت متنهدة، وأسرعت إليه باكية :

- أوه يا أعز ما لَدَىَّ ، دعنا نغادر هذا المكان البشع البغيض!

أذهلنى انفعالها المفاجىء .. غير أن أخى تلقاها بين ذراعيه ، وراح يُحدثها هامسًا ، ولذا سحبتُ نفسى وأنا أشد ما أكون ألمًا من أجلهما ، وقد انتابنى الشك تجاه المستقبل .

* * *

الآن قد اتخذ والدنا قراره يا أختاه ! كان تَلَقِّى قراره أمرًا ثقيلًا على النفس ، ولكنَّ معرفته خيرٌ من التعلق بأمل كاذب.

بعث رسولًا لأخى بالأمس ، وهو أحد أبناء العم الثالث ، ومسئول فى عشيرة بيت أبى ، وكان يحمل إرادة والدنا إلى أخى بهذه الكلمات ، بعد أن تناول الشاى والمرطبات فى قاعة الضيوف :

- اسمعْ ، يا بْن « يانج » إنَّ أباك يجيب على التماسك ببساطة ووضوح هكذا ، ويوافقه على ذلك أعضاء العشيرة ، حتى أدناهم منزلة يؤيدونه . يقول والدك :

- من المستحيل أن نستقبل المرأة الأجنبية بيننا ، ففى عروقها تتدفق دماء غريبة غير قابلة للتغيير ، والأطفال من رحمها لا يمكن أن يكونوا من أبناء « هان ».. وحيث يكون الدم مختلطًا وغير نقى لا يمكن أن يُصبح القلب مستقرًّا راسخًا .

زِدْ على ذلك أن ابنها لا يمكن قبوله عضوًا فى قاعة الأسلاف ، فكيف يمكن لأجنبى أن يركع أمام ذلك الصف الطويل والمقدس من القدماء العظام ؟ واحد فقط يستطيع أن يجثو هناك ، إذا كان وريث سلالة نقية ، وكان يجرى فى بدنه دم الأسلاف الخالص .

ثم أكمل حديثه قائلا :

- إن أباك كريم ، وهو يرسل إليكَ ألف قطعة فضية ، وعندما يولد الطفل ادفع لها ، ودَعْهَا تقفل راجعة إلى بلادها . لقد أَطْلَقْتَ العنانَ للعبث واللهو فترة طويلة ، وآنَ لَكَ أن تستأنف واجباتك . اسمع الأمر الذى صدر ! تَزَوَّجِ الفتاةَ التى أُخْتِيرَتْ لكَ . إن ابنة « لى » قد ضاق صدرها بهذا التوانى الطويل .. لقد صبرت أسرة « لى » مفضلة إرجاء الزواج حتى ينتهى جنونك الذى تناقلته الألسن فى كل أنحاء المدينة ، حتى ألحقَ الخزْىَ والعارَ بالعشيرة ، ولكنهم لن ينتظروا بعد الآن ، إنهم يطلبون

حقوقهم ، ولا يمكن تأجيل الزواج أكثر من ذلك .. إن الشباب سريع الزوال ، والأبناء الذين ينجبهم الآباء فى شبابهم هم الأفضل .

ثم سَلَّمَ إلى أخى حقيبة مثقلة بالفضة .

غير أن أخى تناول الفضة وقذف بها فوق الأرض ، وانحنى إلى الأمام ، وكانت عيناه أشبه بمدية ذات حَدَّيْن ظامئة إلى قلب الآخر .. كان غضبه يتجمع تحت وجهه الذى بدا مكسوًّا بالجليد ، انفجر الآن رهيبًا كومضات برق غير متوقع عبر سماء صافية . وصاح :

– ارجع إلى هذا المرء واطلبْ منه أن يأخذ فضته ! فَمِنَ اليوم لن يكون لى أب ، وليس لى عشيرة .. وأَتَبَرَّأُ من اسم « يانج » ! أزيلوا اسمى من السجلات ! وسأمضى أنا وزوجتى قُدُومًا . وفى هذا اليوم سنكون أحرارًا مثل غيرنا من شباب البلدان الأخرى . وسنبدأ سلالة جديدة .. حُرَّة .. متحررة من هذه الروابط القديمة الكريهة التى جثمت ثقيلة مرهقة فوق أرواحنا !

ثم أسرع الخطى مغادرًا الحجرة .

التقط الرسول كيس الدراهم وهو يغمغم :

– آه ، هناك أبناء آخرون .. هناك أبناء آخرون !

ثم عاد إلى والدى .

أَوَّاه يا أختاه ! هل ترين الآن لماذا قلت إنه كان من الخير أن أمى قد ماتت ؟ كيف كانت ستتحمل رؤية مثل هذا اليوم ؟ كيف تستطيع احتمال

رؤية ابن إحدى المحظيات وهو يأخذ مكان ابنها الوحيد والوريث الذى سئتول إليه ثروة أبيه ؟

وعلى ذلك فإن أخى الآن لا يملك شيئًا من ممتلكات الأسرة ، وسيدفع نصيبه إلى بيت «لى » تطييبًا لخاطرهم إزاء الإهانة والإساءة التى لحقتهم .. وتقول « وانج ادا ما » إنهم يتطلعون إلى زواج لتلك الفتاة التى كانت خطيبة أخى .

ما أعظم التضحية التى قدمها أخى فى سبيل حُبِّه لهذه الأجنبية !

* * *

إن أخى لم يخبر زوجته بشىء عَمَّا ضَحَّى به حتى لا يوقع الكآبة فى نفسها ، خاصة أنها تنتظر مولودًا ، لئلا يُنَغِّص عليها سعادته فى المستقبل ، واكتفى بقوله :

– دعينا نغادر هذا المكان يا عزيزتى ، إذْ لا يمكن أن يكون لنا مأوى داخل هذه الجدران .

ابتهجتْ ، وذهبتْ معه فَرِحَةً جَذِلَةً .. وهكذا ترك أخى بيت أسلافه إلى غير رجعة ، ولم يكن هناك أحد فى وداعه ، فيما خلا « وانج ادا ما » العجوز التى جاءت وبكت وأحنت رأسها أمامه حتى لامست التراب وهى تصرخ :

– كيف يغادر ابن سيدتى تلك المساكن ؟ إنه الوقت الذى فارقت فيه الحياة .. إنه الوقت الذى مت فيه !

إنهما يعيشان الآن فى بيت صغير من طابقين ، مثل البيت الذى نقطن

فيه فى شارع الجسور . وقد تغير أخى خلال هذه الفترة القصيرة ، فبدا أكبر سنًّا ، وأكثر هدوءًا ، ولأول مرة فى حياته كان عليه أن يفكر من أين يأتى بالطعام والثياب .. وهو يذهب يوميًّا فى الصباح الباكر ليعلّم فى المدرسة الحكومية هنا . وهو الذى لم يسبق له قط أن نهض من فراشه حتى تتوسط الشمس كبد السماء .. إن عينيه يبدو فيهما التصميم والعزم ، وصار أقلَّ كلامًا وابتساماً عَمَّا اعتاد عليه من قبل . وقد غامرتُ ذات يوم وقلت له :

– هل تأسف على أى شىء يا أخى ؟

فالتمعت عيناه وهو يوجه نظراته السريعة القديمة نحوى من تحت جفنيه ، وأجاب :

– أبدًا !

آه ، أعتقدُ أن أمى كانت مُخطئة ! فهو لم يكن ابن أبيه .. إنه ابن والدته فى ثباته وحزمه .

* * *

والآن ، ماذا تظنين يا أختى قد وقع ؟ لقد ضحكتُ حين سمعتُ به ، وفجأة دون أن أفهم انخرطتُ فى البكاء .

ففى الليلة الماضية سَمِعَ أخى قرعًا عنيفًا على باب بيته الصغير ، فتوجه ليفتحه بنفسه ، إذ لم يكن لديهما سوى خادمة واحدة فى هذه

الأيام ، ولشدة دهشته وجد « وانج دا ما » تقف قبالته .. لقد جاءت ممتطية عربة يد يعجلة واحدة ، وأحضرت معها كل حوائجها فى سلة كبيرة من الخيزران وحزمة مربوطة فى قطعة قماش زرقاء ، وحين رأت أخى قالت له فى هدوء بالغ ورباطة جأش :

– جئت لأعيش مع ابن سيدتى ، ولأخدم حفيدها .

فقال أخى :

– ولكن ألا تعرفين أننى لم أعد أعتبر ابنَ أُمِّى ؟

أجابت « وانج دا ما » فى عناد وهى تشدد قبضتها على السلة والحزمة فى كل من يديها :

– والآن ماذا بعد ؟! أَوَ تقف هناك وتقول ذاك الكلام ؟ أَلَمْ آخُذْكَ من ذراعى أمك إلى هاتين الذراعين وأنت لم يكن طولك يبلغ قدمًا ، وكنتَ عاريًا كإحدى الأسماك ؟ أَوَ لم تَرْضَعْ من ثَدْيَيَّ ؟ وكما وُلدت فأنت كما أنت، وابنك هو ابنك . دَعِ الأُمورَ تجرى كما أقول !

لم يعرف أخى بماذا يجيب إلا بشق الأنفس .. لقد عرفتنا حقًّا طيلة حياتنا ، وهى بالنسبة لنا أكثر من خادمة . وبينما كان يقف مترددًا ، تحركت وأدخلت حزمتها وسلتها فى القاعة الصغيرة ، وهى تدمدم وتلهث ، فقد تقدمت سِنّها وأصبحت الآن بدينة ، وراحت تبحث عن كيس نقودها فى ارتباك . ولما عثرت عليه استدارت لتتشاجر بقوة مع صاحب العربة عن أجرة الركوب . وهكذا استقرت كما لو كانت فى بيتها .

لقد فعلت هذا من أجل أمى .. من العبث أن يُبالغ المرء فى تأمُّل سلوك إحدى الخادمات ، ومع ذلك فإن أخى يضحك ضحكة يشتم منها العطف حين يتحدث عنها . فقد سَرَّهُ مجيئها ، وأن ابنه سينام ويلعب على ذراعيها.

وفى هذا الصباح قدمت لتقدم احتراماتها لى ، وكانت كما عهدناها .. وقد يظن المرء أنها عاشت مع أخى أعوامًا عديدة فى هذا البيت الأجنبى ، على الرغم من أننى أعرف أنها تدهش سرًّا من أشياء كثيرة .. ويقول أخى إنها تتظاهر بعدم ملاحظتها لأى شىء غريب ، مع أنها لا تثق على وجه الخصوص بدرجات السلم ، ولا شىء يقنعها ويستميلها كى تصعد فوقها لأول مرة أمام الآخرين ، ولكنها أخبرتنى اليوم بأن التغييرات التى حدثت فى بيت أُمِّى قد وقفت فى حلقها .

قالت : إن المحظية البدينة قد أصبحت السيدة الأولى فى مكان أمى .. وقد أُعلن ذلك فى قاعة الأسلاف أمام اللوحات المقدسة . إنها تتجول فى زهو واختيال مرتدية ثياباً حمراء وأرجوانية رمزًا لمنزلتها الرفيعة ، وقد أحاطت أصابعها بخواتم عديدة ، بل وانتقلت إلى حجرات أمى ! وحين سمعتُ « وانج دا ما » تخبرنى بذلك أدركتُ أننى لا أستطيع أبدًا أن أذهب إلى هناك مرة أخرى .

آه ، يا أمى !

* * *

إن أخى رقيق مع زوجته ، ويحيطها بحنانه أكثر من ذى قبل منذ أن ضَحَّى بكل شىء من أجلها ، هذا الذى عاش حياة رغدة فى كنف ثروة والده قد أصبح الآن فقيرًا . ولكنه تعلَّم كيف يجعلها سعيدة .

حين توجهتُ بالأمس لأراها كان نظرها موجهًا إلى صفحة كانت تكتب عليها سطورًا طويلة متدفقة متخذة شكلًا لولبيًّا، وعندما ولجتُ إلى الغرفة مع ابنى نظرتْ إلينا وهى تبتسم ، كما تفعل دائماً حين ترى الطفل.

قالت وقد لَمَعَتْ عيناها فجأة - كعادتهما عندما يشرق وجهها بالابتسام:

- إننى أكتب لوالدتى ، وهأنذى أخيرًا أستطيع أن أخبرها بكل شىء.. سأقول لها إننى علقتُ ستائر صفراء على النوافذ ، وأن هناك آنية تطل منها زهور النرجس الذهبية فوق المائدة . وسأخبرها أننى قد بَطَّنْتُ اليوم سلَّةً صغيرة بالحرير القرنفلى لينام فيها .... إنها حرير بلون زهور التفاح الأمريكى ! ستقرأ ما بين السطور ، وترى من خلال كل كلمة وتعرف كم أنا سعيدة .. كم أنا سعيدة أخيرًا !

هل سبق لَكِ يا أختاه أنْ رأيتِ واديًا ممتعًا ذا لون رمادى تحت سماء مُلَبَّدة بالغيوم ، مُنذرة بالمطر ، ثم تنقشع السحب فجأة وتسقط أشعة الشمس فتنطلق الحياة والألوان المتناغمة فرحة صاخبة من كل موقع فى ذلك الوادى ؟ هكذا هي الآن . فى عينيها حيوية الابتهاج والسرور ،

وصوتها أغنية متواصلة .. وشفتاها لا تهدآن ، فهما تنحنيان وتتقوسان، وتتحركان على الدوام بقليل من الابتسامات ، وشظايا من الضحكات السريعة .. وهى فى الواقع ذات جمال آسِرٍ . كثيرًا ما تشككت فى جمالها من قبل ، لأنها لم تكن تشبه شيئًا سبق أن رأيته ، ولكننى الآن أدركته بجلاء . لقد انقشعت العاصفة والكآبة الحزن من عينيها .. إنهما زرقاوان مثل البحر تحت سماء مشرقة تتألق فتنة وسحرًا .

أمَّا أخى ، فبعد أن أنجز ما قرر أن يفعله ، أصبح هادئًا ، رزينًا ، قانعًا، راضيًا .

إنه رجل .

وحين أفكر أن كُلًّا منهما قد ترك عَالَمَهُ من أجل الآخر ، أحنى رأسى أمام مثل ذلك الحب .. إنه سينتج ثمرة ثمينة رائعة ، مثل حَجَر كريم كاليشب .

أما طفلهما فتراودنى عنه فكرة أنه سيكون له عالمه الخاص ليشيده ويبنيه .. إنه لن يكون نقيًّا خالصًا صافى الدم ، لا من الشرق ولا من الغرب ، وسيصبح منبوذًا من كليهما ، إذْ لن يفهمه أى منهما .. غير أننى أعتقد أنه لو تحلَّى بقوة والديه الاثنين ، فسيفهم كُلًّا من هذين العالمين ، وهكذا سينتصر.

هذا ما أفكر فيه فقط حين أرى أخىَ وزوجته .. إننى امرأة فحسب ..

يجب أن أتحدث مع زجى بهذا الشأن ، فهو حكيم وعليم ببواطن الأمور دون أن يخبره أحد أين تكمن الحقيقة .

آه ، ولكننى أعرف هذا ! إننى مشتاقة لمشاهدة طفلهما . وأود أن يكون أخًا لابنى .

***

ها هى ذى الأجنبية تُغنى ، وساعة بعد ساعة تنبع الأغانى من قلبها وتصعد إلى شفتيها كما تصعد الفقاقيع خلال سائل، وهى مرحة وتشعر بفرح مذهل . وأنا ، وقد سبق لى أن وضعتُ ابنًا ، أبتهج معها أيما ابتهاج ، ونحن بتجربتنا وخبرتنا البشرية المشتركة مشدودتان معًا برباط واحد . إننا نحيك الملابس ، ملابس صينية صغيرة ، وحين تفكر فى أى الألوان تختار فإنها تعقد حاجبيها فوق شفتيها المبتسمتين ، وتسأل نفسها هكذا.

– الآن ، إذا كانت عيناه سوداوين فسيحتاج إلى هذا اللون القرمزى ، ولكن إذا كانتا رماديتين فيجب أن يحظى باللون القرنفلى الوردى . وتدير عينيها الضاحكتين نحوى قائلة :

– هل ستكون عيناه سوداوين أم رماديتين يا أختى الصغيرة ؟

عندئذ أسألها وأنا ابتسم بدورى :

– بأى لون هما الآن فى قلبك ؟

فتقول وقد تدفق الدم فجأة فى وجنتيها خجلًا أمامى :

– إنهما سوداوان على الدوام ، دعينا نأخذ اللون القرمزى .

حينئذ أخبرها :

– إن القرمزى هو لون الفرح والسرور ، وهو دائمًا يناسب الابن .

وكنا نعرف معًا أننا قد اخترنا اللون بحكمة .

ثم جعلتُها ترى الملابس الصغيرة الأولى الخاصة بابنى ، ووضعنا معًا نماذج التفصيل على قماش الساتان القرمزى المزين برسوم الأزهار ، وعلى الحرير القرمزى الناعم .وقد طرزت نماذج لنفس الأحذية الصغيرة التى لها شكل وجه النمر . وبمثل تلك المهام اقتربتْ كُلٌّ واحدة مِنَّا مِنَ الأخرى .. ونسيتُ عن أى وقت مضى أنها غريبة ، لقد أصبحت أختى ، وتعلمتُ أن أناديها باسمها : مارى .. مارى !

* * *

وعندما تم إعداد كل شىء ، قامت بعمل مجموعة صغيرة من الملابس الأجنبية لم يسبق أن رأيت مثلها لبساطتها ورقتها وأناقتها . وأدهشنى الثوب الرقيق . كان الكُمَّان الصغيران يتدليان إلى التنورة الطويلة بشريط مزركش ، يشد الخصر ، كان أروع من التطريز . ومع أن القماش لم يكن من الحرير فإنه كان ناعمًا كضباب رقيق ، وقد سألتها :

– كيف ستعرفين متى تُلبسينه تلك الأثواب ؟

ابتسمت وربتت وجنتى بسرعة . إن لها أساليب حلوة لطيفة حين أصبحت مرحة الآن .

– ستة أيام من الأسبوع سيكون فيها طفل أبيه ، ولكننى فى اليوم السابع سأُدَثِّره الكتان والأشرطة المزركشة ، وسيصبح أمريكيًّا .

ثم اكتسى وجهها فجأة بالوقار ، وقالت فى بطء ورزانة :

– لقد اعتقدتُ فى أول الأمر أننى أستطيع أن أجعله صينيًّا تمامًا ، ولكننى أعرف الآن أننى يجب علىَّ أن أمنحه أمريكا أيضًا ، لأنها نفسى ، وسوف ينتمى إلى طَرَفِى العالم ، يا أختى الصغيرة .. إلى كلينا .. إليكم وإلىَّ.

ابتسمتُ لها ثانية .. إننى أرى الآن كيف تمكنت من اجتذاب قلب أخى إليها ، واستحوذت عليه بقوة .

* * *

الآن جاء ابنهما إلينا يا أختاه ! لقد تلقيتُه بين ذِرَاعَىَّ من يَدَىْ « وانج دا ما » . كانت تتمتم وتضحك مزهوة وهى تناوله لى .. لقد تفرستُ فيه بشوق ولهف .

إنه طفل رجل .. طفل يتمتع بالقوة والنشاط ، على الرغم من أنه ليس فى جمال ابنى .. إنَّ ابنًا شبيهًا بزوجى وبىّ لا يمكن أن يُولَد مثيلٌ له مرة ثانية .. غير أن ابن أخى وأختى لا يشبه أحدًا سواه .. إن له عظامًا كبيرة ، ويتمتع بنشاط وقوة ، ومفعم بالحيوية ، تلك الحيوية التى يتسم بها

الغرب، ولكنَّ شعرَه أسودُ ، وعينيه سودوان مثلنا ، وبشرته – على الرغم من صفائها – كاليشب ، إلا أنها سمراء . ويمكنني أن أرى الآن في عينيه وشفتيه سيماء وجه أمي .. يا له من مزيج من الألم والسرور وأنا أرى ذلك!

غير أنني لم أُحَدِّثْ زوجة أخي عن هذا الشبه ، وحملتُ إليها طفلها وأنا أضحك وأقول :

– انظري ماذا فعلت يا أختي ! بهذه العقدة الصغيرة قد قمتي بربط عالمين !

كانت مستلقية في ضعف وإرهاق وهي تبتسم ، وهمست قائلة :

– ضَعِيهِ بجانبي .

ففعلتُ ذلك .

إنه يرقد على صدرها الناصع البياض بوجهه الأسمر ، وعينيه السوداوين .. ركزتْ أُمُّه عينيها عليه ، ولمست شعره الأسود بأناملها البيضاء .

قلت وأنا أبتسم لدى رؤيتي لهذا المشهد :

– يجب أن يرتدي الثوب الأحمر ، فهو شديد السُّمْرة بالنسبة إلى لونك الأبيض .

قالت ببساطة :

– إنه يشبه والده ، وأنا قانعة راضية .

ثم دَخَلَ زوجها ، فانسحبتُ .

* * *

فى الليلة الماضية – بعد مولد الطفل – وقفتُ بجوار زوجى فى غرفة ابننا.. نظرنا معًا من النافذة المفتوحة وتطلَّعنا إلى الليلة المقمرة .. كان الهواء صافيًا شفافًا ، وكانت حديقتنا كلوحة أبدعتها الفرشاة بالأسود والأبيض .. وارتفعت الأشجار سامقة تجاه السماء ، وسقطت أشعة القمر على قممها الأبنوسية فبدت متألقة كالفضة .

كان ابننا يرقد خلفنا نائمًا فى سريره الخيزرانى .. لقد نما الآن وضاق به السرير ، وهو حين ينام يدفع بذراعيه إلى الخارج فترتطم يداه بجوانب السرير فى رفق .. إنه هذه الأيام رجل بكل ما فى الكلمة من معنى . نظر بعضنا إلى بعض .. كنتُ أنا وزوجى فى زهو وفخر حين سمعنا تنفسه القوى الثابت .

ثم طاف بذهنى الطفل المولود حديثًا ، وكيف يبدو شبيهًا بأمى التى فارقت الحياة حين بدأت حياته . قلت بتؤدة ممتزجة ببعض الأسى :

– يا لَأَلَمِ الانفصال الذى حَلَّ بحياة طفل أخينا وأُختنا ! انفصال أُمه عن بلادها وسلالتها ، وألم أُمِّ أَبِيه وهى تتخلى عن ابنها الوحيد ، وألم أبيه وهو ينسحب قاطعًا صلته ببيته وأسلافه ، ضاربًا عرض الحائط بالماضى المقدس !

بيد أن زوجى قابلَ ذلك بالابتسام فحسب ، ووضع ذراع حول كتفىَّ، ثم قال بوقار :

– فَكِّرِى فى هذا فقط .. إنَّ فرحة مجيئه إلى العالم كثمرة لذلك الارتباط شىء رائع ! لقد أدمج قَلَبَىْ والديه فى قلبٍ واحد ، هذين القلبين بكل ما بينهما من اختلافات وفروق فى المنبت والتربية .. فروق ترجع إلى قرون سابقة ! فيا له من زواج !

وهكذا أراحنى وقوَّانى عندما تذكرتُ ما مضى من أحزان .. إنه لا يدعنى أتعلق بأى شىء لمجرد أنه قديم ، جاعلًا إيَّاىَ أُيَمِّمُ وجهى شطر المستقبل ، وهو يقول :

– يجب أن ندع كل ذلك يذهب أدراج الرياح يا حبى ! نحن لا نود لابننا أن يرسف فى أغلال الأفكار القديمة البالية التى لا نفعَ فيها !

إننى حين أفكر فى هذين الاثنين ، ابنى وأخيه ، أعنى ابن خاله ، أُدرك أن زوجى على صواب .. وأنه ذو رأى سديد على الدوام .


المؤلف

بيـرل بـاك

بيرل باك روائية أمريكية طبقت شهرتها الآفاق غربًا وشرقًا بما أبدعته من روايات تتناول الحياة فى الصين . وكثير من أعمالها أسهمت فى مزيد من التفاهم بين شعوب آسيا والغرب ، وكرست معظم حياتها لإقامة جسر بين عالمى الشرق والغرب ؛ حتى يعرف أبناؤهما بعضهُم بعضًا على نحو أفضل . حصلت على جائزة بوليتزر عام ١٩٣٢ ، وميدالية وليم دين هولز عام ١٩٣٥ ، التى منحتها الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب لأروع الأعمال الروائية الأمريكية التى صدرت فى الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٥ ، ثم فازت بجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٣٨ .

معظمُ القُرَّاءِ العاديين ، بل وكثير من نقاد الأدب والمؤرخين ، يظنون أن « بيرل باك » حصلت على جائزة نوبل من أجل روايتها « الأرض الطيبة » ، وقد جَانَبَهُم جميعًا الصواب فى ذلك الظن الذى لا أساس له من الحقيقة . وإنى لا أقول ذلك من فراغ ، بل سأستشهد بما جاء فى تقرير اللجنة التى منحتها الجائزة : « من أجل الوصف والتصوير الملحمى لحياة الفلاحين الصينيين ، وروائع كتبها المتعلقة بسير حياة الأشخاص». وها هى ذى الروائية السويدية « سيلما لاجرليف » التى كانت أول امرأة تفوز بجائزة نوبل ، فى الآداب ، والتى حصلت عليها عام ١٩٠٩ ، وشاركت كعضوة فى لجنة نوبل ، قد صرحت بأنها أعطت صوتها لصالح «بيرل باك » بسبب تفوقها المتميز فى كتابها عن سيرة حياة والدها . ولا شك أن ذلك فيه إشارة إلى كتابى « بيرل باك » وينطبق

عليهما ، وهما بعنوان : « المنفية » ، وهو دراسة عن حياة والدتها ، و « الملاك المناضل » الذى تصور فيه حياة والدها. والكتابان ضمهما مجلد واحد نُشر عام ١٩٣٧ .

ولدت « بيرل سيدينستريكر » فى السادس والعشرين من يونيه عام ١٨٩٢ فى بيت الأسرة فى «هيلز بورو » بولاية « وست فيرجينيا » حينما كان والداها « أبسالوم وكارولين سيدينستريكر » فى إجازة من عملهما كمبشرين فى إرسالية دينية بالصين . وعلى الرغم من أن « بيرل سيدينستريكر » قد وُلدت فى الولايات المتحدة ، فإنها انتقلت إلى الصين مع والديها وهى لم يتعد عمرها خمسة أشهر ، وتربت هناك ، حيث قضت باكورة سنواتها ذات الأثر الفعال فى تكوينها . وقد شكلت الصين عقل الطفلة وخيالها ودمغتها بطابع لا يُمْحَى .. والصين عالم غريب .. عالم من السقوف العتيقة الطراز المكسوة بالقرميد التى تعلو البيوت ، والمعابد البوذية ، وتماثيل عجيبة لآلهة غير معروفة تبعث خشية فى النفس ، واحتفالات الأعياد ، والمهرجانات الفريدة الغنية بالألوان ، والنابضة بالحيوية . وهناك أنواع متباينة لا حصر لها من الناس تمتد من المتسولين المعدمين ، إلى الشخصيات الموغلة فى السن من ذوى الوقار والهيبة ، إلى اللصوص وقُطَّاع الطرق الهمجيين البعيدين عن المدينة فى التلال القريبة ، والذين كثيرًا ما يُهاجمون المدن والقرى الصغيرة . وكان والدا « بيرل سيدينستريكر » يأنفان دائمًا من تعقيدات الإرساليات الدينية المتحفظة المنفّرة التى يعملان فى حقلها ، وفَضَّلَا أن يعيشَا ويعملَا

بين أبناء الصين من عامة الشعب .. وهكذا نمت الطفلة الصغيرة على مقربة من سكان الصين الوطنيين فَأَلِفَتْهم ، وحملت لهم مَوَدَّةً وصداقة حميمة . وكانت تتحدث الصينية ، وتلعب مع الأطفال الصينيين ، وتزورهم فى بيوتهم ، وتستمع إلى أفكارهم ، وعرفت مشاعرهم ووجهات نظرهم.

واستحوذت الحكايات والقصص على الفتاة الصغيرة ، وهى تعترف بأنها كانت فضولية أزعجت كل امرىء بما تطرحه من أسئلة تكون أحيانًا عميقة ، وتتسم بحب الاطلاع على شئون الآخرين الخاصة . إن قصة عن أى شخص فى مكان قريب أو بعيد تأسرها وتثير اهتمامها ، إلا أنها كانت مولعة بوجه خاص بحياة من حُولها من الناس . وهى تتذكر أنها كانت تستمع ساعات طويلة لأى امرىء يتحدث إليها ، ولاحظت أن الصينيين كانوا لا يكتمون ما يتصل بحياتهم الخاصة حين يتناقشون بشأنها ، بل يتحدثون عنها بالتفصيل.

وجدير بالذكر أن « بيرل سيدينستريكر » استمعت فى صغرها إلى سلسلة لا نهاية لها من القصص رَوَتْهَا لها حاضنتها ومربيها العجوز وهى طفلة . وأعلنت « بيرل » فيما بعد أن تلك القصص كانت تمثل أول تأثير أدبى ترك بصماته عليها ، وكانت تلك الخادمة الصينية مولعة على وجه خاص بأن تروى الأساطير البوذية والطاوية .

أثارت الأساطير البوذية اهتمام الطفلة الأمريكية لما فيها من خيال

جامح، من تحليق وانطلاق ، وحركات سريعة ، وهروب وفرار ، مثلما جاء فى قصة عن الخناجر العجيبة التى يمكن أن يتناقص حجمها وتصغر إلى درجة يمكن معها إخفاؤها فى أُذُن امرىء أو فى زاوية عينه ، ولكنها عند الإمساك بها لخوض معركة أو للدفاع عن النفس تزداد طولًا وقوة .

أما بالنسبة للطاوية - وهى دين صينى خالص - فيعتبر الحكيم «لاوتسو » مُنشئًا له . وتشمل الطاوية أفكار وفلسفة وتعاليم ذلك الحكيم الصينى الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد . وكان مرجعهم فى ذلك كتابه « تاو تيه تشينج » .

ويحتل دين الطاوية المنزلة نفسها مع الكونفوشيوسية والبوذية . وتتصف الطاوية باتجاه إيجابى نشط نحو الإيمان بالقوى الخفية الغامضة، وبإمكان إخضاعها للسيطرة البشرية بالسحر ، واتجاه إلى ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا .

وكانت قصص الأساطير الطاوية التى ترويها الخادمة الصينية للطفلة الأمريكية تتناول الشياطين ، وحكايات الجن ، والأرواح الخيالية الفانتازية التى تعيش فى الصخور والأشجار ، والتنانين التى تقطن الرياح والعواصف .

وبالإضافة إلى الحكايات والقصص العجيبة التى كانت ترويها الخادمة الصينية سمعت « بيرل سيدينتستريكر » من والدها قصصًا نادرة فريدة ومثيرة . فقد كان « أبسالوم سيدينستريكر » بحكم مهنته

كمبشِّر فى إرسالية دينية يقوم برحلات إلى المناطق النائية المنعزلة فى الصين ، ومر بتجارب ومخاطرات نادرة ومثيرة . وعلى الرغم من أنه بطبيعته كان محتفظًا كتومًا ، إلا أنه لدى عودته كان يروى بعض مخاطراته ، وما مر به من خبرات وتجارب . وترك ذلك تأثيرًا عميقًا على ابنته الصغيرة .

أما « كارولين سيدينستريكر » والدة « بيرل » فقد كانت بطبيعتها راوية بارعة فى سرد القصص والأخبار ، وتحب الغناء والاشتراك فى الحفلات العامة . وكانت تحن فى أفكارها إلى وطنها فى أمريكا ، فبصَّرت ابنتها بالكثير عن حياتها كفتاة فى « وست فرجينيا » حيث كانت الحياة هناك مخالفة تمامًا للحياة التى عرفتها «بيرل » . وها هى ذى « مسز سيدينستريكر» تخبر ابنتها عن الحرب الأهلية الأمريكية وما حاق بأسرتها فى هذه الجائحة . إنها تتحدث كثيرًا عن أقاربها وأسلاف الأسرة . كانت تنشد الأغانى ، وتتلو أشعار القصائد لتسلية أطفالها ، كما حاولت أن تزرع فى نفوسهم حب الطبيعة والهواء الطلق فى الخلاء . والشىء الذى لا يُنْسَى أيضًا تلك الاستعدادات التى كانت تجرى للاحتفال بعيد الميلاد وما يحيط به من مباهج رائعة ومسرات عجيبة .

كانت هناك أيضًا قصص وآراء ووجهات نظر من دول أخرى ، فطبيب العائلة كان من أبناء الهند ، وكان هو وزوجته يجيدان التحدث باللغة الإنجليزية . أمطرت الصغيرة «بيرل » الطبيبَ وزوجته بالأسئلة عن طفولتهما ، وعن تعليمهما المدرسى ، وعن الحياة فى الهند بوجه عام . وهكذا أصبحت على وعى مبكر عن سحر وفتنة تلك الدولة .

كما صادقت « بيرل » سيدة يابانية تقيم على مقربة منهم ، كانت تزورها كثيرًا ، حيث كانت على معرفة واسعة بأناس من بورما ، وسيام ، وإندونيسيا ، وغيرها من الدول القريبة من الصين . وأسعد هؤلاء الأفراد الذين يقيمون فى الصين أن يتحدثوا عن أوطانهم .وهذه الصداقات قد أمدت «بيرل » بثروة من القصص والتجارب والخبرات التى ساعدت على تطوير عقل وخيال طفلة يقظة نَشِطَة ذكية .. وليس هذا فحسب ، بل زودتها أيضًا بمادة ضخمة لرواياتها وقصصها القصيرة .

وعزمت « بيرل سيدينستريكر » حتى وهى طفلة على أن تصبح كاتبة قصصية ، ولنستمع إليها وهى تقول : « إن المرء يشتاق أن يعمل ما يحبه ، وأنا قبل كل شىء أحببتُ سماعَ القصص عن الناس . وأخشى أننى كنت طفلة مزعجة ، يدفعنى الفضول دائمًا إلى حب الاطلاع على شئون الناس ، ولماذا كانوا كما وجدتهم ». لقد شعرت منذ طفولتها بدافع قوى لكتابة الروايات . وهى تعترف بأن الهواجس قد انتابتها تجاه ذلك ، واستحوذت عليها هذه الفكرة واستبدت بها ، وتسلم بأنها لن تذوقَ طعم السعادة أبدًا ما لم تداوم على الكتابة .

وبالإضافة إلى استماعها لقصص مختلف الناس فى شتى الأمكنة ، فإن الفتاة كانت كَلِفَةً بالقراءة بدون انقطاع ، وتنفق كل ما تحصل عليه من نقود فى شراء الكتب . ونظرًا لندرة كتب الأطفال فى الصين فقد انحصرت معظم قراءاتها فى الروايات ، وكانت غالبية تلك الأعمال من الروايات الإنجليزية ، لقلة الكتب الأمريكية التى يصعب الحصول عليها .

ومعظم قراءاتها فى صغرها كانت تشمل الأعمال الكاملة أو نصف الكاملة لشكسبير ، وسير والتر سكوت ، ووليم ثاكرى ، وجورج إليوت ، وتشارلز ديكنز . وقد بدأت فى قراءة « أوليفر تويست » حين كانت فى السابعة من عمرها . وهى تتذكر أنها كانت تقرأ جميع روايات ديكنز مرة على الأقل فى العام ، وتعيد قراءتها سنويًّا على مدى فترة تقرب من عشرة أعوام . لقد أسعدها ديكنز وأثَّر فيها ، مما دعاها إلى كتابة مقال حماسى تعبر عن إعجابها بقلمه ، وبقوة خياله.

تحدثت « بيرل سيدينستريكر » اللغة الصينية قبل أن تتكلم الإنجليزية ، ولكنها سرعان ما تمكنت من القراءة والكتابة بالإنجليزية أكثر من الصينية، فقد تلقت من والدتها دروسًا مكثفة فى اللغة الإنجليزية ، وكانت أمها تصر على أن تؤدى « بيرل » عديدًا من التمارين ، وتناقشها وتراجعها معها ، وتؤكد أهمية استعمال لغة إنجليزية صحيحة دقيقة . ونشرت كثيرًا من الكتابات التى كانت تتدرب عليها « بيرل » فى شبابها فى القسم المخصص للأطفال بجريدة « شانجهاى ميركورى » التى كانت تطبع بالإنجليزية . وظلت تُسهم بما تكتبه بضع سنوات ، وكانت تمهرها بتوقيع « المبتدئة » . وثابرت « مسز سيدينستريكر » على تشجيع ابنتها على التعبير عن أفكارها فيما تكتبه . ولا ريب أن هذا الإصرار على التدريب على الأساسيات قد آتى أُكْلَهُ فى تنمية الإحساس بالكلمات ، والقدرة على التعبير عن الأفكار بطريقة جلية قوية ، وأسلوب متميز واضح سلس .

وبالإضافة إلى التدريب الذى تلقته فى اللغة الإنجليزية ، فإن الفتاة

الصغيرة تعلمت على يد « السيد / كونج » وهو مدرس خصوصي خريج مؤسسة كونفوشيوسية ، سبق أن قدمت له منحة للدراسة فيها . لقد علَّم «بيرل » قراءة وكتابة اللغة الصينية . وليس هذا فحسب ، بل علمها أيضًا كثيرًا من مبادىء وقواعد السلوك ومعتقدات الكونفوشيوسية ، ودرست معه التاريخ الصينى ، وتنبهت إلى الإمبريالية والاستعمار الغربى واستغلاله لموارد الشرق الأقصى. وهى لا تنسى أبدًا مناقشاته وما درسه لها عن ثورة « البوكسر » .. تلك الجمعية السرية التى حاولت عام ١٩٠٠ طرد الأجانب من الصين ، وحمل المتنصرين الصينيين على الارتداد عن المسيحية، (ومن أثر ما فعلته هذه الثورة أنهم اضطروا فى وقت سابق إلى الهروب هى ووالدتها وشقيقتها إلى ساحل البحر للنجاة بجلودهن) . وقد نَصَحَ « السيد / كونج » تلميذته المشمولة برعايته ، وكل الأجانب من الجنس الأبيض أن يلوذوا بالفرار من الصين نفسها لإنقاذ حياتهم .

إن هذه العاقبة هى نتيجة منطقية للاستغلال الغربى ، وما عاناه الصينيون من جَوْرِهم وأعمالهم الظالمة .

وبعد وفاة الدارس المجدّ « السيد / كونج » فى عام ١٩٠٥ تعلمت «بيرل » فى إحدى مدارس الإرساليات ، ثم سافرت إلى « شانجهاى » لتلتحق هناك بمدرسة الآنسة جوويل . ومن منظور أدبى كان أثمن شىء فى السنة التى قضتها « بيرل » فى هذه المدرسة هى الخبرات التى نالتها فى شتى الأعمال الاجتماعية التى كانت تؤديها مديرة المدرسة . وأولها هى

تلك الزيارات إلى مؤسسة للجوارى اللاتى هربن من قسوة معاملة مَنْ يملكونهن . ولما كانت « بيرل سيدينسترِيكر » تتحدث الصينية بطلاقة فقد أجرت كثيرًا من المناقشات والحوارات الطويلة مع أولئك التعيسات ، وعلمت منهن خلفياتهن وخبراتهن وتجاربهن . وفى محاولة لزيارة وتقوية مشاعر « بيرل » الدينية ، ولكى ترى ضرورة القيام بأعمال طيبة صالحة ، كانت الآنسة « جوويل » كثيرًا ما تصحبها معها إلى مؤسسة تؤوى نساءً بيضاوات فقيرات منبوذات ، وكانت غالبيتهن من بائعات الهوى . وفى ذلك الوقت كانت « بيرل » فى طور المراهقة ، فأخذت على عاتقها تعليم النزيلات الحياكة ، وقراءة الكتب والقصص لهن ، وأدت غير ذلك من الأعمال الخيرية . ولكنها حين ذهبت لزيارة والديها فى عطلة أعياد الربيع ، وتحدثت عن إسهامها فى الأعمال الخيرية التى تقوم بها الآنسة « جوويل » رفضت أمها السماح لها بالعودة إلى هناك . وإذا افترضنا أن السنة التى أمضتها « بيرل » فى مدرسة الآنسة جوويل لم تتح لها مزيدًا من التعلم من الكتب ، فإنها وسعت وعمقت خبراتها وتجاربها الإنسانية ، ومنحتها مزيدًا من معرفة العالم .

هذه الخلفية العريضة ، والتدريب التربوى المتنوع أثبت نفعه حين سافرت « بيرل سيدينستريكر » فى عام ١٩١٠ إلى الولايات المتحدة لتلتحق بكلية « راندولف ماكون » النسائية بولاية « فرجينيا » وهناك كانت تكتب قصصًا فى المجلات والصحف التى تُصدرها الكلية ، وأسهمت فى كتابة مسرحية تُمَثَّل فى الفصل . وفازت بجائزتين أدبيتين فى

عام التخرج ، كانت إحداهما عن أفضل قصة قصيرة تكتبها طالبة فى كلية « راندولف ماكون » ، والجائزة الأخرى عن أحسن قصيدة .

وسرعان ما أدركت «بيرل » خلفيتها الصينية ووعتها جيدًا حين لفتت أنظار زميلاتها من الطالبات اللاتى كُنَّ ينظران إليها بفضول ، واعتبرنها غريبة الأطوار . وحتى تصبح جزءًا من المجموع رأت أنها يجب أن تَفْصِلْ إلى درجة مَّا بين عالميها ، ولهذا بدأت تلبس وتتحدث بمزيد من الأسلوب الغربى . وحين أتمت أول أعوامها هناك ، كان انتسابها إلى عالم جديد قد اكتمل تقريبًا ، ومع ذلك فقد سجلت أنها لم تكن مرتاحة ومتحررة من القلق تمامًا فى السنوات التى أمضتها فى كلية « راندولف ماكون » ، ولكنها أخيرًا أصبحت فى مكان الصدارة على فصلها .

وكان من أشق الأمور أن تتكيف مع أقارب والديها ، والذين كانت كثيرًا ما تزورهم فى العطلات . لقد أصبحت مولعة بمنطقة جبال «آليجينى » التى يقطنون فيها، غير أن طفولتها والتعليم الذى تلقته فى الشرق الأقصى حال بينها وبين أن تصبح جزءًا متكاملًا مع حياتهم ، ومع ذلك ، فبينما كانت تشعر فى بعض الأحيان أن الشد والتوتر الشرقى والغربى فى خلفيتها منقسمان ، فإنها أصبحت تدرك أن تلك التوترات كانت فى الحقيقة مشدودة ومرتبطة معًا بشكل دائم فى عقلها وقلبها .

وبعد أن حصلت على بكالوريوس فى الآداب من كلية « راندولف ماكون » النسائية فى عام ١٩١٤ دُعِيَتْ إلى العمل بها كمدرسة مساعدة فى قسم علم النفس والفلسفة ، وقد قبلت هذا المركز بعض الوقت ، غير أن

مرض أمها الخطير جعلها تعود إلى الصين قبل نهاية عام ١٩١٤ . كان والداها قد أنجبا سبعة أطفال ، لم يعش منهم إلى طور المراهقة سوى ثلاثة فقط . إن شقيقها الذى يكبرها بعشرة أعوام سافر ليدرس فى الولايات المتحدة ، حيث استقر هناك نهائيًّا . ولما كانت شقيقتها «جريس» تصغرها بسبع سنوات ، ونظرًا لانشغال والدها فى أنشطته الخاصة بإرساليته الدينية، كان لزامًا على « بيرل » أن تعود إلى الصين لرعاية أمها المريضة . وقد أخذتْ على عاتقها العناية بها . وقامت أيضًا بتدريس اللغة الإنجليزية لطلبة السنة النهائية فى المدرسة العالية . وفى أوقات الفراغ واصلت دراسة الكتابة الصينية بشكل أعمق ومكثف . وعندما استردت والدتها صحتها جعلتها ترأس جلسات اللقاءات التى تُعقد مع النساء الصينيات لمناقشة مشاكلهن والاستماع إلى وجهات نظرهن . وأخيرًا أتاح لها شفاء أمها فرصة تكريس كل وقتها لمزيد من الدراسة بجانب الاضطلاع بمهنة التدريس .

وبعد انقضاء ثلاثة أعوام على عودة « بيرل سيدينستريكر » إلى الصين ، تزوجت « د. جون لوسينج باك » وهو خبير زراعى أمريكى جاء أصلًا من ولاية نيويورك ، وكانت هيئة الإرساليات البروتستانتية قد عينته لتعليم الصينيين طُرُق الزراعة الأمريكية . وذهبت «بيرل » وزوجها ليعيشا فى «نانهسوتشو » فى إقليم « آنهواى » بشمال الصين . وهناك اطلعتْ بعمق على أحوال الفلاح الصينى ، وطُرُق الزراعة التى يتبعها ، وكفاحه مع الجفاف والقحط والمجاعة ، وأساليب نشاطه المعتاد يومًا

بيوم من أجل البقاء . وكانت تُصاحب زوجها فى رحلاته العديدة للريف . وبينما كان هو يناقش الرجال فى طُرق الزراعة وأساليبها التكنيكية ، كانت « بيرل » تختلط مع النساء والأطفال وتلاحظ حياتهم .

وفى تلك المنطقة الواقعة فى شمال الصين ، لم يكن سوى قلة من الجنس الأبيض يعيشون هناك ، وكانت هى أول شخصية بيضاء تقع عليها أنظار معظم السكان فى ذلك المكان ، وكانت تستمتع بزيارة هؤلاء الناس وتغريهم بالمشاركة فى الحوار الطويل معهم لكى تعلم الكثير عن حياتهم . وقد فتنتها تلك الأُسَر الريفية التى كانت تعمل بالزراعة على نحو بالغ المشقة ولا تحصل إلا على قدر ضئيل من المال . ولما كان زوجها على معرفة عريضة بشئون الزراعة ، أمكنها أن تستقى معلوماتها مباشرة وبدقة من ملاحظاتها الشخصية ، ومما درسه زوجها وتخصص فيه . وقد رأت « بيرل باك » فى هؤلاء الناس الذين يعلمون بالزراعة فى شمال الصين أنهم يمثلون الصينيين الأكثر أصالة والتصاقًا بالأرض فى السراء والضَّرَّاء ، وفى الضحك والبكاء ، من المهد إلى اللحد . وتقول « بيرل باك » : إن زيارتها للإسر الريفية قد أصبحت وسيلتها الخاصة وراء البحث عن الحقيقة ، وأنها وجدت بينهم الإنسان الأشد قربًا من الكائن البشرى .. ومنذ ذلك الوقت تغلغل فى أعماقها ، وانتشر بين جوانحها حب ثابت صامد مخلص للفلاح الصينى الذى غرس حبها له فى كل كيانها ، وارتحل معها إلى أعمالها الأدبية .

مكثت « بيرل باك » خمسة أعوام فى شمال الصين ، ثم رحلت مع

زوجها جنوبًا إلى « نانكينج » حيث حصل « جون لوسينج باك » على وظيفة مدرس فى جامعة « نانكينج » لتدريس طرق الزراعة ، فى حين وافقت «بيرل » على تدريس الأدب الإنجليزى بالجامعة نفسها . وكان ذلك بداية لفترة تقرب من عشر سنوات ، قامت خلالها « بيرل » بالتدريس، ليس فى جامعة « نانكينج » فقط ، بل فى الجامعة الشرقية الجنوبية أيضًا ، وفى جامعة « تشونج يانج » .

وفى أكتوبر عام ١٩٢١ توفيت « كارولين سيدينستريكر » والدة «بيرل»، وعقب موتها بدأت ابنتها تكتب سيرة حياتها كزوجة لمبشر فى إرسالية دينية ، وكان ما كتبته تذكارًا لأسرتها . وقد أنجزت مخطوطها الذى وُضِعَ جانبًا طوال سنوات عديدة . وكانت تلك السيرة الذاتية فى الحقيقة أول كتاب لبيرل باك ، وعلى الرغم من أنه قد تمت مراجعته وتوسيعه وإيضاحه بالتفصيل فيما بعد ، فإنه لم يُطْبَع إلا فى عام ١٩٣٦.

كانت حياة « بيرل باك » فى « نانكينج » مختلفة تمامًا عن الحياة الريفية فى شمال الصين ، فقد بدأت الأفكار الحديثة تتسلل الآن إلى العادات التقليدية الصينية القديمة وطُرق معيشتهم ، وكان كثير من الشباب الصينيين قلقين، والثورة تتأجَّجُ فى نفوسهم ، وكان طلبة الجامعة بوجه خاص فى حالة حيرة وارتباك .. لقد تربوا فى نظام محافظ بمجتمع أبوى يتميز بسُلْطة الأب المطلقة على الأسرة ، وهم الآن يواجهون أفكارًا متحررة ، وأساليب تفكير حديثة . . وكانت الثورة السياسية والاجتماعية تحلّق فى الأجواء ، وظهرت المناداة بالشيوعية ، وشعر

هؤلاء الطلبة بوقوعهم بين فَكَّيْنِ : طريقة الحياة القديمة ، والأفكار الديناميكية التقدمية الجديدة . وتطلع الكثيرون منهم إلى الدول الغربية سعيًا وراء التنوير ، ومع ذلك فقد رَأَوْا تناقضًا وعدم ترابط منطقى وفسادًا ،ولاحظوا أن المثالية الغربية كثيرًا ما كانت تخالف التطبيق العملى فى الغرب .

كانت حياة « بيرل » فى الصين شيئًا آسِرًا فاتنًا ، تفجرت فيه مواهبها. وبذلت جهدًا كبيرًا فى كتابة سيرة حياة والدتها . كما عزمت على تسجيل بعض انطباعاتها عن دولة كانت تعانى آلام مخاض التغيير . وأرسلت أولى مقالاتها عن هذا الموضوع إلى مجلة « آطلانتيك » الشهرية التى نشرتها فى عدد يناير عام ١٩٢٣ ، وكانت بعنوان « فى الصين أيضًا » . وقد ناقشت فى هذا البحث بعض الممارسات الجديدة : انتشار تدخين السجائر شعبيًّا ، نمو الاختلاط الاجتماعى الودِّى بين الجنسين والصداقة بينهما ، الرقص الأمريكى ، والتمرد ضد السلطة الأبوية . وكانت مشكلة الزواج فى تلك الأعوام شديدة التعقيد ، مثيرة للحيرة ، ففى الأزمنة السابقة كان الآباء يختارون للابن البنت التى ستُشاركه الحياة الزوجية ، وكذلك ينتقون لابنتهم الزوج الذى سيرتبط بها ، ويتولى هؤلاء الآباء أيضًا إعداد ترتيبات الزفاف ، أَمَّا الآن فإن الكثيرين من الشباب الصينى يطالبون بحق اتخاذ قرار الزواج بأنفسهم ، على النمط السائد فى الغرب .

واصلت « بيرل باك » الكتابة عن تيمات معاصرة ، كما بدأت تظهر لها

مقالات إضافية فى « فورم » و « نيشن » وغيرها من المجلات . وفى أثناء ذلك الوقت بدأت تكتب أيضًا قصصًا قصيرة ، وتخطط لراويتها الأولى . وكانت تواصل القراءة بنهم ، ليس فى الأدب الصينى التقليدى فحسب ، بل أيضًا للكتّاب الغربيين ، مثل الراوئيين الفرنسيين « إميل زولا » ، و «مارسيل بروست » ، والروائى والقصّاص الأمريكى « إرنست هيمنجواى » ، وكاتب المقالات الأمريكى « هنرى دافيد ثورو » الذى تأثر بتولستوى ، وكذلك بغاندى ، الذى أوحى إليه بمقاله عن العصيان المدنى، الذى تطور إلى المقاومة السلبية . وبوجه خاص فازت أعمال الروائى الأمريكى « تيودور درايزر » بإعجابها . وقد سجلت « بيرل » أنها قبل أن تبلغ العشرين من عمرها كان الراوئى الإنجليزى « تشارلز ديكنز» كاتبها المفضَّل . وقالت عنه : « لقد فتح عينىَّ على الناس ، وعلمنى حب شتى صنوف البشر » . لكنها بعد سن العشرين أصبح الروائى الأمريكى «تيودور درايزر » على رأس الكُتَّاب الذين تختار أعمالهم، وتبعه الروائى الأمريكى « سينكلير لويس » . وكانت « بيرل » مولعة بما تبوح به الشخصيات ، وما يتكشف للعيان ، خاصة إذا كان مثيرًا للدهشة على نحو مفاجىء . ونظرت بعين الاحترام والتقدير إلى « درايزر » و « لويس » والروائية الأمريكية « إيلين جلاسجو » لمقدرتهم على تحليل الشخصية الأمريكية .

وبالإضافة إلى الكتابة والقراءة على نطاق واسع فى أثناء تلك الفترة ، واصلت نشاطها بكل طاقتها فى مسيرة حياتها المتعددة الجوانب بكل كَدٍّ

ومثابرة ، وبدون كَلل أو مَلل .. تلك التى أصبحت من الصفات الأساسية التى تتسم بها حياتها . واحتفظت بموقفها كمحاضرة جامعية فى الأدب ، مع قيامها بواجباتها المنزلية ، وأزعجها وأرهقها كثيرًا حالة طفلتها الأولى «كارول » التى كانت تنذر بعلامات تثير الذعر ، تشير إلى تخلفها عقليًّا ، فسافرت بها إلى الولايات المتحدة لتتلقى علاجًا طبيًّا ، ومع ذلك فقد اكتشفت أن ابنتها الصغيرة ستظل مُعاقَة دائمًا .

ولكى تحوّل انتباهها عن هذه المأساة سجلت نفسها فى جامعة «كورنيل» كدراسة للحصول على درجة الماجستير فى الأدب الإنجليزى ، وكان زوجها يدرس هناك أيضًا، فغاب عن الصين لمدة عام . وفى السنة التالية أنجزت رسالتها عن كتَّاب المقالات البريطانيين فى القرن التاسع عشر ، ونالت درجة الماجستير عام ١٩٢٦.

وحينما كانت فى « كورنيل » عانت من شدة حاجتها إلى المال ، فعزمت على الاشتراك فى المنافسة من أجل الفوز بالجائزة الكبرى التى قدمتها الجامعة ، وقدرها مائتا دولارٍ تُمنح لأفضل مقال عن موضوع دولى هام . وقد حاول أستاذها أن يثنيها عن عزمها ، ناصحًا إياها بأنه لاحَظَ أن تلك الجائزة تُمنح عادة لطالب فى قسم التاريخ . وعلى الرغم من ذلك دخلت المسابقة ، وفازت بالجائزة . وكان موضوع مقالها عن : « الصين والغرب».. وهكذا التقى عالما الشرق والغرب بما يحملان من دلالة ومغزى فى حياتها مرة أخرى .

وقد استقالت « بيرل باك » من هيئة الإرسالیات الدينية التبشرية فى

عام ١٩٣٣ ، بعد أن نشرت مقالًا نقديًا عن المرسلين التبشيريين .

وفى عام ١٩٣٥ طُلِّقَتْ من « جون لوسينج باك » . وفى العام نفسه تزوجت « ريتشارد جون والش » رئيس شركة « جون داى » للطباعة والنشر ، ورئيس تحرير مجلة آسيا . وأقاما فيما بعد فى الولايات المتحدة . واستمرت هذه الزيجة حتى وفاته عام ١٩٦٠.

وقد اختيرت « بيرل » فى عام ١٩٣٦ عضوًا بالمعهد القومى للفنون والآداب . وامتد تعاطف « بيرل » نحو الجميع ، وخاصة الأطفال والبؤساء الذين لاَعَوْنَ لهم . وبعد الحرب العظمى الثانية أنشأت مع زوجها فى عام ١٩٤٩ « بيت الترحيب ».. وكالة لتبنى الأطفال غير الشرعيين من أصل أمريكى آسيوى ... وفى عام ١٩٦٤ أنشأت مؤسسة «بيرل سيدينستريكر باك » لرعاية الأطفال الأمريكيين الذين بقوا فيما وراء البحار . وفى عام ١٩٦٧ تبرعت لهذه المؤسسة بمعظم ما كسبته من أموال ، والتى تجاوزت سبعة ملايين دولار . وعملت أيضًا على إنشاء مدارس مهنية للمعوَّقِين . ومن أجل مجهوداتها الإنسانية مُنحت جائزة الإخاء من مؤتمر المسيحيين واليهود ، وجائزة « ويزلى » لما أدته من خدمات بارزة للإنسانية ، وأكثر من اثنتى عشرة درجة من درجات الشرف من الكليات والجامعات الأمريكية .

لم تكن رواية « **رياح الشرق .. رياح الغرب** » أول رواية تكتبها «بيرل باك » فقد كتبت رواية قبلها ، غير أن جنود الثورة الشيوعية القومية التى نشبت من ١٩٢٦ إلى ١٩٢٧ حين استولوا على « نانكينج »

اقتحموا منزلها وأتلفوا تلك الرواية . وكانت السيدة « لو » قد أسرعت قبل ذلك إلى البوابة الخلفية حيث أنقذت أصدقاءها البيض .. « بيرل باك » وأسرتها ، وأخفتهم فى كوخها الطينى . وعمل جيرانها الصينيون على حماية تلك الأسرة ، ونقشت فى ذاكرة « بيرل » امتنانها لكثير من الصينيين الذين خاطروا بحياتهم فى تلك الفترة العصبية لمعاونة الأجانب البيض . كانت هناك خسائر مادية ، ولكن شعورها بأهمية العلاقات الإنسانية تغلغل فى أعماق قلبها . ولاغرابة أن كتابها « عوالمى المتعددة » عن سيرتها الذاتية ، والذى يُعَدُّ وثيقة حارَّة عن الإنسانية ، نراها تعترف بنزاهة – ودون تحيز – أنها لو كانت صينية شابة – تعلمت ودرست عن شتى الحروب التى شنها الرجال البيض ، والامتيازات التى حصلوا عليها ، واغتصابهم للسلطة ، وعقدهم للمعاهدات غير المتكافئة ، وغير ذلك من المظالم التى جلبوها إلى الصين – فإنها أيضًا كانت ستتوق إلى إقصاء وطرد البيض من بلدها . وقد أشارت « بيرل باك » فى الوقت نفسه إلى أن هناك كثيرًا من الصينيين مَجَّدُوا الإنسانية والرحمة ، ورفعوهما فوق الحقد والعداء ، على الرغم من أنهم كانوا على وعى وإدراك بمظالم الماضى .. وقد نبع اقترابها الإنسانى من الناس فى كل مكان من مثل هذه الخبرات والأفكار .

و « بيرل باك » لا تشجب التفرقة العنصرية حيثما تجدها فحسب ، بل نراها أيضًا فى معظم أعمالها الروائية وغيرها من فروع الأدب ومقالاتها تسعى إلى شرح وتوضيح صورة الآسيويين إلى الأمريكيين ، والأمريكيين

إلى الآسيويين ، هادفة إلى تحقيق فَهْمٍ متبادلٍ لمواقف وأوجه الخلاف ، ومشاكل كل من الطرفين .

ومن أوائل مقالات « بيرل سيدينستريكر » التى نُشرت فى مجلة «كريستيان سينشرى » فى عام ١٩٣٣ بعنوان : « هل هناك قضية بخصوص الإرساليات التبشيرية الأجنبية » ، والتى أثارت غضبًا من جراء اتهامها لتلك الإرساليات ، وما شنته من هجوم ضدها وضد الكنائس نفسها ، التى تفتقر إلى التعاطف مع الناس ، وكل همها ينحصر فى أعداد المهتدين إلى الدين الجديد أكثر من رعايتها لما يحتاجه جمهرتهم.

إن « بيرل باك » كاتبة غزيرة الإنتاج ، وكانت أحيانًا تكتب باسم مستعار « جون سيدجيز » لتجد حرية فى كتابة روايات تتناول موضوعات أمريكية .

ومن أهم أعمالها الروائية :

« رياح الشرق .. رياح الغرب » (١٩٣٠) – « الأرض الطيبة » (١٩٣١) – « الأبناء » (١٩٣٢) – « الأم » (١٩٣٤) – « بيت منقسم » (١٩٣٥) – «بيت من الطين » وهى ثلاثية تشمل : الأرض الطيبة – الأبناء – بيت منقسم .. فى مجلد واحد (١٩٣٦) – « هذا القلب المتكبر » (١٩٣٨) – « الوطنى » (١٩٣٩) – « آلهة آخرون ».. أسطورة أمريكية (١٩٤٠) – « بذرة التنين » (١٩٤٢) – « سماء الصين » (١٩٤٢) – «الوعد» (١٩٤٣) – « انطلاق الصين » (١٩٤٥) – « صورة زواج » (١٩٤٥)– « أحد أبناء المدن » (١٩٤٥) (باسمها المستعار : جون

سيدجيز)– « جناح الحريم » (١٩٤٦) – « الزوجة الغاضبة » (١٩٤٧) (باسمها المستعار : جون سيدجيز) – « نبات الفاوانيا » (١٩٤٨) – «الأنباء » (١٩٤٩) – « الحب المديد » (١٩٤٩) (باسمها المستعار : جون سيدجيز) – « رجال الله » (١٩٥١) – « الزهرة الخفية » (١٩٥٢) – « الموكب المتألق » (١٩٥٢) (باسمها المستعار : جون سيدجيز) – « تعالى يا محبوبتى » (١٩٥٣) – « أصوات فى البيت » (١٩٥٣) (باسمها المستعار: جون سيدجيز) – « امرأة إمبراطورية » (١٩٥٦) : عن آخر إمبراطورة صينية – « رسالة من بكين » (١٩٥٧) – « فلتأمر الصباح (١٩٥٩) – « الشيطان لا ينام أبدًا » (١٩٦٢) – « القصب الحى » (١٩٦٣) – « موت فى القلعة » (١٩٦٥) – « الوقت ظهرًا » (١٩٦٧)– «العام الجديد » (١٩٦٨) – « بنات السيدة لياتج الثلاث » (١٩٦٩) – «الماندالا » (١٩٧٠) : رمز الكون عند البوذيين – « الإلٰهة باقية » (١٩٧٢) – « كلهم يلتحفون السماء » (١٩٧٣) – « قوس قزح » (١٩٧٤).

هذا ، وقد حظيت رواية « **رياح الشرق .. رياح الغرب** » بشعبية كبيرة ، حتى أنها طُبِعَتْ ثلاث مرات فى أقل من سنة ، وهى تدور عن فتاة تدعى «كواى لان » وزوجها الطبيب . وطبقاً للعادات الصينية القديمة ، قامت أسرة « كواى لان » بخطبتها إلى زوجها المستقبل حتى من قبل أن تولد . كانت كواى لان وأسرتها يتمسكون بالتقاليد والسلوكيات القديمة. ولكن زوج « كواى لان » الذى تعلَّم فى الخارج طوال اثنى عشر عاماً

يعتقد فى المساواة ، والاتجاهات الحديثة ، والممارسات الديموقراطية الغربية. ومن هذا الانقسام والانفصال الناجم عن الولاء والإخلاص لقضيتين مختلفتين ينشأ الصراع الأساسى فى الرواية . وكان ذلك الصراع مشكلة حيوية بالنسبة للصين فى القرن العشرين ، ومبعث حيرة وارتباك وتعقيد فى العشرينيات والثلاثينيات على وجه خاص .

وفى هذه الرواية تكتب « كواى لان » قصتها على شكل مونولوج تتحدث فيه طويلًا فى سلسلة رسائل إلى صديقة لها – قَدِمَتْ من بلد أجنبى لكنها استقرت فى الصين . وقد اختارت « كواى لان » هذه المرأة دون ذكر اسمها ، متخذة منها مستمعة فقط ، لأنها تعرف كُلًّا من اتجاهات الغرب وممارسات الشرق . وقد شرعت « كواى لان » تروى قصتها ، لأنها لم تكن سعيدة فى بداية زواجها ، وفى أمَسِّ الحاجة إلى سرد حالتها التعيسة ، والمأزق الذى تعيش فيه ، وإلى أُذُن حانية متعاطفة معها.

فى ليلة زفاف « كواى لان » أخبرها زوجها أنه يعتبرها على قدم المساواة معه ، كرفيقة له وليست جارية أو إحدى ممتلكاته ، وقد شرح ذلك مبينًا أنه يريد أن يتبع الأساليب الحديثة السائدة فى الحياة الغربية ، ووافق على منحها وقتًا كى تكيّف نفسها مع هذا الوضع . صُعقت « كواى لان » فهى – طبقًا للعادات والأساليب القديمة – تعتبر نفسها فى مرتبة أدنى من زوجها ، وأنها مجرد تابعة له ، ولم تستطع أن تفهم رغباته . والأدهى من ذلك أنها تحيرت وارتبكت حين رفض زوجها أن

تقوم بواجباتها وخدماتها لوالدته ، وأنه لن يسمح بقيام زوجته بعمل الخادمة . كذلك كان من المعتاد أن يعيش الزوجان مع وَالِدَيِ الزوج ، إلا أن زوج « كواى لان » أصر على أن يعيشا معًا فى بيت مبنى على النموذج الغربى . وحين تقابل « كواى لان» بعض أصدقاء زوجها الغربيين ، تبدو غير مرتاحة ، إذْ وجدت الأساليب الغربية عجيبة ، وشعرت بالقلق إزاء عُزْلة زوجها الذى يستغرق تماماً فى اهتماماته الطبية . وعلى الرغم من أن أسرته بالغة الثراء، ويمكنه أن ينفق أيامه فى راحة وخمول ، وأن يختار حياةً مُرَفَّهَةً ، فإنه يرفض ذلك ، ويمارس عمله كطبيب بنشاط وحماس.

وأصَرَّ زوجها على حل رباط قدميها ويقول : إنهما قبيحتان ويرسم لهما صورًا تحمل تلك الصفة ، ويرسم العظام منحنية ملتوية . وفجعت « كواى لان » باقتراح زوجها ، وهى التى كانت دائماً فخورة بقدميها الصغيرتين كمظهر عام من الجمال . وطوال مرحلة طفولتها كانت أُمها تشرف بنفسها على نَقْعِهِمَا فى الماء الساخن وشَدِّهما بالأربطة « ويزداد الشَّدُّ يومًا بعد يوم ، وعندما بكت من الألم المبرح دعتها إلى تذكُّر أن زوجها فى يوم من الأيام سيثنى على جمال قدميها . وها هى ذى الآن تعلم أن زوجها ينتقد ويعارض بشدة هذه الممارسة .

حملت « كواى لان » مشكلتها إلى أمها، التى ذُهلت مِمَّا قصته عليها ابنتها . وعلى الرغم من أنها ربتها وَفْقَ الطرق والأساليب القديمة ، فإنها أخبرتها أنها منذ أن تزوجت لم تعد تنتمى لأسرة والديها ، ولكن لزوجه ، وليس عليها سوى طاعته والخضوع لإرادته . كانت تحب زوجها ..

ورويدًا رويدًا كانت معرفتها للطرق والأساليب الحديثة تنمو ببطء ، ووافقت على حَلِّ رباط قدميها ، وأذعنت لما يرغبه زوجها . وحين فهم أنها تحاول اتباع العادات الغربية عن طيب خاطر ، كَفَّ عن حياة العزلة ، وبدأ يُعَلِّمُهَا بعضًا من أساسيات العلم ، والأفكار الحديثة . ابتهجت «كواى لان » باهتمام زوجها ورعايته لها ، وأصبح زواجها الآن ناجحًا .

أما القسم الثانى من رواية « **رياح الشرق .. رياح الغرب** » فيتناول شقيق « كواى لان » ويضيف مشكلة الزواج المتبادل بين الأجناس والسلالات المختلفة إلى الصراع الرئيسى بين الطرق والأساليب السائدة فى كل من الشرق والغرب. وتواصل « كواى لان » مرة أخرى سرد الأحداث فى سلسلة رسائلها التى تبعث بها إلى نفس صديقتها .

وقد علمنا فى القسم الأول من الرواية أنَّ والدة « كواى لان » وأباها انزعجا حين رفض شقيقها الزواج من الفتاة « لى » التى خطبتها له أسرته. ومن ثَمَّ رَحَلَ فيما وراء البحار ليدرس العلوم الطبيعية . ثم نعلم الآن أنه يود أن يتزوج فتاة أمريكية تدعى « مارى » . وها هو ذا يكتب رسالة إلى والديه يسألهما السماح له بالزواج منها ، وفسخ خطبته القديمة لابنة « لى » حين كان طفلًا . رفض والده إجابته إلى طلبه ، وأمراه أن يعود ويؤدى واجبه الحقيقى نحو أسرته . ولكنه على الرغم من ذلك يتزوج « مارى » فى الولايات المتحدة ويعود معها إلى الصين .

يغضب والداه غضبًا منكرًا عنيفًا ، وتميَّزَا غيظًا.. وفى أول الأمر

ترفض أمه استقبال الزوجة الأجنبية ، ويعمد والده إلى الغياب لانشغاله فى إنجاز أعماله . وأخيرًا تُدثر « كواى لان » زوجةَ أخيها بثوبٍ صينى ، وتُدَبِّر الأمر؛ كى تقدمها إلى الوالدة ، ولكن الأم لاتقر تلك العلاقة ، وتجهض محاولات « كواى لان » كى تتوسط لإصلاح ذات البين . ويشتد اضطراب الأم ، ويزداد اهتياجها ، وتمرض فى النهاية . وتحت وطأة هذه الظروف تكتب إلى ابنها موافقة على مجيئه مع زوجته ليقطن فى أحد مساكن بيت الأسرة . وعاونت « كواى لان » زوجة أخيها فى حَزْم صناديقها ، وغادر شقيقها وزوجته بيت أخته رَاحِلَيْنِ إلى بيت أسلافه . وهناك نبذت الأسرة الزوجة الأجنبية ، وأرغمت على أن تعيش كسجينة معزولة عن العالم . وبعد أن تعلم الأم بأن الزوجة الأجنبية حامل ، تنهار فى حالة إحباط ووهن وضعف . وسرعان ما تقضى نحبها دون أن تعترف بالأجنبية كزوجة لابنها . وطبقًا للقانون الصينى ، لا يحصل الابن على ميراثه الشرعى ما لم يعترف أحد الوالدين بزواجه .

وبعد وفاة والدته يسأل الابنُ أباه أن يعترف بزواجه الشرعى، وبعد مراوغة يرفض الأب التماسه ، ويطلب منه والده - كما سبق أن طلبت ذلك أمه - أن يتزوج الفتاة التى اختيرت له ، وهى ابنة « لى » ، وبذلك يقدم الدليل على مَوَدَّة الأسرة . وفى فقرة درامية مكثفة يتبرأ شقيق « كواى لان » من أسرته ، ويصر على إزالة اسمه من سجلات العشيرة ، وقطع علاقته تماماً بأقاربه وأسلافه . وغادر هو وزوجته بيت أبيه ، وحصل على وظيفة مدرس بمدرسة حكومية . وأنجبت له زوجته ابنًا .

وتصف « كواى لان » الحُزْن الذى أحاط بمولد هذا الابن ، فقد انفصلت أمه عن بلدها ومواطنيها ، وحَطَّمَ أبوه روابط أسلافه . هذا صحيح ، ولكن الطفل قد وَحَّدَ فى الوقت نفسه بين القديم والحديث ، وبين الشرق والغرب . وتختم « كواى لان » حديثها مقررة أن الطفل المولود حديثًا سيصل إلى فهم كل من العَالَمَيْنِ – الشرق والغرب – ويصبح أكثر قوة ، وأبلغ حِكْمَة ، من ذلك المنطلق .

أبانت « بيرل باك » عن حِسٍّ مُرْهَف وهى تكتب بأسلوب شاعرى ورومانتيكى حافل بكثير من الصور الثرية بالألوان التى تنبض بالحيوية ، وتذكرنا بالترجمة الإنجليزية الشهيرة المتألقة التى قام بها « إدوارد فيتزجيرالد » فى القرن التاسع عشر لرباعيات الخيام ، التى جادت بها قريحة الشاعر الفارسى عمر الخيام وهو يصور مباهج الحب وأحزانه .

وفى تصوير « بيرل باك » لشخصيات المحظيات فى بيت والد «كواى لان » بأدق التفاصيل ، حقق لها ما تقصده ، وهى تعدد لنا أسلوب حياة وسلوكيات الأُسَر الصينية الأرستقراطية ، وأتاحت لنا التأكد من الفروق الكاملة فى العادات بين الصين والغرب .

وكانت « بيرل » مقنعة فى سردها لواقعية المشكلة بطريقة معقولة توحى بالثقة . ونقلت إلينا الرواية ببراعةٍ نكهةً محددةً واضحة للخلفية والمشهد ، والمكان ، وبصدق أصبح فيما بعد صفة جوهرية فى روايات وقصص «بيرل باك » .

وأحيانا تسود النزعة العاطفية ، وخاصة فى مشاعر « كواى لان » نحو بيت أسرتها ، وفرحها وسرورها بمولد ابن لها ، ورد الفعل بالنسبة لابن زوجة أخيها . وهناك أيضاً نزعة إلى الاستفاضة فى التشابه بين « كواى لان» وزوجة أخيها فى تأثرهما بجمال وسحر الأطفال ، إلا أن ذلك يقوى ويعزز نظرة عالمية واحدة ، وأن الناس فى انفعالاتهم وعواطفهم ومشاعرهم متشابهون كثيرًا ، بغضِّ النظر عن اختلاف أجناسهم .

وتحوى رواية « **رياح الشرق .. رياح الغرب** » كثيرًا من الفقرات المؤثرة، وتيمتها ذات معنى وهدف . والشخوص تقع فى أسر مأزق التحرر من القديم ، والأخذ بالأفكار العصرية . وكان الحل السعيد فى حالة «كواى لان» والحل شبه المأساوى بالنسبة لأخيها ، مقنعين . وكان اعتراض الوالدين الصينيين على زوجة ابنهما الأجنبية ورفضهما لها يضرب على وترٍ حساس عام ، وكانت التوترات الناجمة عن تحاملهما وتحيزهما المغرض ، ومواقفهم الغريزية تلفت الأنظار إلى المشكلة ، وتثير الاهتمام بها. وتشير إلى أن « بيرل باك » ضليعة متمكنة من معرفتها لموضوعها ، وتمتلك ناصية حس قصصى أصيل . وأبانت عن أنها روائية تمتاز بفهم عميق لكلٍّ من الجانبين فى شتى صراعاتهما بين عالمين مختلفين ، وبين العادات القديمة والجديدة . وهكذا أقامت محورًا صلبًا أدارت حوله عديدًا من أعمالها التى تتناول تلك التيمات.

ومن حياتها فى الصين حملت « بيرل باك » إعجابًا حارًّا للناس العاديين الذين يعملون فى الحقول ، فالصين دولة زراعية ، وهؤلاء

الفلاحون يُكَوِّنُونَ أربعةَ أخماس تعداد الشعب ، وعلى الرغم من كثرتهم الساحقة فإنهم كانوا أكثر الناس تعرضًا للمظالم ، وسوء المعاملة المستمرة على أيدى موظفى الحكومة ، واللصوص وقُطَّاع الطرق ، ومُلَّاك الأراضى ، هذا بالإضافة أنه كان عليهم الكفاح من أجل البقاء وهم يواجهون أخطارًا رهيبة من الفيضانات والمجاعات ، وحتى عندما كانوا يضطرون إلى الهرب جنوبًا أو إلى مناطق أخرى بسبب تلك الكوارث ، فإنهم لا يلبثون أن يعودوا إلى الأرض كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا . وقد اقتنعت « بيرل باك» بأن هؤلاء الفلاحين الطيبين يُكوِّنون القلب الأساسى للصين ، واهتمامها بهم كأناس منحها نقطة انطلاق فى أعمالها الإبداعية ، وأصبح حبها وتأييدها للفلاح الصينى من العناصر الأساسية فى أفكارها وكتاباتها.

وفى رواية « الأرض الطيبة » تصف « بيرل باك » كفاح فلاح صينى وزوجته التى كانت جارية ، وتحلل لنا نمو الأسرة حين تتطور وتكتسب تدريجيًا قوة وثروة . وتُبَيِّن « بيرل باك » أن مثل تلك الأُسَر تبدأ من الأرض، وإذا نشأت ظروف مواتية ، تزداد الأسرة مكانة ومنزلة وأهمية .

وقد استوقفنى اعتراف « بيرل باك » بأنها حين تهيأت لكتابة « الأرض الطيبة » لم تكن هناك حبكة أو خطة ، وأن الرجل والمرأة وأطفالهما تمثلتهم أمامها ، وهذا يُذكرنى بما قاله الكاتب الروائى والقصاص الإنجليزى «إدوارد مورجان فورستر » ، فقد كان فى سلسلة محاضراته بجامعة «كامبردج » لا يحفل بالشكل ، وَحَسْب الكاتب فى رأيه

أن يثب بنا إلى الاقتناع بشخصياته ، وأن يقدم لنا الحياة .. وهذا ما فعلته « بيرل باك » .

وتجيد « بيرل باك » مزج الواقع مع الرومانتيكية بنسب صحيحة .

وقد تُرجمت رواية « الأرض الطيبة » إلى كثير من اللغات ، ومنها الصينية والعربية .

وإذا انتقلنا إلى رواية « الأم » نجد أن « بيرل باك » كتبتها بالأسلوب البسيط المتماسك نفسه ، والشاعرى أحيانًا ، إلا أن المؤلفة تصور هنا جانبًا مختلفاً من حياة الفلاح الصينى .. إذ أنه أكثر قسوة ووحشية وألماً. والشخصية الرئيسية بلا اسم ، وتُدْعَى فقط « الأم » ،وهى مرسومة بعناية. أمَّا الشخصيات الأخرى فهى مسطحة ولا تتطور ، واستُخدمت فقط كأهداف تجذب انتباه « الأم » .

كان عالم تلك « الأم » مخالفًا لعالم « وانج لو ونج » فى رواية « الأرض الطيبة » ، الذى شَمَّر عن ساعد الجد والاجتهاد ، وعمل بأمانة فأقبلت عليه الدنيا ، بعكس « الأم » التى عاشت فى عالمٍ من الضحايا والفساد والانحراف الخُلُقى ، والمشوهين من ذوى العاهات .. عالم تشوبه الكراهية والقسوة ، فيالها من لوحة تصور حياة امرأة فى الصين ، حيث كانت الإناث – من الأطفال الرُّضَّع – يُقْتَلْنَ روتينيًّا ، فى حين كانت تباع الفتيات الصغيرات من الأُسَر الفقيرة كجوارٍ . ولم يكن هناك سوى الفرحة التى تثيرها مجىء حياة جديدة .. ولادة الأطفال ونموهم لتحدث توازناً مع الحياة البائسة التى عاشتها الأم .

وعلى الرغم مما يقابلنا فى عالم تلك الروايات من المآسى والأحزان ، والإحباط والسخرية ، والخيبة والفشل، فإنها ليست عالمًا بلا أمل . و «بيرل باك » تذكرنى هنا بالأديب الروسى الشهير « أنطون تشيخوف » الذى تُعانى شخوصه من اليأس ، والإحساس بالتفاهة والبلادة ، ومع ذلك فإنهم يتشبثون بالحياة ، وعند فشلهم يحلمون بالمستقبل .

و « بيرل باك » تكتب رواياتها وقصصها بلغة بسيطة ، تبدو فيها متأثرة بلغة الإنجيل ، الذى كانت أمها تجعلها تقرؤه منذ صغرها بصوت عالٍ . هذا بجانب أنها متأثرة أيضاً بأسلوب القصصيين الذين تتدفق كلماتهم دون أى تكنيك آخر سوى مقدار قليل من الوصف يأتى عرضًا ، بحيث يكفى فقط لإعطاء حيوية للمكان أو للشخص ، على ألَّا يؤدى ذلك إلى إبطاء أحداث القصة .

وعلى الرغم من أن معظم جمل « بيرل » طويلة ، فإنها أحيانًا تتكسر إلى جمل أقصر ، تتقطع متغيرة إلى أجزاء من الفكر ، تتموج فى حركتها .

ونلاحظ أيضاً أن « بيرل باك » كثيرًا ما تكرر الكلمات للتأكيد على نقاط معينة ، وهى لا تستخدم أى كلمة باللغة الصينية ، ولم تكن فى حاجة إلى شرح إحداها ، بل كانت تترجم الكلمة الصينية إلى اللغة الإنجليزية كما تعنى بالنسبة للصينيين .

و « بيرل باك » تتناول رواياتها – مثل « **رياح الشرق .. رياح الغرب** » و« الأرض الطيبة » و « الأم » وكثير من أعمالها – بطريقة موضوعية ، متجردة غير متحيزة ، ومستقلة فى الرأى .. شأن ما يتصف

به الأستاذ عالم الطب وهو يقوم بفحص المرضى أو تشريح الجثث على مشهد من الطلاب متوخياً الدقة، وإيضاح كل شىء بإسهاب ، دون أن يُحجب عنهم أية تفاصيل أو يستغنى عنها . وبالمثل نجد « بيرل باك » لم تبخل على القارىء بأية تفاصيل . وروايتها تزخر بشتى الأحاسيس والانفعالات ، والعواطف، والآلام ، والأحزان ، وخيبة الأمل ، والغضب ، والحقد ، والقلق ، والارتباك ، والحيرة ، والشك ، ومشاعر الخوف والحرج ، والإشفاق والابتهاج . و « بيرل باك » تتحرك هنا فى إطار المدرسة الطبيعية فى الأدب ، ورائدها الأخوان « جونكور » : « إدمون دى جونكور » و«جول دى جونكور » ، وهما كاتبان فرنسيان عاشا فى القرن التاسع عشر. ومن رُوَّاد المدرسة الطبيعية أيضاً الروائى الفرنسى الذائع الصيت « إميل زولا » من القرن التاسع عشر أيضاً ، وكان من أكبر المعجبين بالأخوين «جونكور » .

والطبيعية فى الأدب محاولة لتطبيق الأسلوب العلمى فى الكتابة الإبداعية . ويركز الكُتَّاب الطبيعيون على العالم الطبيعى ، واستبعاد كل ما هو « فوق طبيعى » أى : إقصاء أى قوة خارقة للطبيعة . ونادى « زولا » بأن الطبيعية هى تسجيل وثائقى لشريحة من الحياة بكل واقعيتها الخشنة المؤلمة ، وفحصها ودراستها ، كما يفعل العالِم عندما يفحص عَيِّنَةً تحت المجهر «الميكروسكوب » . ويعتقد الكتَّاب الطبيعيون أن كل ما يفعله الإنسان تحدده الوراثة أو البيئة ، أو كلاهما معًا . ويؤكد الكُتَّاب الطبيعيون أن أعمالهم تقترب من الواقع والحقيقة بأمانة ودقة أكثر من كُتَّاب الواقعية ، فنالوا انتشارًا ورواجًا . ومع ذلك فبيرل باك تختلف عن

الكتَّاب الطبيعيين فى أنها تثق أيضاً فى الإرادة الحرة ، وتؤكد قوتها .

وفى ميدان القصة القصيرة :

كتبت « بيرل باك » : « الزوجة الأولى وقصص أخرى » (١٩٣٣) – «اليوم وإلى الأبد » (١٩٤١)– « سبع وعشرون قصة » (١٩٤٣) – «الأقصى والأدنى » (١٩٤٧) (وهى قصص عن الصين واليابان وأمريكا) – « الصين وأمريكا » (١٩٤٧) « لوح الرسم الثلاثى الأمريكى» (١٩٥٨) – « القلوب تجىء إلى البيت وقصص أخرى » (١٩٦٢) – «العمل الطيب وقصص أخرى » (١٩٦٩) – « ذات ليلة عيد ميلاد » (١٩٧٢) – « الشرق والغرب » (١٩٧٥) – « أسرار القلب » (١٩٧٦) – « العاق وقصص أخرى » (١٩٧٧) – « المرأة التى تغيرت وقصص أخرى» (١٩٧٩) .

وفى غير الأدب الروائى والقصصى ، نُشرت لبيرل باك الكتب الآتية: «الشرق والغرب والرواية » (١٩٣٢) – « كل الرجال إخْوَة » (١٩٣٣) (وهى ترجمة لكتاب من تأليف تشوى هو تشوان) — « المنفية » (١٩٣٦) (وهو كتاب عن سيرة حياة والدة بيرل باك التعسة المحبطة كزوجة لمبشردينى) « الملاك المناضل .. صورة روح » (١٩٣٦) (وهو كتاب عن سيرة حياة والد بيرل باك ، ويمتاز بأنه أكثر موضوعية ، ويرينا ذلك الوالد المبعوث فى إرسالية دينية تبشيرية ، والذى كان يفيض حماساً بقلب قاسٍ) ثم كتابا « المنفية » و « الملاك المناضل » فى مجلد واحد بعنوان « الروح والجسد » (١٩٣٧) – «الرواية الصينية »

(١٩٣٩) - « عن الرجال والنساء » (١٩٤١ وأعيد طبع الكتاب عام ١٩٧١) - « أمريكا المتحدة وآسيا » (١٩٤٢) - « ماذا تعنى أمريكا بالنسبة لى » (١٩٤٣) - «الصين بالأسود والأبيض » (١٩٤٥) - «حديث عن روسيا » (بالاشتراك مع ماشا سكوت) (١٩٤٥) - « فلتخبر الناس » (بالاشتراك مع جيمس ين عن حركة التربية والتعليم الشاملة) (١٩٤٥) - « كيف يحدث ذلك » (حديث عن الشعب الألمانى فى الفترة من ١٩١٤ حتى ١٩٣٣، باشتراك مع إرنا فون بوشتاو) (١٩٤٧) - «مناظرة أمريكية » (بالاشتراك مع إسلاندا جوود روبسون) (١٩٤٩) - « الطفلة التى لا تنمو أبدًا » (١٩٥٠) (وهى تتعلق بابنتها المتخلفة عقليًا) - « من صديق إلى صديق» (بالاشتراك مع كارلوس رومولو) (١٩٥٨) - « ابتهاج الأطفال » (١٩٦٤) - « أطفال للتبنى » (١٩٦٥) - «الهدايا التى يجيئون بها » (دَيْن فى أعناقنا نحو المتخلفين عقليًا) (١٩٦٥) « شعب اليابان » (١٩٦٦) - « إلى بناتى مع الحب » (١٩٦٧) - « الصين كما أراها » (١٩٧٠) - « نساء كينيدى ... تقييم شخصى » (١٩٧٠) - « قصة الإنجيل » (١٩٧١) - «أمريكا بيرل سيدينستريكر باك » (١٩٧١) - «الصين فى الماضى والحاضر » (١٩٧٢) .

وعن سيرتها الذاتية : ألفت « بيرل باك » كتابين هما : « عوالمى المتعددة » (١٩٥٤) - و « جسر للمرور » (١٩٦٢) .

وفى أدب الأطفال نُشر لها : « الثائر الصغير » (١٩٣٢) - « قصص للأطفال الصغار » (١٩٤٠) - « يوم مشرق وقصص أخرى للأطفال »

(١٩٥٢) - « الرجل الذى غيَّر الصين » (قصة صن يات - سن)
(١٩٥٣) - « جونى جاك وبداياته » (١٩٥٤) - « أربع عشرة قصة »
(١٩٦١) - «رواى القصص الصينى » (١٩٧١) .

وفى التأليف المسرحى : نُشر لبيرل باك مسرحية « حَدَثٌ فى الصحراء» التى قُدمت فى مارس عام ١٩٥٩ ،ويقابلنا فيها علماء يعملون فى مشروع حكومى سرى فى موقع بصحراء أريزونا . وحين يعلم أحد العلماء الإنجليز بأنه فى الحقيقة يعاون فى إنتاج سلاح تدميرى رهيب أراد الانسحاب . وفى نهاية المسرحية يسلم الجميع بالخطر الماحق للمنتج الجديد، فيقرر العلماء محاولة توجيه الطاقة الذرية كى تستخدم فى الأغراض السلمية .

وفى هذه المسرحية تُناشد « بيرل باك » العلماء الأمريكيين والإنجليز كى يرفضوا إعطاء حكوماتهم أى معلومات عن أسلحة ، يمكن أن تُستعمل فى حروب قد تشتعل فى المستقبل .

وتنبع قوة « بيرل باك » ككاتبة وأديبة من ذكائها الخارق ، ورواياتها وقصصها وكتاباتها التى يستمتع بها القارىء ، والتى لها مذاق رسالة هادفة جليّة واضحة مشرقة ، تنطلق من خبرة واقعية . ولا ريب أن ما أسهمت به فى التبادل الثقافى بين الصين والغرب ، وما قدمته إلى رحلة الحضارة والفكر لا يُقَدَّرُ بثمن .

وقد تُوفيت « بيرل باك » فى « دانبى » بولاية « فيرمونت » فى السادس من مارس عام ١٩٧٣ .



الدكتور غبريال وهبة

نُشر له ٢٨ كتابًا تشمل روايات ومجموعات قصصية ومسرحيات ودراسات نقدية فى الأدب الروائى والمسرحى . كما نُشرت له ٦٧ قصة قصيرة ، و ٤٣٠ مقالاً ودراسة فى النقد الأدبى والمسرحى والسينمائى بالصحف والمجلات بمصر وشقيقاتها العربيات . وهو عضو اتحاد الكتاب ، ونادى القصة ، وجميعة الأدباء ، ونقابة المهن التمثيلية (شُعبة النقد) ، والجمعية المصرية لكُتَّاب ونُقَّاد السينما ، والجمعية العربية للفنون والثقافة والإعلام . ويعمل نائب رئيس تحرير مجلة عالم الفكر .

والأديب الناقد الدكتور غبريال وهبة حاصل على بكالوريوس كلية العلوم ، جامعة القاهرة – ودبلوم دراسات عليا فى التربية وعلم النفس – ودبلوم إشراف فنى من كلية التربية ، جامعة عين شمس – وليسانس فى اللغة الألمانية من كلية الألسن – ودبلوم فى اللغة الإيطالية من معهد دانتى أليجييرى – ودرس اللغة الإسبانية لمدة عامين فى المعهد الثقافى الإسبانى – ودبلوم الدراسات العليا فى النقد الفنى من أكاديمية الفنون – وماجستير فى النقد الفنى من أكاديمية الفنون – ودكتوراه الفلسفة فى الفنون من المعهد العالى للنقد الفنى بأكاديمية الفنون .

كتب صدرت للمترجم :

١ - الكيمياء فى خدمة المجتمع :

لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .

٢ - الطاقة الذرية :

لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .

٣ - طرائف ومداعبات علمية :

مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ .

٤ - دنيا الدم :

لجنة البيان العربى ١٩٥٨ .

٥ - الأصبع أو الزمن ينصرم :

ترجمة ودراسة – من سلسلة روايات عالمية – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ .

٦ - أيها الخادم الطيب المخلص :

ترجمة ودراسة – من سلسلة روايات عالمية – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ .

٧ - سآخذ بثأرى :

ترجمة ودراسة – من سللة روايات عالمية – المؤسسة المصرية للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٧٠ .

٨ - الدوامة :

الهيئة العامة للتأليف والنشر (زارة الثقافة) ١٩٧٠.

وهى الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

٩ - العاصفة :

العدد ٢٩٩ من روايات الهلال – نوفمبر ١٩٧٣ .

١٠ - ليالٍ لا تُنْسَى :

العدد ٣١٧ من روايات الهلال – مايو ١٩٧٥ .

١١ - المسحوق السحرى ومسرحيات أخرى :

مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ .

١٢ - جسر بنات يعقوب :

من سلسلة الإبداع العربى – الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٥ .

١٣ - دانتى والكوميديا الإلٰهية :

مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧ .

١٤ - أثر الكوميديا الإلٰهية لدانتى فى الفن التشكيلى :

من الألف كتاب (الثانى) - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ .

١٥ - الزوجة الأولى :

من سلسلة الرواية العربية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (زارة الثقافة) ١٩٨٧ .

١٦ - الغلطة الوحيدة - صوت من الفضاء :

مسرحيتان علميتان - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .

١٧ - دون كيشوت بين الوهم والحقيقة :

من سلسلة دراسات أدبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٩.

١٨ - كاميلو خوسيه ثيلا :

الفائز بجائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٩ .

من سلسلة المكتبة الثقافية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٩٠.

١٩ - بلد التعليم :

المركز الثقافى لجمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية ١٩٩٢ .

٢٠ - جرح فى كرامة رجل :

مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٢ .

٢١ - باولو وفراتشيسكا :

ترجمة ودراسة - من سلسلة المسرح العالمى - وزارة الإعلام بدولة الكويت - ١٩٩٣ .

٢٢ - العجوز والبحر :

ترجمة ودراسة – من سلسلة روايات جائزة نوبل – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٤ .

٢٣ - الدراما الهيلّينية على خشبة المسرح (باللغة الإنجليزية) :

القسم الثقافى بسفارة اليونان – ١٩٩٥ .

٢٤ - دعوة إلى المسرح الإغريقى :

القسم الثقافى بسفارة اليونان – ١٩٩٥ .

٢٥ - نساء من بارود :

من سلسلة المسرح العربى – الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٩٧ .

٢٦ - سليمان الحلبى فى القاهرة :

رواية تاريخية – مكتب النيل للطبع والنشر – ١٩٩٧ .

٢٧- ثلاث أديبات مبدعات :

« فاطمة العلى – تونى موريسون – إقبال بركة » دراسة نقدية – دار نشر عيون جديدة – ١٩٩٨ .

٢٨ - رياح الشرق .. رياح الغرب :

ترجمة ودراسة – من سلسلة روايات جائزة نوبل – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٩ .

تصميم ورسوم محمد حجي

